أسطورة الإنسان والبحيرة

أسطورة الإنسان والبحيرة، رواية
الطبعة الثانية ٢٠١١
تأليف: دلال خليفة
الغلاف: تصميم وتصوير فوتوغرافي: المؤلفة
أداء: جميل عبد الواحد
حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

أسطورة الإنسان والبحيرة

دلال خليفة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرواية ليست صورةً فوتوغرافيةً للواقع ولكنّها كاريكاتير له، والكاريكاتير – كما أراه – قد لا يكون دائماً نكتةً أو صورةً مُضحكةٍ ولكنّه دائماً صورةٌ تعبّر عن الواقع بشكلٍ ساخرٍ وصريحٍ إلى حدِّ تسمية الأشياء بأسمائها، وشديد الحرّيّة إلى درجة التطرَّف في التعبير، وشديد التطرِّف في التعبير إلى درجة الخروج عن حدود الواقع. وقد وصفت هذا العمل بأنّه "كاريكاتير" لاشتراكه مع الصورة الكاريكاتورية في التحرُّر من الواقع وحدوده، وليس ذلك تحديثاً بقدر ما هو عودةً مؤقتةً إلى شكلٍ من أشكال الأدب القديمة التي كانت توظّف الخيال بشكلٍ أكبر، وتستعين بالخوارق في التعبير عن الفكرة الأدبية. وبما أنَّ جانباً من هذا العمل يأخذ شكلاً أسطورياً إلى حدٍ ما – حيث يقدِّم تفسيراً عابِثاً لظاهرةٍ معيّنةٍ كما تفعل بعض الأساطير – فمن الطبيعيّ أن يُختار له زمنٌ قديمٌ، وقد أخذت أسماء شخصياته من التراث العربيّ ولكنّ ذلك لا يجعلها عربيّة بالضرورة إذ يوجد بها بعض الأشياء التي أخذت من حضاراتٍ أخرى مثل ضرائب المواد الاستهلاكيّة مثلاً.

قد تلتقي خطوط الرواية بخطوط الواقع تارةً وتبتعد عنها تارةً أخرى، لا لطمس صورته ولكن لإبراز بعض جوانبه بشكلٍ أوضح – وإن كان هذا الشكل يعبر في النهاية عن رؤيةٍ شخصية – كما يبتعد رسّام الكاريكاتير بخطوطه الساخرة عن حدود الملامح الواقعية إمعاناً في توضيحها.

المؤلفة

١

في أحد أيّام الربيع بشارع السدر وقفت حليمة تلتقط غسيلها الجاف من على الحبل في فناء منزلها وتضعه في سلّة من الخوص في يدها وبجانبها طفلها الصغير، فإذا بشلّالٍ من الماء يندفق عليْها ويبلِّلها هي وسلّتها التي رصَّت فيها الملابس الجافة، فوقفت مندهشةً برهةً ثم انطلقت بسلتها إلى الباب وفتحته لترى قبالته رجُلاً قد اعتلى سلّماً وبيده دلو ماءٍ فارغٍ بادرها بالاعتذار، ولكنّها انطلقت تشتمه بغضبٍ شديد، فجاء رجلٌ آخر وحاول تهدئتها فقالت بغيظ: "أريد أن أعرف لماذا." فسألها الرجل:

- هل أنت ساكنةٌ جديدةٌ في هذه المنطقة؟

- إنّني هنا منذ ثمانية أشهر.

- لذا فأنت لا تعرفين إجراءات يوم التنظيف.

- يوم التنظيف؟!

- نعم، ألم تسمعي عنه من جيرانك؟

- لا، فقد أصيبت جارتي بصداعٍ حادٍّ في آخر مرةٍ زارتنا فيها منذ ثلاثة أيام، ولم أرها منذ ذلك الحين، ما هو يوم التنظيف؟

- إنّنا ننظف بعض شوارع المدينة وما يحيط بها من جدران منازلٍ بشكلٍ مختلفٍ عن المعتاد ونزيِّنها كلَّ عامٍ في مثل هذا اليوم، أنظري.

فخطَت المرأة بضع خطواتٍ خارج المنزل وأخذت تتلفّت حولها بانبهار. كان عمّال التنظيف يملؤون الشارع والطرقات، بعضهم يكنس الأرض وبعضهم يغسل الجدران وبعضهم يرش الأشجار على جانِبيْ الطريق بالماء ويشذِّبها، وبعضهم يُعلّق الزينات على الجدران التي تم غسلها والأشجار التي ازدادت أوراقها إخضراراً بعد أن تم رشها، وقد امتلأ المكان كلّه برائحة التراب المبتل والجوِّ النظيف. سألت الرجل باهتمام: "ولكنْ لماذا؟" فأجاب الرجل: "إنّنا ننظّف كلَّ الشوارع التي يمر بها موكب المَلك ونزيّنها في اليوم الذي يسبق مروره مباشرةً." تهلَّلت أسارير المرأة عندما سمعت ذكر المَلك وقالت وهي لا تكاد تُسيطر على ابتسامتها الواسعة:

- المَلك؟ هل سيمرُّ المَلك غداً من أمام بيتنا؟

- نعم.

- وسأراه وجهاً لوجه؟

- نعم، إذا وجدت لكِ مكاناً بين الناس.

فأخذت المرأة تتلفَّت حولها بسعادةٍ ثم وقع بصرها على سلّتها التي تحملها ورأت ملابسها المبلَّلة فعاد لها عبوسها وقالت: "ولكن لماذا تسكبون الماء في بيوت الناس؟ لا أظنُّ أن المَلك سيطلُّ داخل المنازل." فقال الرجل مُعتذراً: "ذلك كان خطأً غير مقصودٍ فهذا العامل جديد.." فتجاهلته المرأة ودخلت بيتها وهمهمت وهي تغلق الباب خلفها: "لا عجب أن سكان البيت السابقين غادروه إلى غيره!"

فسأل الطفل: "هل ذهبوا إلى مكانٍ ليس به مَلكٌ يطلّ في المنازل يا أمّي؟" فالتفتت حليمة إليْه وهمَّت بالإجابة إلّا أنّها انتبهت إلى فحوى السؤال الذي

عزَّزه الطفل بنظرةٍ فضوليةٍ ملحَّةٍ في عيْنيْن واسعتيْنِ تأمَّلتهما برهةً وشعرت برغبةٍ ملحَّةٍ في تجاهله هوَ أيْضاً، فتركته وذهبت إلى المطبخ.

***

في أحد منعطفات شارع السدر كان الهدوء يسود المكان مع إطلالة العصر – بعد انتهاء أعمال التنظيف – عندما انفتح باب بيتٍ صغيرٍ يتوسّط الطريق، وخرج منه مختار وأغلقه خلفه وهو يُصفِّر أنغاماً مرحةً واجتاز الشارع بحيويّةٍ شديدةٍ وعيْناه تنظران إلى الأمام بإشراقٍ بينما الهواء يُداعب خصلاتٍ من شعره الغزير. كان مختار من القلائل الذين يتمتَّعون بالرضى التامِّ عن النفس حتّى لتكاد ذراعه تمتدُّ فوق كتفه لتربت على ظهره لفرط رضاه عن نفسه، وكان من القلائل الذين يتمتّعون بالاطمئنان إلى أنّهم قد استغلّوا كلَّ الفرص المُتاحة لهم بحكمةٍ بحسن اتّباعهم للخط الذي رسموه لحياتهم بروِيَّةٍ وبعد تفكيرٍ دقيقٍ، وإلى أنّهم لم يُخطئوا أبداً، فغدوْا ولا سياطَ ندمٍ أو لومٍ تُلهب ضمائرهم وتكدِّر صفوهم، وغدوْا ولا همومَ تُثقل خطواتهم وترسم الألم على وجوههم. وكذلك كانت السمعة التي اكتسبها مختار في المدينة على مدى سبع سنين تملؤه فخراً يُكوّن في عيْنيْه ومشيته ذلك الإشراق وتلك الحيويّة. لقد أصبح كثيرٌ من سكّان المدينة ينظرون إليْه بإكبارٍ ويتجنّبون إغضابه بعد أن أثبت للجميع أنّه ذلك الشاب القويّ بعضلاته وبشخصيته، والمنتصر دائماً في أيِّ خلافٍ بقوَّته وحِنكته.

بعد مدّةٍ من السيْر في شارع السدر مرَّ خلالها بمنعطفاتٍ فسيحةٍ وأخرى ضيّقةٍ بين المنازل القديمة الطراز والمتجاورة، تجاوز بيتاً بسيطاً أبيض اللون يُجاور منعَطفاً مشى فيه حتّى آخره حيْث توقَّف أمام بيت صديقه عمرو. هناك كان عمرو جالِساً بمحاذاة دُريدٍ وأمامهما آدمُ وهيْثم. وكان أولئك الأصدقاء

الذين يجتمعون في بيت عمرو كلَّ يومٍ هم من يأنس إليْهم مختار مُذ قدِم من قريته إلى المدينة منذ سبع سنين ليدرُس على أيْدي معلّميها. جلس مختارٌ إلى جانب آدمَ مستقبلاً عمرو الذي كان أكثر أفراد المجموعة حِكمةً ورزانة، والذي كانوا يلجأون إليْه في المواقف التي تتطلّب نُصحاً ومشورة. وكان ذلك يُسعده إذْ يدرّبه على دوْر المعلّم ويقرّب إليْه حلمه بأن يكون معلّماً عند إنهاء دراسته الذي بات وشيكاً، بينما كان الباقون يهدفون إلى صقل شخصياتهم بالثقافة والعلم لشغل مناصبَ كَتبةِ ديوانٍ وما إلى ذلك. وبالرغم من اختلاف شخصياتهم وطباعهم إلّا أنّه كانت تجمعهم أُلفةٌ وموَدَّةٌ كبيرةٌ وشعورٌ بانتماء كلٍّ منهم إلى المجموعة.

بعد أن استقرَّ مختارٌ في مكانه بجانب آدم نظر إليْه عمرو قائلاً: "لقد اقترح دُريدٌ أن أشرح درس النحو الذي ألقاه المعلّم اليوم، فما رأيك يا مختار؟" فأجاب مختارٌ بلا تردد: "لا، لا نريد درْساً آخر، كفاك تدرُّباً علينا يا عمرو." فقال دريدٌ محتجاً: "ولكنِّي لم أفهم منه شيئاً." فرد مختارٌ بلا اكتراث: "ستفهم فيما بعد." ثم نظر إليه وقال: "لا أعلم لماذا واصلت دراستك رغم كُرهك لها." فظهرت نظرةٌ متسائلةٌ على وجه دُريدٍ وقال: "كُرهي؟ إنَّني لا أكرهها." فردَّ مختار: "ولكنّي أشعر دائماً أنّك تعاني، لماذا لم تعمل في دكّان أبيك كما كان مُتوقَّعاً بعد إنهائنا المرحلة الثانية؟ لماذا واصلت معنا؟" فقال دُريْد: "كلُّ هذا لأنّني اقترحت المراجعة؟ حسناً ماذا تريدنا أن نفعل إذاً؟" فقال: "ما رأيُكم في الذهاب إلى السوق؟ أريد أن أشتري حلّةً جديدةً لأحضر موكب المَلك غداً." تساءل هيْثم في دهشة: "أنت؟ لماذا؟ أنت لم تعبأ بموْكب المَلك قط." فقال آدم مبتسماً: "ولكنّه قرَّر أن يهتمَّ عندما رأى ابنة الوزير الجديد التي تربطها بالمَلك صلة قرابة." فأجاب مختار: "نعم، لقد أخبرتكم كيْف كانت المسكينة تطلُّ حائرةً من هَوْدجِها بعد أن سقط سائسها، فسبقْتُ

جميع من كان معها إلى إسعافه.. وعندما التفتُّ إليها وجدتُها تنظر إليّ بإعجابٍ وهي تبتسم." ثم ابتسم وكأنّه ينظر إلى ابنة الوزير وأضاف: "لقد كان إعجابها بي وبشهامتي واضحاً." فقال عمرو باسماً: "ما هذا الغرور! لماذا لا تقول إنّك أعجبت بها وبجمالها؟" فرد مختار بلا تردُّد: "لأنّ إعجابها بي ضروريٌّ وإلّا فلن تقبلني زوجاً." ضحك الجميع من مختار الذي نظر إليْهم مستغرباً وقال: "ولكنّي لا أمزح، سأعمل في وظيفة كاتب ديوانٍ وأكون قريباً من والِدها الذي سأكتسب ثقته لا محالةَ وأنتزع إعجابه، ومن ثَمَّ إعجاب المَلك الذي سيوصِلني إلى مناصب عُليا في المستقبل." فقال هيْثم ساخراً: "لذلك قرَّرت أن تقف في استقبال موكب المَلك غداً." أجاب مختار: "نعم، ويجب أن يكون منظري لائقاً وأنا أقف في موكبه، هيّا بنآ." فتجاهل عمرو طلب مختار وقال:

- ولكنَّنا ظننّا أنّك ستتزوّج سلمى.
- ولماذا أتزوّج سلمى؟
- لأنَّك تُحبُّها مُذ قدمتَ من القرية.
- أحبُّها ولكنْ لماذا يتعيَّن عليَّ أن أتزوَّجها إذا وجدتُ من هِي أنسب لي منها؟

نظر إليه عمرو مُستغرباً فواصل هو:

- في حياة كلِّ إنسانٍ إنسانٌ يشعر بالقُرب الشديد منه وبالمودة تجاهه ويثق به ويعتبره ملجأً.. قد يكون هذا الإنسان أباً أو أماً أو أخاً أو صديقاً أو ايَّ شيء، ولكنّه ليس من الضروري أن يكون زوجةً، وسلمى هي الإنسان الذي أعتبره ملجأً لي وأظنُّ أنّني ملجؤها، ولكنَّ ذلك لا يعني أنّني أنسبُ رجلٍ لها وأنّها أنسب امرأة لي، ولا يجب أن نجعل عاطفتنا تسيّرنا بدلاً

من عقلنا. يجب أن نترفَّع عن العواطف إذا تعارضت مع مصالِحنا التي يراها لنا عقلنا.

- ولكن، ألا تشعر أنَّك تظلمها؟

- لا، إطلاقاً.

- أظنُّ أنَّك ستكون من النوع الذي يظلِم الناس بحسٍ متبلّدٍ يا مختار.

- لا أعتقد أنّني أظلِم أحداً إذا حاولت أن أبحث عمّا هو أنسب لي، وعلى ذكر المناسبة، أظنُّ أن سلمى تناسبك أنت أكثر مما تناسبني يا عمرو، لأنّك تريد أن تكون معلّماً مثل والدها الذي قد يساعدك في هذه المسألة.

عند هذا الحد بدا على عمرو استهجانه لمنطقه فقال له: "قم يا مختار. اذهب إلى السوق واشتر ما تريد ودعنا نبدأ درسنا." نهض مختار واتجه إلى الباب ثم خرج وسار مُبتعداً عن البيت وهو يصفّر بمرح.

***

في تلك الأثناء أتت جارة حليمة - سُعدى زوجة سفيان المستشار المعزول- تزورها. ولم تكن سُعدى لتزور حليمة وأمثالها من الناس قبل أن يفقد زوجُها منصبه، ولو رأت آنذاك زوج حليمة السمّاك عائداً من البحر بشباكه اللّزجة ولو من بعيدٍ لسدّت أنفها ومنعته من الوقوف في مجال رؤيتها. ولكنّها عرفت تلك العائلة عندما اضطر زوجها إلى بيع بيته الفخم والسُكنى في ذلك البيت المتواضع لسدِّ احتياجات بيْته من دون الاضطرار إلى امتهان مهنةٍ لا تليق به كمستشارٍ سابقٍ للمَلك. ولم تجد بداً من مخالطة الجيران البسطاء وتجاذب "أطراف الشائعات" معهم، ففي النهاية يتساوى خبر خلافٍ بيْن أحد الوزراء وزوجته في الإثارةِ بخبر سرِقةِ دجاجةٍ من فناء بيت الخباز.

بعد أن حيّت سُعدى حليمة وعامراً زوجها المُسنّ الذي مرّتا به في الفناء وهو يُصلح شباكه في ركنٍ من الأركان جلست المرأتان في حجرةٍ صغيرةٍ مُطلّةٍ على ذلك المكان الذي اتخذه عامرٌ مَشغلاً له. ثم تكلّمتا عن أحداث اليوم وإجراءات التنظيف. وأخذت حليمة تشكو عمّال التنظيف لسُعدى قائلة: "لقد أغرقوا فناء المنزل بالماء واضطروني إلى غسل الملابس مرَّةً أخرى." فردَّت سُعدى: "ما أسخف ذلك!" فأكملت حليمة: "لقد سبّبوا لنا إزعاجاً كبيراً." فهزَّت سُعدى رأسها وهي تقول: "ما أوقح ما فعلوا!" فتدخَّل عامرٌ زوج حليمة قائلاً وهو منهمِكٌ في حِياكة شبكة صيدٍ: "والماء الذي سُكب قد يؤثّر في دعائم بيْتنا ويضعفها." فقالت سُعدى بصوتٍ تكلّفت رفعه ليصل إلى عامرٍ وشباكه: "ما أسوأ ما فعلوا!" فقال وهو ما يزال ينظر إلى خيوط شبكته: "وقد ينهدِم علَيْنا لقِدَمِه بسبب تلك المياه الغزيرة التي أغرقوا بها الأرض والجدران." فردّت بشكلٍ آليّ: "ما أشدَّ خطورة ذلك!" فأردف: "ويقولون إنّهم يفعلون ذلك كل عام!" وقبل أن تجد سُعدى ردّاً مناسباً على ذلك دخل ابنهما – الذي لم يتجاوز السادسة من عمره – وقال: "ولولا أنَّ أمي مسحت الماء في الحال لتعرّضت للوقوع ولكُسرت ساقي أو ذراعي من جراء ذلك." فهزَّت سُعدى رأسها مستنكرةً وقالت كالببغاء: "ما أفظع ما فعلوا!" فأكمل: "أو لمتّ!" فأمسكت سُعدى جانِبيْ رأسها تحاول أن تُنقِذه من التصدّع بينما أكمل الطفل: "ولو انزلقت رِجل أبي عليْه ووقع لمات في الحال لأنّه رجلٌ عجوز." فقالت سُعدى وهي ما تزال مُمسكةً برأسها: "عُدتُّ عاجزةً عن سماع المزيد عن ذلك الفعل الشائن الذي ارتكبه أولئك العمّال المهملون." فنظرت إليها حليمة نظرةً ذات مغزى وقالت: "هذا لو كان ما فعلوه إهمالاً." فسألت سُعدى بلهجةٍ تقطر فضولاً: "هل تعنين أنّهم قصدوا إيذاءكم؟" فقالت حليمة بشكلٍ يوحي بالغموض: "من يعلم!" فتدخَّل عامرٌ في الحديث قائلاً: "وهل كان

خفض رواتب الجنود إهمالاً!" فأجابت سُعدى: "لقد سمعت أنَّ المَلك قرَّر خفض رواتبهم لإقامة مُستشفيات جديدة." فقال عامر: "سنرى." فتنهَّدت سُعدى وقالت: "وكذلك لم يكن عزْلُ زوجي عن منصبه إهمالاً." نظرت إليها حليمة بفضولٍ شديدٍ وحاولت تجاهل سؤالٍ مُلحٍّ كان يقف على حافّة لسانها كلّما رأت سُعدى، وكانت دائماً تتمكن من ابتلاعه في آخر لحظةٍ قبل أن يسقط، ولكنّه في ذلك اليوم تطرّف كثيراً بعد أن سمعت سُعدى نفسها تذكر ذلك الموضوع، وتدلّي بحيث لم تستطع ابتلاعه فانفتح فمها رغم إرادتها وسمعت نفسها تقول: "ولكنْ لماذا عُزل زوجك؟" هنالِك أهمل عامرٌ خيوط شبكته حتى أوشكت على السقوط من يده، ووجّه بصره وانتباهه وكلَّ كيانه إلى سُعدى التي قالت: "لا أعلم! ولا أحد يعلم السبب في عزله مع ما كان يُظهر من كفاءةٍ في العمل." التقط عامر إبرته وخيوط شبكته – وكانت قد سقطت منه في النهاية – بعد أن خاب فأله في سماع حكايةٍ مثيرةٍ وقال: "ربّما وشى به أحد، تعلمين أنّ الناس يُسيئون الظنَّ دائماً ويفسّرون كلَّ فعلٍ يصدر عن غيرهم بما لا يحتمله. إنّهم دائماً يهوِّلون ويبالغون ويروّجون شائعاتٍ كاذبة." فتنهدت سُعدى وقالت: "صدقت! صدقت حقاً يا عامر."

آنذاك لم تكن سُعدى قادرةً إلاّ على حفظ سرٍّ واحدٍ هو سرُّ عزل زوجها الذي تتكتّم عليه طواعِيةً ويحلو لها أن يظنُّ الناس أنّه عُزل بلا ذنبٍ وأنّه مظلوم، وإنْ كانت تُقدّر للمَلك سُموَّ خُلُقه الذي جعله يمتنع عن إخبار أحدٍ غيْرِ زوجها بأسباب عزله. ولم تكن تحاول التحدث عن السبب الحقيقيِّ حتى مع زوجها الذي أصبحت نظرته لها تتضمَّن لوْماً تراه بوضوح.

وفي سوق المدينة الذي يعجّ بالباعة والمُتبضِّعين أمام الدكاكين التي اصطفت بجوار بعضها بعضاً وشغَلت حيِّزاً كبيراً من الطريق العامّة وعدداً

من المنعطفات فيه كان مختار يتجوّل واضعاً يديْه في جيْبيْه وهو يلتفت تارةً إلى اليمين وتارةً إلى الشمال لكيْ لا يفوته شيء. ثم دخل طائفةً من الدكاكين واستعرض ما فيها من حُلَلٍ فلم تعجبه أسعارها. وفيما كان يتفحص بعض الملابس في أحد الدكاكين ويفكّر في أسعارها راودته رغبةً في صرف النظر عن شراء حلةٍ جديدةٍ خاصةً وأنّه لم يكن واثقاً تماماً من إمكانية حدوث ما خطَّط له، فناول ما في يده بصمتٍ للبائع الذي نظر إليه مستغرباً، وترك الدكان ثم غادر السوق. وما إن اقترب مغيب الشّمس حتّى كان مختار جالساً ثانيةً بين أصدقائه مُسنِداً رأسه بكفّه وهو يستمع بمللٍ شديدٍ إلى درس نحوٍ يُلقيه عمرو، إلى أن جاء وقت الانصراف فتمطّى ثم مشى بتكاسُلٍ إلى خارج البيت، واتّخذ طريقه إلى منزله مارّاً بالبيت الأبيض ذي الستار الأخضر على نافذته حيث كانت سلمى تنتظر أن يقترب مختار من النافذة ليُخبِرها بأيِّ شيءٍ كما كان يحدث أحياناً، بعد أن غيَّر عادته في المرور عليها لتحيَّتها يومياً في ذهابه وإيابه، ولكنه تجاوز بيتها دون أن يلتفت إليه، كعادته في الفترة الأخيرة ومضى في طريقه.

***

وجاء اليوم الكبير واقتربت ساعة مرور موكب المَلك فاحتشد الناس على جانِبي كلِّ طريقٍ يسلُكه الموكب، وجلس بعض الناس على الأرض وأمام أبواب المتاجر والمنازل بعد أن تعِبوا من الوقوف وأخذوا يتناولون أطعمةً خفيفةً وهم جالسون بملابسهم الجديدة وقد بدا عليهم الإشراق وكأنّهم في يوم عيد. وأمام بيت عامر السمّاك وقفت حليمة وابنها وانضم إليهما عامرٌ بعد قليلٍ. ثم خرجت سُعدى من دارها ووقفت مع حليمة وأسرتها وقدمت إليهم أكياساً بها مكسراتٍ وزبيب. سألت حليمة: "لماذا لم يأت زوجك ليشاهد

الموكب؟" فقالت سُعدى: "وهل تعتقدين أنه يحبّ رؤية الملك بعد أن جرّده من منصبه". فقال عامر وهو يهزّ رأسه مُظهراً استهجانه لعزله: "من يلومه!" فقالت سُعدى مبرِّرة رغبتها في مشاهدة موكب الملك الذي عزل زوجها بعد أن أخجلتها نبرة عامر التي عبّر بها عن تعاطفه الشديد مع زوجها: "ولولا أنّني لا أطيق الجلوس في البيت عندما يكون كلُّ الناس خارج بيوتهم، وأنّني لا أستطيع الاكتفاء بسماع الأخبار عندما يُتاح لي أن أراها تحدث أمام عيْنيَّ لما أتيت." فقالت لها حليمة بلهجةٍ شديدة التأييد: "ومن يلومك!" ولم تكن سُعدى هي الوحيدة التي لا تستطيع مقاومة تلك الرغبة إذ كان معظم الناس في تلك المدينة يحرصون على رؤية موكب المَلك البهيج الذي يروْنه مرَّةً واحدةً في منتصف الربيع كلِّ عامٍ كما يروْن الأزهار الموسميّة الربيعيّة.

وبدأ سيْر الموكب الذي توسطته رُكوبة المَلك وهي حِصان ضخمٌ في غاية الجمال سِرجه منقوشٌ ولِجامه مُرصَّعٌ بالأحجار الكريمة، والمَلك جالسٌ على ظهره بملابسه الفاخرة وبُردته الموشّاة وأمامه وخلفه دوابّ كثيرة أصغر حجماً وأقلُّ جمالاً من حصانه تحمل الكثير من العساكر والجنود وأفراد الحاشية، وأمام تلك الدوابّ بسروجها الأخّاذة المنظر وخلفها جيْشٌ من المشاة من أتباع الموْكب وقد لبسوا حللاً فاخرةً تتشابَه ألوانها في الصفِّ الواحد وتختلف عن ألوان حُلل الصفوف الأخرى، وقد تقلَّد أولئك المشاة السيوف والخناجر، أما من كانوا في المقدمة والمؤخرة فقد حملت صفوفٌ منهم طبولاً يدقُّونها دقاتٍ منتظمة لها هيْبة وصفوفٌ حملت أبْواقاً ينفخون فيها نغَماتٍ تتناسب ودقّات الطبول. وفي وسط الموْكب كان المَلك رافعاً يده طوال الوقت يُحيِّي شعبه الذي تزاحم أفراده على الأماكن التي تتيح رؤيةً أوضح لوجه

الملك الباسم الذي تستقبله وجوهٌ مبتسمةٌ بسعادةٍ على جانبي الطريق الطويل الذي يسير فيه الموكب.

عندما وصل الموكب إلى بيت حليمة وزوجها السماك أخذ أفراد الأسرة الصغيرة ومعهم سُعدى يُلوّحون بأيديهم محيّين المَلك وهم يبتسمون في بهجةٍ شديدةٍ كبقيّة المصطفّين على جانبي مسار الموكب الذين ما إن يسمعون الأبواق من بعيدٍ حتى يهبّوا واقفين، تاركين ما يأكلون أو يشربون لكيْ لا يفوتهم شيءٌ من موكب ملكهم. وعندما اقترب الموكب من نهاية الشارع أخذ مختار – وقد وصل متأخراً – يُحاول دسَّ نفسه بين صفوف الجماهير ويدافعهم إلى أن وقف خلف الصفَّ الأمامي، ولولا أنّه لم يكن مُرتدياً مَلبساً جديداً كملابس الآخرين لوصل إلى الصّفِّ الأمامي، وأخذ ينظر إلى الموكب المُقترب ببهجةٍ متفحّصاً وجوه المشاة من جنودٍ وحرّاسٍ إلى أن اقترب الحصان المَلكيِّ فاتسعت ابتسامته وأخذ يُلوّح بيديه الاثنتين للمَلك الذي ظلّ رافعاً يده للجماهير يُحيِّيهم. أحسّ مختار بانتعاشٍ لمرأى الملك، وعرف سبب حرص النّاس على التجمّع كلّ عامٍ لرؤية موكبه. لقد كانت أصوات المَعازف وألوان الموكب تشيع بهجةً كبيرةً في النفس، كما أنّ رؤية كبير البلاد تُدخل السرور إليها. ولكنْ بالإضافة إلى ذلك كلّه فقد كانت لمختار أسبابه الخاصة التي تجعل رؤية المَلك تُبهجه في تلك الأيام... لقد شعر فجأةً أنّه يُحب ذلك الرجل. أما ذلك الرجل فلم يلاحظ مختاراً وسط تلك الحشود من أفراد الشعب، وإنّما ترك يده مرفوعةً تحيّيهم وابتسامته الودودة تصل إلى كلّ فردٍ وكأنّها موجَّهةً إليه بشكلٍ خاص، حتّى تجاوز الموكب شارع السّدر وابتعد عنه متجهاً إلى سوق المدينة.

بعد أن انفضّت الجماهير بانتهاء مسيرة الموكب أخذ مختار يتمشّى في الطرقات التي تدلّت الزينة مُهَلْهَلَةً من جدرانها وأشجارها بعد أن عبث بها الصغار، والتي بدت كأنّها مهجورةً بعد أن كادت تخلو من الناس وبعد أن اتسخت الأرض بالمُخلَّفات وبقايا الطعام الذي أحضره الناس معهم ليأكلوه أثناء انتظار الموكب. ثم وضع يديه في جيْبيْه وأخذ يصفّر بمرحٍ وهو يمشي شاعراً أنّه يريد أن يقضي أكبر مدةٍ يستطيعها متمشّياً في الهواء الطلق، حتى ابتعد عن ذلك الشارع.

أما في وسط شارع السّدر فقد وقفت حليمة مع زوجها وابنها وسُعدى في منتصف الطريق يرقُبون ما تركه تجمُّع الناس من مخلّفاتٍ باستياءٍ لم تنجح نشوة رؤية الموكب في جعلهم يتجاهلونه. قالت حليمة: "أنظروا إلى هذه الأقذار، لقد جعلت منظر شارعنا بشعاً." فقالت سُعدى بلا تردّد: "نعم، نعم." فقال عامر: "وقد تتجمع الفئران على بقايا الطعام فتحفر لها جُحوراً فتُقيم هنا إلى الأبد." فعلّقت سُعدى: "ما أسوأ ذلك." فأكمل عامر: "وقد تُصاب هذه الفئران بالطاعون فتصيب به سكّان هذا الحيّ." فقالت سُعدى: "ما أفظع ذلك!" فنظر الطفل إلى سُعدى وقال: "وقد يموت أبي وأمي بالطاعون فأصبح يتيماً." فهزت سُعدى رأسها معبِّرةً عن تعاطفها معه فقال: "وقد يحدث ذلك لكلِّ أطفال المدينة." فانتابت سُعدى نوبة الصداع ثانيةً وقالت محتجّةً: "لا ينبغي إطلاقاً أن يُنظّف المكان للموكب ثم يترك بهذه الهيْئة لسكّانه." وفيما كانت سُعدى تقول ذلك مرّ بهم رجلٌ فقال مستهجناً كلامها: "ولكنَّ عُمّال التنظيف سينظفون المنطقة كلَّها خلال يومين." فقالت حليمة: "إذن ستتجمع الصراصير بدلاً من الفئران." فالتفت الطفل إلى أبيه وسأله: "ماذا تسبب الصراصير من الأمراض يا أبي." فقالت سُعدى: "ولماذا تسبِّب أمراضاً، ألا يكفي منظرها المرعب." فأجابت حليمة: "ولكنْ يظلّ الخطر قائماً، يجب أن

أدخل بيتي وأرشُّ أرضه بالزرنيخ." فنظرت إليْها سُعدى بثقةٍ كبيرةٍ وكأنّها تتلقّى وصفةً من طبيبٍ حاذقٍ ثم هزّت رأسها مؤيدةً وقالت: "نعم ينبغي أن نفعل ذلك." ثم دخلت إلى بيتها ودخل عامر وعائلته إلى بيتهم.

***

أخذ مختارٌ يسير وهو ما يزال مأخوذاً بما رآه في الموكب إلى أن اقترب من البحيرة التي جعلت مدينة السّديمة مكاناً مُختلفاً تأتيه القوافل من كل حدبٍ وصوْبٍ من أجلها، وابتسم في نفسه وهو يتذكّر ما يرويه الناس عن البحيرة. كان يُقال إنَّ من ينظر إلى البحيرة لا يرى صورته وإنّما يرى صورة الحيوان الذي يُشبهه في طبْعه وصفاته، فهذا يرى نفسه كبْشاً وذاك يرى نفسه طاووساً أو ذئباً أو أيّ حيوانٍ يماثله. ابتسم مختار ثانيةً إذ كان يظنّ أنَّ الفكرة أسخف من أن تُصدّق أو تُجارى، ولذلك لم يفكّر يوْماً في الوقوف أمامها طوال السنوات السبع التي قضاها في السّديمة، وكان يريد أن يكتفي في ذلك اليوم بأن يمرُّ بها من بعيدٍ ليستنشق الهواء الطّلق حولها. ولكنَّه ما إن اقترب أكثر من البحيرة حتّى سمع بكاء طفلةٍ صغيرةٍ أثار شفقته وعطفه عليْها فاقترب منها وسألها عمّا بها فقالت له إنّها حزينةٌ لأنّها نظرت في مياه البحيرة فرأت نفسها دجاجة. ضحك مختار من أعماقه ثم قال لها: "ولكنْ من المستحيل أن تكوني دجاجة، إنّك فتاة، طفلةٌ جميلة." فأكّدت له الطفلة بصوتٍ متقطّعٍ أنّها رأت نفسها دجاجةً وأن أصدقاءها رأوها معها وسخروا منها. فأمسك بيدها وقال لها: "حسناً، هيّا نذهب معاً وننظر ثانيةً في مياه البحيرة، وسأثبت لك أنّك مُخطئةً في تخيّل نفسك دجاجة." فمشت معه الطفلة وهي تمسح أدمُعها بينما هو ينظر إلى السماء لكيْ لا ترى الطفلة ضحكته التي يحاول كتمانها حتّى وصلا إلى البحيرة ووقفا بمحاذاة حافَّتها.

ظهرت مكان صورة الطفلة صورة دجاجةٍ فارتفع بكاؤها ثانيةً وهي تقول له: "أرأيت؟ لقد أخبرتك أنّني دجاجةٌ ولم تصدّقني!" ثم نزعت يدها من يده وانطلقت عائدةً وهي تبكي. ولكنَّ مختاراً لم يُعِرْها اهتماماً البتّة ولم يُحرِّك ساكناً بل تسمّر في مكانه. لقد كان مبهوراً بصورته التي انعكست على مياه البحيرةِ الصافية. لقد كانت صورة أسد: أسد بكلَّ سماته، أسد بكلِّ عظمته، أسد ينظر إلى الأعلى بشموخٍ وفخر. لم يصدِّق عيْنيْه. صرفَهما عن صورة الأسد، عن البحيرة كلّها، ثم نظر ثانيةً فإذا به يرى الأسد ثانيةً، فابتسم ابتسامة كبيرةً أفرغ فيها كلّ ابتهاجه ثم انطلق مُبتعداً عن البحيرة. ولكنَّه عاد ثانيةً وأخذ يتأمَّل صورة الأسد التي أسرته بجمالها حتى نخاع النخاع.

كانت رغبته لا تقاوم في إطلاع كلّ الناس على ما رأى على سطح البحيرة، لذلك فقد حاد عن طريق بيته وانطلق إلى بيت عمرو. وقبل أن يصل إلى المنعطف المؤدِّي إليْه انحرف إلى البيت الأبيض، بيت سلمى التي كان قد هجرها أشهراً ليُخبرها بما رأى. وأخذ ينقر زُجاج النافذة ذات الستار الأخضر نقراتٍ متواصلة. بالداخل كانت سلمى تُطرّز منديلاً جديداً، فلما سمعت النقر على النافذة وضعت منديلها وخيْطها جانباً ونهضت تفتح الستار. كان منظر وجه مختار المُبتسم جميلاً خلف زجاج النافذة بعد تلك الغيْبة الطويلة. ابتسمت له وهي تفتح زجاج النافذة الذي ما إن انفتح حتى قال مختار بصوتٍ مُفعمٍ بالبهجة:

- هل تعلمين ما أنا يا سلمى؟ إنّني أسد، لقد رأيت صورتي في البحيرة منذ قليل.

- ذهبت إلى البحيرة؟

لاحظ أنَّها لم تنبهر بالشّكل الذي كان يتخيَّله بل ظهر على وجهها تعبيرٌ حائرٌ صاحَب كلماتها التي خرجت فاترةً فقال لها:

- ما بك يا سلمى؟ ألم تسمعي ما قلت؟
- بل سمعت ولكنّي كنت أظنُّ أنّك ستسألني عن حالي.
- أعذريني، لقد أنساني الإنفعال أن أسأل... كيْف حالك؟
نظرت إليه سلمى في حيرة وقبل أن تجيب استرسل قائلاً:
- ولكن أليس أمراً عظيماً أن أكون أسداً؟
- بلى، جميلٌ أن تكون اسداً ولكن، هل أتيْت فقط لتخبرني أنّك أسد؟
ظهر على وجه مختار شيءٌ من الحرج وأجابها: "تعلمين أنّني أتذكَّرك في كلِّ المواقف."
فقالت سلمى بلا اكتراث:"نعم، أعلم.."

كان انفعال مختارٍ شديداً بحيث قلّل من قدرته على استيعاب ردود سلمى الفاترة التي لم ينتبه إلى شدّة فتورها إلّا عندما ابتعد عن نافذتها وأصبح في منتصف الطريق إلى بيت عمرو. وأدرك أنَّ سلمى عاتبةٌ عليْه جفاءه في الأشهر الأخيرة، ولكنَّ تفكيره فيها وقف عند ذلك الحدِّ عندما رأى بيت عمرو. وهناك أخبر مختار أصدقاءه بـ"أسديّته" بانفعالٍ شديد، ثم أخذ يستحثهم على المُضيِّ معه إلى البحيرة ليَروا صورته بأنفسهم قبل مغيب الشمس، ولكنَّهم نجحوا بعد جهدٍ في إقناعه بتأجيل الذهاب إلى الغد. فجلس أخيراً وأدرك كم كانت ساقاه بحاجةٍ إلى الراحة.

***

في اليوم التالي عرج مختار وأصدقاؤه على البحيرة بعد عودتهم من عند معلّمهم ما عدا عمرو الذي آثر أن يذهب إلى البيت. وبُهروا بصورة مختار بشكلٍ أضاف مزيداً من البهجة والفخر إليه، ثم تفرقوا كلٌّ إلى بيته. وفي موعد اجتماعهم اليوميّ، كان أول موضوعات حديثهم أسديَّة مختار. سأل

هيْثم وهو يرى سعادة مختار التي تشعّ بها عيناه: "ولكنْ ما ميزة الأسود؟" فرد عليْه مختار متسائلاً باستهجان: "ما ميزة الأسود؟ ألا تعلم ما هي ميزة الأسود؟ ألا تعلم أنَّ الأسد أقوى الحيوانات وأنّه سيِّدها جميعاً؟" قال عمرو بلا مبالاة: "وماذا في ذلك؟ الثوْر أيضاً قويّ." أجاب مختار مستاءً: "ولكنَّ الثوْر أرعن وأبله كما أنّه لا يسود الحيوانات." فقال عمرو: "ومن قال إنَّ الأسد يسود الحيوانات؟" نظر آدم إلى عمرو قائلاً: "من المعروف أنَّ الأسد يُسمى مَلك الغابة، ولا بدَّ أن يكون قد أظهر شيئاً من السيادة جعلت الناس يُسبغون عليه هذا اللقب." هزَّ مختار رأسه مؤيِّداً وهو ينظر إلى عمرو ليرى إجابته على تلك الكلمة ولكنَّ عَمراً بدا غيرَ مكترثٍ بما سمع فأجاب هيثم: "إنْ كان الأمر كذلك فبِئس المَلك هوَ وبئست السياسة سياسته." فسأل مختار باحتجاجٍ شديد: "لماذا؟" فرد هيثم: "لأن الضعيف لا ينتصف من القويِّ في الغابة." فقال مختار: "ولكنَّ الغابة قوانينها مختلفة. لو حُظر افتراس الأرانب لماتت الثعالب ولو مُنع افتراس الغزلان لماتت النمور. كلٌ من تلك المخلوقات غذاءٌ لمخلوقٍ آخر، ذلك هو قانون الغابة والطبيعة عموماً وليس للأسد أن يُغيّر فيه أو يبدّل." هزَّ آدم وهيثم رؤوسهما معبّرَيْن عن تأييدهما التام بينما قال دُريدٍ بحماسٍ شديد: "إنّه مُحقٌّ يا عمرو في كلِّ كلمةٍ نطق بها! ولم يظهر في البحيرة على هيْئة أسدٍ إلّا وهو مرتبط به بالشبه وكلّ شيء، ألم تر حماسَه في الدّفاع عن الأسد؟" فقال عمرو: "إنّه محقٌّ فيما قاله عن قانون الطبيعة في التغذية، ولكنّ الأسد لم يضع تلك القوانين، ولم يُنصّبه مَلكاً على الغابة إلا خيال البشر." فاندفع مختار قائلاً: "لا يهمّ من نصّب الأسد ملكاً على الغابة، المُهم هو أنّه ملك." ثم ابتسم في نشوةٍ وأردف: "هل يا ترى يعني ذلك أنّني أستحقُّ أن أكون مَلكاً؟" أجابه آدم ضاحكاً: "لم لا!" فهَمْهَمَ عمرو: "ها قد بدأت المشاكل."

بعد قليلٍ تساءل مختار فجأة: "ولكنْ ما هي حقيقة المَلك.. أعني ملِكَنا، ما هي صورته في البحيرة، هل هو أسد؟" أجاب آدم: "لم يظهر أحدٌ على هيئة أسدٍ من قبل وإلا كُنّا سمعنا به." فقال هيثم: "صحيح، أكثر الناس يظهرون على هيْئة أغنامٍ وثعالب وذئاب..." فقال دُريدٍ ضاحكاً: "نعم، كما ظهرنا اليوم!" فأكمل دريد:"وقد ظهرت أرانب وبِغال ونعامٍ ولكنْ لم يظهر أسدٌ قبل الآن." نظر عمرو إلى مختار وقال له بإخلاص: "ولذلك عليْك أن تتوخى الحذر يا مختار... لا ينبغي لهذا الأمر أن يعلمه الناس وإلّا فقد تواجه مشاكل أنت في غنىً عنها." فردّ مختار باندفاع: "مشاكل؟ تعني أنّ هذا الخبر قد يصل إلى المَلك فيحاول الإنتقام مني..." فقاطعه عمرو بسرعة: "لا تُسرف في الخيال يا مختار ولا تَرَ نفسك بحجمٍ أكبر من حجمك... كلّ ما أريده منك هو أن تحتفظ بهذا الأمر لنفسك ولا تتحدث عنه مع غيرنا... والأفضل لك أن تنساه نِهائياً وتهتمَّ بتحقيق مطامِحك التي جئت إلى هذه المدينة من أجلها." فقال مختار ساهماً: "أمرك... لن أخبر أحداً بذلك." ثم تذكَّر الجزء الثاني من نصيحة عمرو فأردف: "مع أنَّ مطامحي لم تكن محدَّدةً في يومٍ من الأيام ولم يكن لها حجمٌ في خيالي." تنهّد عمرو بقلقٍ وقال: "لا تحدِّدها ولكنْ إنس صورة الأسد، تذكّر أنّه حيوانٌ كباقي الحيوانات من دون صفات العظمة التي تُسبِغها عليْه أوهام البشر..." ثم أعاد تحذيره له:"ولا تخبر أحداً بذلك." أخذ مختار يفكِّر بعمقٍ في المسألة ووجد أنَّ عَمْراً مُحقّ في تحذيره من إشاعة الخبر فتمتم: "حسناً، ولكنّي أخبرت سلمى... أظنُّ أنَّني يجب أن أحذّرها من ذكره لأحد." ثم قام ساهِماً وغادر المجموعة بيْنما علا ملامح عمرو شيءٌ من الضيق.

كانت سلمى جالسةً تُطرّز منديلاً أمام النافذة وهي ترتقب مجيء مختار عندما سمعت نقرةً خفيفةً على زجاج النافذة قامت على إثرها وفتحت النافذة

لترى وجهاً ساهماً يهمس لها: "سلمى، لا تخبري أحداً بما أخبرتك به أمس... إنّه سرّ." استغربت سلمى وسألت: "أخبر بماذا؟" أجاب مختار وقد أحبطه نسيان سلمى لذلك الخبر الهام: "كيف تنسين شيْئاً هامَّاً مثل ظهوري أسداً في البحيرة!" فردّت سلمى في الحال وقد تذكرت: "فهمت." ثم أردفت في تردد: "هل جئت فقط لتخبرني بذلك؟" فقال بلهجةٍ جادّة: "نعم، إنّه أمرٌ هامٌّ جداً يا سلمى، قد تحدث لي مشاكل..." فقاطعته قائلة: "اطمئن يا مختار، لن أخبر أحداً بذلك..." ثم أضافت بعدم اهتمامٍ: "وما كنت فاعلة." فردّ بامتنان: "شكراً... تعلمين أنّني دائماً أثِق..." ولم يكمل جملته فقد أوصدت سلمى النافذة وأسدلت الستار مُعلنةً نهاية ذلك اللقاء. كان ينبغي من مختار أن يعتبر ذلك سوء أدبٍ ويغضب من سلمى بسببه ويعبّر عن ذلك الغضب في حينه كعادته، ولكنْ كان ذهنه مشغولاً بما هو أهمّ منه، لذلك فقد استدار بهدوءٍ واتّخذ طريقه إلى بيته.

٢

مرّت أيامٌ وأسابيع على ذلك اليوم الذي رأى فيه مختار نفسه أسداً واقترب موعد إنهائه وصحبه دراستهم وتسلّمهم كُتب التزكية التي تُسهّل عليْهم الحصول على العمل، والتي كان معلّم المرحلة النهائية يكتبها للطلاب. كان الجميع يترقبون ذلك الحدث مما جعل عَمراً يرفض في الأشهر الماضية تسلُّم كتاب تزكيةٍ قبل أن يُنهي زملاؤه متطلّباتهم ليشاركهم البهجة يوم تسلّمهم كتبهم. أما مختار فقد كان لا يشعر تماماً بما كانوا يشعرون به وإن حاول إظهار ذلك، فهو لم يكن قد أنهى مؤهلاته في نظر نفسه إذ كان قد اشترى سرّاً كُتباً في التاريخ وأخذ يقرؤها في الليل على ضوء المصباح يطّلع فيها على سِيَر الملوك ويتعلم منها تنظيم شؤون البلاد وقيادة الرعية. وأخذ يقارن بين شخصيات الملوك من خلال سِيَرِهم وبين شخصيته فوجد أنّه بقليلٍ من الإصلاحات في نفسه يكون منافساً لأفضلهم. وفيما كان زملاؤه يروْن أنّهم أنهوْا ما كان ينبغي أن يتعلّموه تحت إشراف المعلم ولم يبق لهم إلا الإستذكار والمراجعة، كان مختار منكبًّاً على الأجزاء الأخيرة من كتبه الخاصة ليؤهِّل نفسه تأهيلاً خاصّاً. أما باقي الأوقات التي كان يقضيها مع أصدقائه فقد ظلّت كما هي لم يُحدث فيها تغييراً لتجنّب لفت أنظارهم إلى ما كان يُفكّر فيه بسرِّيةٍ تامة، وإن كانت قدرته على التّصنّع تخونه في بعض

الأحيان فيلمحه أحدهم يتثاءب بشكلٍ يدلّ على الإرهاق الشديد أو يحدِّق أمامه سارحاً.

وباقتراب موعد إنهاء الدراسة تحوّلت فترة الإنتظار إلى فترة مرحٍ عند دريد وآدم وهيثم بينما كان مختار يحاول أن يُخفي عن باقي أفراد المجموعة اضطراباته وقلقه الذي لازمه منذ يوم البحيرة. أما عمرو فقد كان المراقب الذي لم تخف عليه اضطرابات مختار الخفّية فكان هو أيضاً يعاني من قلقٍ يحاول إخفاءه عن الجميع. وكانت معاناة مختار شديدة الصّعوبة لأنّها لم تكن من النّوع الذي يستطيع أن يتحدث به مع سلمى أو مع أصدقائه، لذلك فقد آثر أن يفكّر بصمتٍ لم تلحظه سلمى لأنّه لم يمر بنافذتها. ولكن كان عمرو يرقبه بقلقٍ ويخشى أن يتحدث به معه فيعطيه صفة الواقعية.

وجاء موعد تسلّم كتب التزكية بعد أن أنهى مختار دراسة كتبه الخاصة بأيّامٍ قليلة، وارتدى الأصدقاء الخمسة أحسن ما عندهم من الحُلل ومشوْا إلى المدرسة بمرحٍ تشيّعه تعليقات هيْثم ودريد وآدم بينما كان عمرو ومختار يختلسان النظر إلى بعضهما بعضاً من حينٍ إلى حينٍ فإذا ما التقت نظراتهما صدّ كلٌّ منهما عن الآخر وكأنَّه لم يقصد تلك النظرات المتشكِّكة.

كان مختار يرى أنَّ أهميَّة ذلك الكتاب في حياته المستقبليَّة تنحصر في كونه شيئاً صغيراً من الأشياء التي من شأنها أن تُضيف إلى مقدار ثقافته ومكانته التي يبنيها مرور الأيام، أما تأهيله الحقيقيّ فقد ناله عندما رأى نفسه أسداً وعندما أنهى دراسة تلك الكتب التاريخية التي عكَف عليْها إلى أن شعر أنّه قد تعلّم شيئاً في ذلك المجال يستحق عليْه المكافأة. أما الباقون فقد كان الكتاب يمثل لهم المفتاح الأساسي للمستقبل الأفضل، وإن كانوا يتحسّرون

على أوقات اجتماعهم التي قد لا تستمرُّ طويلاً عندما يتسلَّم كل منهم عملاً مختلفاً ويبتعد عن المجموعة.

بعد تسلّمهم الكتب في ذلك اليوم غافل مختار باقي المجموعة وانفرد بآدم وأطْلَعه على سرِّه الكبير الذي بات يؤرِّقه ويُهمّه في الليل والنهار. وقع السرّ موْقعاً غريباً في نفس آدم الذي لم يكن يتخيَّل أن مختاراً قد صعّد مسألة صورة الأسد إلى ذلك المستوى، ولكنَّ معرفته بمختارٍ كانت تؤكّد له بشكلٍ قاطعٍ أنّه كان جاداً وأنّه سيَمضي فيما يريد إلى آخر لحظةٍ في حياته، فما كان منه إلّا أن وافق على مساندته مهما كانت الظروف، فأسند إليه مختار مَهَمّة التّلويح بهذا الأمر لدريدٍ وهيثم ليستشف منهما موقفهما منه، وحذره من مفاتحة عمرو.

في ذلك اليوم عَجِب مختار من نفسه لأنّه لم يجده متوجِّهاً إلى سلمى ليخبرها عن كتابِ التزكية كما كان يحدث كلّما حدث له أمرٌ هام، وكأنَّ ذلك الكتاب الذي كان ينتظره منذ زمنٍ أصبح تافهاً غيرَ ذي قيمةٍ تجعله يستحقُّ الإخبار به، أو كأنَّه كبُر فجأةً مغادِراً ذلك الطفل الصغير الذي يُهرع إلى أمّه ليخبرها بكلِّ شيءٍ يثير اهتمامه. ولكنَّه لم يتوقف ليُفكّر في ذلك، ففي تلك الأيام كان يحتلّ اهتمام مختار شيءٌ أكبر من سلمى بكثير، كان ينتظر ردّ آدم. وصدق توقّعه ووافق دريد وهيثم على الإنضمام إليهما فتمكن من الاجتماع بالثلاثة في بيته والتعاون معهم على وضع خطةٍ مبدئِيةٍ للإطاحة بالمَلك، مستغلين كلَّ الثغرات التي يمكن استغلالها لهزّ ثقة فئاتٍ من الجيْش والشعب بالمَلك مثل بعض قراراته التي علِم أنّها لم تكن مُرضيةً لتلك الفئات، كما قرروا البحث عن المزيد من المعلومات التي قد تفيدهم في هذا الشأن. ورصد لكلٍّ منهم فئةً يتوجّب عليْه محاولة تمييلها ضد المَلك. وعندما انتهوا

من استعراض الخطّة الأوليّة سأل هيثم: "ولكن لماذا لا نخبر عَمراً؟ لم نشترك في عملٍ من دونه من قبل." فعَبَس مختار وقال بصوتٍ حازمٍ وقد بدأت تظهر عليْه أعراض القيادة التي كان يتركها طواعيةً لعمرو في السابق: "لا تذكر هذا الأمر ثانيةً يا هيْثم، أنا أعلم أنّه لن يوافِقنا، وعدم موافقته تعني محاولته مقاومة الخطّة... وأنا لا أريد أن أؤذيه." رفع هيْثم حاجبيه في دهشةٍ وقال: "تؤذيه! لا ينبغي لك أن تُفكّر في ذلك!" فردّ مختار بالحزم نفسه: "لذلك يجب أن يكون هذا الأمر سِرّاً عليْه، هل فهمت؟" فأجاب هيْثم وهو يتنهَّد: "نعم، فهمت."

***

لم يطمئِن مختار تماماً إلى أنَّ هيْثماً سيُبقي الأمر سرَّاً على عمرو، لذلك لا بد من تعجيل تنفيذ إجراءٍ خاصٍ بعمرو الذي لا مناص من إيذائه قليلاً إلى أن يتم تنفيذ الخطّة. وهكذا طرق آدم بابه في أحد الأيام وطلب إليْه أن يرافقه إلى منزل مختار للتحُّث في مسألةٍ هامة، فمشى معه قلِقاً وإنْ كان لا يعلم بنواياهما إلى أن وصلا إلى بيت مختار. وهناك ودّعهما آدم ومضى في حال سبيله. وطلب مختار إلى عمرو أن ينزل معه إلى قبْو منزله مُحتجّاً بخشيتَه أن يسمع الجيران حديثهما. وعندما فتح مختار باب القبو وسمع عمرو صريره الذي يدلّ على كوْن المكان مهجوراً شعر بشيءٍ من الانقباض وتردد في الدخول قليلاً وهمّ بأن يستدير عائداً وهو يؤكِّد لمختار أن الجيران لن يسمعوا ما سيقولانه إلّا أنَّ يد مختارٍ استقرَّت على ظهره ودفعته برفقٍ إلى الداخل وهو يطمئِنه أنَّ حديثهما لن يطول كثيراً، فخطا الإثنان بحذرٍ على الدرج الذي يمتدّ إلى الأسفل بدرجاتٍ غير متساوية الارتفاع. وما إن استقرّا في القبو الذي كان مختار قد نظّفه وفرشه حتّى فاتحه في مسألة خطة الإطاحة بالملك.

وكما توقع مختار لاقت الخطّة استهجاناً شديداً عند عمرو ورفض رفضاً باتّاً الاشتراك فيها بأيّ شكلٍ من الأشكال، وحاول أن يُثني مختاراً عن تنفيذها. عندئذٍ حاول مختار تهدئته وأعلَمه أنّه أعدّ القبْو ليكون سجْناً له حتى يتم تنفيذ الخطة. ظنّ عمرو أنَّ مختاراً يمزح ولكنّه فوجىء بصدٍّ عنيفٍ منه كاد يُلقيه أرضاً ويحطّم أضلاعه عندما حاول الخروج، فأيْقن أنّه جادٌّ فيما يقول وخاصةً عندما رأى ذلك البريق الغريب في عيْنيْه وهو يقاومه، وأيقن أنّه سيمنعه من الخروج بكلِّ ما يستطيع، وليس ذلك عسيراً عليْه. عندها وقف عمرو مدهوشاً حائراً لا يدري ما يفعل ولا كيْف يُخلِّص نفسه من ذلك المأزق الذي شعر أنّه سقط فيه كما تسقط الفريسة في شبكة الصيّاد.

وقبل أن يخرج مختار ويقفل عليْه القبو قال له مُطمئِناً:"اطمئنّ يا عمرو فأنت تعلم أنّنا صديقان، بل إنَّك أحبّ أصدقائي إلى قلبي ولن أؤذيك بأكثر من الحجز مدّةً قصيرةً لأطمئِنّ على عدم عرْقلة الخطّة. ستكون مُرتاحاً هنا فالقبو واسعٌ ويكاد يكون بيْتاً كاملاً به كلُّ ما تحتاج ما عدا المطبخ الذي لن تحتاجه لأنَّني سأحضر لك طعامك وأزوّدك بالماء الساخن يومياً لتغتسل، ولا تقلق على أهلك، سأتكفل عنك بكلِّ شيءٍ، وسأخبر أباك أنَّك اضطررت إلى السفر فجأة، وتذكّر أنَّك ستخرج من هنا حالما تنتهي المسألة." وقبل أن يخطو خارج القبو سأله عمرو:

- هل وافق الآخرون على الإشتراك فيها؟

- نعم.

فسأل وقد ظهرت عليه خيْبة الرجاء:

- كلّهم؟

- كلّهم!

- حتّى هيْثم؟

- حتى هيثم.

بعد إجابة مختار الأخيرة التي بدا أنّه قالها باستمتاعٍ كبيرٍ أطرق عمرو قليلاً ثم تجهّم وجهه الذي رفعه فجأة وسأل: "هل كان آدم يعلم أنّك ستحبِسني؟" فسُقط في يد مختار إذ شعر أنّ إجابته ستُغضب عَمراً على آدم فآثر ألّا يُجيب فسأله ثانيةً بإلحاح: "هل كان يعلم بذلك؟" فأطرق مختار ثم مدّ يده ليُغلق الباب فقال له عمرو: "عرفت الإجابة. قل له إنّني لن أسامحه على خداعي." فقال مختار وهو يفتعل ابتسامةً مطمئِنة: "بل ستسامحه عندما تتم المسألة وتجد نفسك خارج منزلي ثانيةً في مدَّةٍ قصيرةٍ وتتأكّد أنّنا لم نُرد إيذاءك أبداً. اطمئِنّ يا عمرو، ستخرج قريباً." ثم غادر القبو بسرعةٍ وعمرو متسمّرٌ في مكانه غيرُ مستوعبٍ بعد لما يحدث، وكأنَّ الذهول قد شلّ حركته، أو كأنّه يرفض أن يقوم بمحاولةٍ للمقاومة يعلم أنَّ مصيرها الفشل ليس أمام عضلات مختار التي لا تُقهر وإنّما أمام رغبته الجامحة في تنفيذ ما يريد.

وفي المساء دخل مختار مطبخه الفوْضويّ وأعدّ وجبةً سريعةً ثم غرف لنفسه ولسجينه منها في صحنيْن ثم اتّجه إلى القبو ثانيةً ووضع أحد الصحنين أمام عمرو الذي نظر إليْه وهو يضع الطعام أمامه ويضع في يده رغيف خبزٍ ثم يصعد ويغادر القبو وكأنه يتابع أحداث حلمٍ غريبٍ رآه في ليلةٍ شديدةِ الحرارة. وفي المطبخ تناول مختار طعامه واقفاً وغسل يديْه وأوانيه على عجلٍ ثم دخل حجرته واستلقى على سريره وقد أبقى المصباح مشتعلاً يرقُب لهَبه المتراقص أمام عينيه وهو يفكّر بقلقٍ في غدِه وفيما قد تؤول إليه المسألة بعد أن أضيف إليْها شيءٌ من أصعب الأشياء فيها وهو حبس عمرو، أحد أقرب الأصدقاء الذين لازمهم مُذْ قدِم إلى المدينة.

***

في الاجتماع التالي للمتآمرين اقترح آدم استغلال بعض من عزلهم المَلك من كبار الموظفين الذين كانوا قريبين منه، فلم يجدوا أنسب من المستشار السابق، فقام آدم متنكراً بزيارةٍ سرّيةٍ له وتحدث معه في بعض المسائل، ثم غادره إلى مختار حيْث أعلَمه بإمكان تعاون المستشار المعزول معهم بل وانضمامه إليهم.

وفي قبو مختار كانت مسألة سجن عمرو ما تزال غامضةً عليْه، وكان ما يزال يشعر أنّه ضيْفٌ أكثر منه سجين، أما مختار فقد بدأ يعاني من تَبِعة تحمّل مسؤولية حفظ سجينٍ في بيته إذ كان يتعيَّن عليه أن ينقل إليه دلْو ماءٍ ساخنٍ في الصّباح بالإضافة إلى طهو طعامه وغسل صحونه. عندما وضع له دلْو الماء على إحدى درجات السّلم في اليوم الثالث وهمّ بالإنصراف بمللٍ ناداه عمرو قائلاً: "أريد أن أستحمّ وهذا الماء لا يكفي." فتنهّد مختار بملٍل ثم همّ بالانصراف فاستوقفه عمرو ثانيةً قائلاً له: "وأرُيد أيضاً ملابس نظيفةً ومِنْشَفة." فجهّز دلْو ماءٍ آخر ثم ذهب إلى حجرته بضجرٍ وجلب له ملابس ومنشفةً ثم فتح بابه ووضع دلْو الماء بجانب الدلو الآخر وألقى بالملابس إلى عمرو، فقال له: "وأين المنشفة؟" فذهب إلى المطبخ حيث سقطت منه ثم عاد ففتح الباب ثانيةً وألقى بها في وجه عمرو، وقد شعر أنّه يتعمَّد مضايقته بكثرة الطلبات، والتفت إلْيه قبل أن يخرج وقال:"وإذا أردت غسل ملابسك فاعتمد على نفسك في هذه المسألة." فسأله عمرو: "وهل ستدعني أنشُرها في الفناء؟" فأجابه وهو يكاد ينفجِر غيْظاً:"سأنشرها لك فقط." ثم أغلق الباب بسرعةٍ قبل أن يفتح سجينه فمه بطلبٍ جديدٍ وأسرع إلى رفاق المؤامرة الذين ازدادوا واحداً بعد أن انضمّ إليهم المستشار المعزول. وهكذا أصبح سفيان يحضر اجتماعاتهم السرِّية في منزلٍ صغيرٍ استأجروه لهذا الغرض، ولم يعد للتخفّي أمامه معنىً بعد أن ثبت لهم إخلاص رغبته في الاشتراك في المؤامرة.

كان مختار يُطلِع عَمراً على سيْر الخطّة رغم كُرهه لها وتسفيهه المتواصل لرأيه. وبعد أيامٍ من حبسه أصبح عصبيَّ المزاج وحاول مقاومة مختار والهرب، ولكنَّ مختاراً لم يكن ليسمح بشيءٍ من شأنه أن يعرقل خطته، وفي الوقت نفسه كان يريد أن يجعل عَمراً أكثر تقبُّلاً للإحتجاز لذلك فقد فكّر في تسليته، فجمع الكتب التي اشتراها عندما فكّر في خطة الإطاحة ثم ألقاها إلى عمرو في القبو فأسرع إليها وأخذ يتصفّحها، فضحك مختار وقال له وهو يغرِف الطعام أمام باب القبو: "إنّك تتهافت على الكتب كما يتهافت الذُّباب على السّكر." فلم يُجبْه عمرو وواصل تقليب صفحات الكتب باهتمامٍ بيْنما نزل هو إلى أسفل درج القبو ووضع له عشاءه وصعد ليتناول معه طعامه أعلى الدرج حيث جلس يأكل بشهيةٍ واستمتاعٍ وهو يراقب عَمراً الذي كان ما يزال يقلّب الكتب ويقرأ فقراتٍ من بعض صفحاتها. وبعد مدّةٍ رفع رأسه ونظر إلى مختار أعلى الدرج وقال: "كلُّ هذه الكتب عن التاريخ والملوك، هل قرأتها؟" فأجاب مختار:"طبعاً، لقد قرأتها كلها." ثم أضاف مبتسماً: "لتعلم أنَّ صورة الأسد ليست مؤهّلي الوحيد الذي يُرشّحني لأصبح ملكاً." فقال عمرو متهكماً: "هل يعني ذلك أنّني سأكون مؤهلاً للحكم بعد أن أقرأ هذه الكتب؟" فأجاب مختار:"لا طبعاً! لأنَّ البُحيْرة لم تُظهرْك أسداً." ثم قال وهو ينهض بعد أن أكمل طعامه: "ولكنْ، ما هي صورتك في البحيرة يا عمرو؟" فلم يجب بل أزاح الكتب جانباً وسحب الصحن أمامه وبدأ يأكل فسأله مختار وهو يهُمّ بإغلاق الباب: "لماذا لا تجيب، هل صورتك شائنةٌ إلى حدِّ إخفائها؟" فقال له عمرو قبل أن يغلق الباب: "أنت تعلم أنّني أحتقرك عندما تُولي صور البحيرة كلَّ هذا الاهتمام." فضحك مختار وأغلق الباب.

***

وفي اجتماعهم التالي جلس المتآمرون يتحدّثون عمّا يمكن استغلاله لإضعاف موْقف المَلك، فذكر المستشار قرار خفض رواتب الجنود فقال هيثم: "ولكنّنا في سِلْم، أيْ أنّهم لا يعملون كما ينبغي، كما أنَّ الناس يعلمون ضرورةَ توفير الدّولة لتلك الأموال بعد أن أعلن عن قُرب إقامة مستشفياتٍ جديدةٍ وشقِّ طرقٍ تصل عدداً أكبرَ من المدن والقرى ببعضها بعضاً، أيْ أنّ ذلك لن يؤلّب الكثير من النّاس ضده." فقال المستشار: "ولكنّي سمعت أنّ عدداً كبيراً من الجنود مستاؤون من ذلك، وأنّ كثيراً من الناس مستاؤون من أجلهم." فقال مختار وهو يدوّن تلك النقطة: "ممتاز! نستطيع استغلال ذلك." ثم التفت إلى هيْثم وقال: "ولا داعيَ للعجلة يا هيْثم، سنتمكّن من زيادة عددنا بالتدريج." فأضاف المستشار السابق بمكر: "وفي إمكاننا أيضاً أن نستعجل." نظر إليه مختار وهيْثم ودُريْد وآدمَ نظرةً متسائلةً فأردف: "أعني، لماذا ننتظر إلى أن يقوم المَلك بأعمالٍ تُثير سخط الشعب، لماذا لا نقوم بإطلاق شائعاتٍ عنه، مثلاً قد نشيع شائعةً تقول إنَّ المَلك يَنوي خفض رواتب عمّال المناجم." ظهر الاستهجان على وجه هيْثم فالتفت إلى دُريدٍ فلم يجد على وجهه تعبيراً مميزاً بينما بدا الاهتمام على وجه آدم والإشراق والإعجاب على وجه مختارٍ الذي أثنى على المستشار ذكاءه، ثم قال: "ولكنْ كيف نطلق هذه الشائعات؟" فقال المستشار السابق بثقة: "أترك لي أمر تدبير هذه المسألة، ما هي أوّل شائعةٍ تريد إطلاقها؟" فقال مختار: "ما رأيكم في أن نُشيع أنّ المَلك سيفرض ضريبةً على الخبز مع بداية السنة الجديدة؟" فسكت أصدقاؤه بينما ضحك المستشار وقال: "يا لها من بداية! ثق أنّها ستنتشر في يومين اثنين." فقال مختار: "تبدو واثقاً من ذلك." فأجاب المستشار ضاحكاً: "إنّني واثقٌ حقاً فلدينا جهازٌ عظيمٌ لإطلاق الشّائعات ونشرها." ابتسم مختار ولم يسأله عمّا يعنيه فقد كان ذلك من التفاصيل الصغيرة الّتي كان يدرك أنّه لا ينبغي أن يعبأ بها

في ذلك الوقت إذ كان وقتاً ثميناً لا ينبغي إضاعة لحظةٍ واحدةٍ منه في بحث أمورٍ يمكن مناقشتها فيما بعد.

***

خرج هيثم من بيت التآمر ومشى إلى بيته وعقله يموج بالأفكار والمشاعر المختلفة التي شعر أنّه لا قِبَلَ له بها. لقد شقّ عليه أن يصل الأمر إلى تلفيق التّهم والكذب والظلم بعلمه وتحت سمعه وبصره، وازداد شعوره بخطورة موقفه، وتمنّى لو أنّه لم يأت إلى تلك المدينة من مدينته الصغيرة في الشّمال، إذن لتجنّب موافقة مختار التي تفوّه بها في وقتٍ كان يظن فيه أنّ المسألة مُزاحاً، ثم عندما أراد أن يتراجع كان الشّيْء الغريب الذي بدأ يراه في عيْنَيَ مختار يجعله يعدِل عن مفاتحته ويؤجّل انسحابه إلى أن حَبس عمرو، عندئذٍ أدرك أنّ المسألة أكبر مما كان يتوقّع وأنّه قد انغمس فيها حتّى عُنُقه، ولم يبق أمامه إلا المُسايرة والانغماس في المؤامرة أو الحبس الذي كان يعني تسليم زوجته وطفله إلى مصيرٍ مجهول. ولكنّه ما إن وصل إلى بيته حتّى تراجع عنه قبل أن يدخله، واتّجه إلى دُريدٍ أقرب الثلاثة إلى طبيعته وطبيعة عمرو وإن كان تفكيره غير متنافرٍ مع تفكير مختار وآدم. وهناك تحدث مع دريدٍ عن كرهه للاستمرار في الخطّة، وأبدى رغبته في مغادرة البلاد خِلسةً لأنَّ مختاراً لن يسمح له بالبقاء حراً طليقاً بعد أن علم بتفاصيل المؤامرة.

كان يعتري دريداً مجموعة مشاعرٍ تجاه الخطّة، فهو يرى أنّ نصر مختار واجبٌ عليْه وأنّه لا ضرر من استلامه لمقاليد الحكم، إلّا أنّه يشعر بقلقٍ دفينٍ وتخوّفٍ من الأحداث المقبلة، كما أنّه كان غيرَ قادرٍ تماماً على اعتبار اللّجوء إلى تلفيق القصص ونشر الشائعات الكاذبة مشروعاً، ولكنّه لم

يكن متأكداً من عدم مشروعيّته، لذلك فقد آثر أن يمضي في المسألة إلى أن تُثبت الأيّام صحّة ما يفعلونه أو خطأه.

وفيما كان هيْثم يُحادث دُريداً في مسألة فِراره من المدينة وصل آدم إلى بيت دُريدٍ وأخذ يطرق الباب عليهما. وعندما دخل ورأى هيْثماً هناك، شعر بما جاء من أجله إذ كان قد لاحظ عليْه منذ مدّةٍ امتعاضه وكرهه لخطّة الإطاحة بالمَلك، فأخذ يحاول إقناعه بجدواها وبما سيعود عليهم من نفعٍ كبيرٍ ومناصبَ لم يحلموا بها قطّ إذا ما أصبح صديقُهم ملِكاً للبلاد، فأعرب هيْثم عن رفضه الشديد للمُضيِّ في الخطة وعن رغبته في الانسحاب وإن اقتضى الأمر ترك المدينة. عندئذٍ اتخذت ملامح آدمَ صرامةً وحزماً وأكّدَ لهيْثم أنّ خروجه من المدينة لن يتمّ بأيِّ شكلٍ من الأشكال لأنّ مختاراً قد وكل بكلّ منزلٍ من منازل المتآمرين من يراقبه سرّاً، وإنْ أصرَّ على التخلّي عن المجموعة فإنّ حبسه يصبِح حتميّاً حتى يتمّ تنفيذ الخطّة، فلم يجد هيْثم بداً من التأكيد لآدم أنّه سيشترك في الخطة ويقوم بكلّ ما يُطلب منه، وأوصاه ألّا يُطلع مُختاراً على ما دار بينهما خوفاً من حقده عليه مستقبلاً فوعده آدم بعدم إخباره. وبذلك شعر هيْثم أنّه أصبح مُنغمِساً في الخطة إلى قمّة رأسه، وأدرك أنّه لم يعد أمامه إلّا أن يترك نفسه لتيّار الخطة يذهب به حيث يذهب.

ثم غادر بيت دريدٍ ومشى إلى بيْته مهموماً، وعندما وصل إليْه تذكّر ما قاله آدم عن الحرّاس السرّيّين الذين وكلَ إليهم مختار مراقبة منازل أفراد الجماعة فتلفّت حوله فلم يجد من يبدو عليْه حارساً فتنهَّد وهو يشعر بمرارةٍ وقد أوشك أن يفتقِد كلّ ما له صلة بحياته قبل تلك الخطة التي كرهها إلى أبعد الحدود. وفكّر وهو يدخل منزله أن يخرج ثانيةً إلى كبير الشرطة ويخبره بسجن عمرو وخطّة الإطاحة بالمَلك ليوقف تلك المهزلة قبل فوات الأوان، ولكنّه رأى طفلَه يأتيه حبْواً عندما لمحه من بعيدٍ فأغلق الباب خلفه وأسرع

إلى ابنه يحمله ويقبّله وقد طَرد الفكرة كلّيةً من رأسه إذ لم يكن يعلم ما الذي سيحدث بعد ذلك من انتقام أتباع مختار الذين لا يعرفهم، ومن تعرّضه هو نفسه للحبس. ومن ثَمَّ فبالرغم من الابتسامة التي رسمها على وجهه وهو يداعب طفله كان يعاني من مخاوف آخذة في التغَلْغُل إلى أعماق نفسه.

كان آدم صادقاً في وعده هيْثم بألّا يخبر مختاراً لأن حبّه لمختار مساوٍ لحبّه لأيٍّ فردٍ آخرَ في المجموعة، ولكنّه كان كاذباً في شيءٍ آخرَ إذ لم يكن مختار قد وضع حرّاساً على منازل أفراد المؤامرة كما قال، ولكنّه أراد أن يُيئس هيثماً من الهروب إلى خارج المدينة حرصاً عليْه وعلى حريّته من ناحية، وحرصاً على إنجاح خطّة مختار من ناحيةٍ أخرى، فقد كان أكثر أفراد المجموعة قناعةً بجدوى الإطاحة وأقربهم إلى طبيعة مختار الطّموحة، لذلك فقد كان أخلصهم لمختار وأحرصهم على نجاح خطته وأكثرهم اطمئناناً بها.

***

في وقت الظهيرة من ذلك اليوم تناول المستشار غداءه ثمّ اضّطجع على سريره وقال لزوجته: "لقد علِمت اليوم من مصادر عُليا في البلاد أنّ المَلك سيفرض ضريبةً على الخبز بِدءاً من السّنة الجديدة." فقالت سُعدى بدهشة:

- ضريبة على الخبز!

- نعم، وطبعاً قد يرتفع ثمن الخبز إلى الضعف تبعاً لذلك، ولكنْ أرجو ألّا يعلم بهذا الأمر إلا من تثقين بهم، لأنّه سرٌّ فضَّل الملك ألّا يُطلع عليه شعبه قبل بداية السنة الجديدة.

- إطمئن.

فتثاءب وأغمض عيْنيْه وقد "اطمأنَّ" تماماً إلى أنّه قد أنجز مَهَمّته بكل دِقّة.

ومع إطلالة العصر غادرت سُعدى بيْتها واتجهت إلى بيت جارتها وجلست في البهْو مع حليمة بينما كان الطّفل يلعب أمامها وعامرٌ في مكانه المعتاد ينسج شباكه وتحدّثت عن ضريبة الخبز. ثم خرجت بعد ساعةٍ من بيت الجيران وخرج عامرٌ إلى السوق وجلس مع الصيّادين والباعة، وخرج الطفل يلعب مع أصدقائه، وخرجت حليمة تزور جاراتها. وفي اليوم التالي كانت المدينة تتحدّث عن ضريبة الخبز. وتناهى الخبر إلى المَلك فاجتمع برجاله وأمرهم بتكذيب هذه الشائعة وحاولوا ذلك ولكنَّ طبيعة الإنسان التي تميل إلى سوء الظنّ اطمأنت إلى تصديق الشائعة وتكذيب التكذيب!

ضحك مختار مسروراً وهو يُبدي إعجابه بإنجاز المستشار وقال له: "هل نطلق اليوم شائعةً تقول إن المَلك قد قرَّر تسريح ثلث الجيش؟" فابتسم المستشار ابتسامةً ثعلبيّةً وقال: "لا ينبغي أن نطلق شائعاتٍ متتاليةٍ وإلا علم الناس أنّها شائعات. يجب أن ننتظر قليلاً." فقال مختار وقد شعر بالحرج من تسرّعه وقلّة درايته: "إنّك حقاً محنّك، لا أعلم لماذا عزَلك المَلك عن منصبك." فتلعثم المستشار وقال:"إنّني إنسانٌ قليل الحظّ، ولكنْ لندع أمري الآن ولنحاول وضع خِططٍ لاجتذاب فِئاتٍ أكبر من الشّعب إلَيْنا."

في ذلك المساء جلس مختار أعلى السّلم داخل القبو يتناول عشاءه مع عمرو ويخبِره ضاحكاً عن الشائعة التي أطلقوها وعن إعجابه بذكاء المستشار المعزول وبراعته في أداء مَهمَّته فقال له عمرو:

- إنّ ذلك خُبثٌ وليس ذكاءً.
- لَيْست العبرة بمُسمّيات الأشياء وإنّما بنتائجها.
- ولكنْ ما دامت المسألة كلّها خيانةٌ ومكرٌ وخديعةٌ فلا بأسَ من إضافة الخبث إليها.

نظر مختار إلى عمرو وهو يأكل فطرأت عليه فكرةٌ غريبةٌ فقال فجأةً:
- أتعلم يا عمرو أنّني كنت أخشى أن تغضب عليَّ فتُضرب عن الطّعام فتموت بسببي؟!
- لماذا! هل تظنّ أنَّ مثلك يستحقُّ أن يموت إنسانٌ بسببه؟
لم يمتعض مختار مما سمع فقد اعتاد على توبيخ عمرو المتواصل في الفترة الأخيرة وأصبح يتقبّل منه كلَّ شيءٍ بوجهٍ باسمٍ ونفسٍ راضيةٍ تجاوز حلمها كلّ توبيخ وتعدّى كلّ مساءلة. التفت إليه عمرو فجأةً وسأله:
- ولكن، لماذا عُزل المستشار عن منصبه؟
- لا أعلم. لقد سألته اليوم فلم يُجبني بوضوح، أظنُّ أنّ هذا الموضوع يسبِّب له حرجاً، لذلك لم أصرّ على معرفة السبب، وعلى أيّةِ حالٍ فلا يهمني ما قد فعل طالما وقف معي ضد المَلك.

صمت الإثنان ثم توقَّف عمرو عن الأكل وقال على حين غرّة: "ومتى ستُطلق سراحي يا مختار؟ لقد مللت طعامك... إنّك لا تجيد الطّهو كأبي وأختي." فضحك مختار وقال: "أكتفِ بأن تأكل لتعيش يا عمرو هذه الأيام، وعندما تخرج سأعيّن لك طاهياً ماهراً يعوّضك عنها." ثم نهض وقال له مبتسماً:
- وسوف يكفيك فخراً أنّك أكلت طعاماً طهاه الملك بيديه... وسوف تحكي لأحفادك عن الأيام التي طهى فيها ملِك البلاد طعامك!
- ولكن كيف يكون لي أحفادٌ إذا لم أنجب الأبناء، وكيف أنجب الأبناء وأنا محبوسٌ هنا!
- إصبر يا عمرو، لن أحبسك إلى الأبد.
وهمّ مختار بالذهاب ولكنّه استدار ثانيةً وأضاف بسرعةٍ كمن تذكّر شيئاً:
- ألن تكتب كتاباً لأبيك وأختك؟ لقد قال لي أبوك إنّه قلقٌ عليْك لأنّه لم

يتلقَّ شيئاً منك.
- لن أكتب شيئاً.
- لا تكن ابناً عاقاً يا عمرو، إنّ أباك قلق.
- ذلك ذنبك أنت يا مختار.
رفع مختار كتفيْه بلا مبالاةٍ وقال: "كما تشاء." ثم تثاءب وودّعه وذهب إلى حجرته.

***

كانت سلمى قد علمت بكتاب التزكية من صديقتها هند ومن والدها وتوقّعت قدوم مختار إليها، وانتظرته طويلاً ولكن مرّت الأيام والأسابيع وهي تنتظره أمام نافذتها كلّ يومٍ صباحاً ومساءً وأناملها تطرّز مناديل عديدة. وبعد انقضاء تلك المدّة شعرت سلمى أنّ عدم إخباره إياها بحصوله على مؤهّله مع ما كانت تعلم من أهميّته لديه له معنىً كان عليها أن تعِيه في حِينه؛ لم تعد لها أهمّيةٌ كبيرةٌ في حياته، عاد لا يحتاج إليها. عندئذٍ خامرها الشّعور الذي خامره، الشّعور بأنّه كبُر على الوقوف أمام نافذتها ليخبرها بصوْتٍ منفعلٍ ما يجدّ في حياته، وعندئذٍ شعرت بأدمعٍ غزيرةٍ تنساب دافئةً على خدّيها وهي ترى نهاية قصّتها مع ذلك الإنسان الذي كان شديد التعّلق بها في السابق.

كانت المناديل الّتي طرّزتها وهي تنتظره كثيرةً جداً. تساءلت في نفسها وهي تستعرضها وقد جلست أمام صندوقٍ في إحدى زوايا حجرتها كانت قد أخرجتها منه: هل تبيعها وتنسى كلّ شيء؟ ولكن كيف تنسى سبع سنواتٍ من حياتها ارتبطت به فيها وكرّستها لانتظاره أمام نافذتها؟ ولم تجد إجابةً شافيةً من المناديل التي انتثرت أمامها، ولا من مقعدها أمام النافذة فأضافت تلك

التساؤلات الحائرة في ذهنها إلى سجلّ أوصافه في عقلها مع البيانات التي تقول إنّه رجلٌ يُخطّط بعقله لا بقلبه وينبش ما فيه مصلحته أيْنما كان مدفوناً.

***

أخذت المسألة تتطوّر تدريجياً وأخذ دريد وهيْثم وآدم والمستشار السابق يأتون مختاراً بأخبار انضمام مجموعاتٍ جديدةٍ إليهم في كل حين بعد أن أكّدوا لهم استحقاق مختار للمُلك الذي تثبته صورته في البحيرة، وبعد أن أطلقوا شائعتين أخريين في شهرين. وخلال تلك المدّة كان المتآمرون قد نظّموا صفوفهم ووزّعوا على أنفسهم الأدوار القياديّة وأطلقوا على بيت التآمر اسم: "مركز قيادة المؤامرة العُليا" إذ أصبحت الجماعات الجديدة التي تنضمّ إليهم بحاجةٍ إلى مقارّ أخرى وُزّعت في أرجاءٍ مختلفةٍ في المدينة يشرف عليْها رجالٌ عيّنهم القادة الخمسة الأساسيون الذين يتزعَّمُهم مختار. فكان لِزاماً أن يَتّخذ ذلك البيت مقرّاً لقيادة المؤامرة العليا يشرف منه على باقي المقرّات.

وكان يجثم على صدر المستشار السابق شيءٌ يحاول مقاومته جاهداً ولكنّه يُلحّ عليه ويشنُّ عليه هجماتٍ مُتتاليةٍ تتدافع بلا هُوادة... لقد شقَّ عليه اختزان سرّ المؤامرة في صدره، فكان تارةً يدور في فناء منزله بعصبيةٍ شديدةٍ وتارةً يضرب خوان الطّعام بقبضته ضرباتٍ متتالية لا يكفّ عنها حتى يؤلمه كفه، وتارةً يذهب إلى سريره ويستلقي على ظهره ويغطّي وجهه بوسادته التي يضغطها عليْه وكأنّه يحاول خنق نفسه قبل أن تبوح بالسرّ الكبير الذي وعد ألّا يبوح به. وتمنى لو كانت له زوجةً مختلفةً عنه باستطاعتها كتم الأسرار غيْر أنّه يعلم أن زوجته لا تحتفظ بالأسرار إلا كما يحتفظ المنخل بالماء. لذلك فقد زاد توتّره وزادت حركاته الغريبة التي يُنفّس

بها عن ذلك التوتر، إلى أن اهتدى إلى طريقةٍ يُخرج بها سرّه الذي كاد يكتم الأنفاس في صدره، فغافل زوجته وكسر قوائم الخوان في غيابها، ثم عندما جاءت أراها الخوان مدّعياً أنه تعثّر به فوقع عليه وكسر قوائمه، ثم جلب مطرقةً ومسامير وأخذ يتحدّث إليها في مواضيع مختلفةٍ، وعندما جاء دور الطّرق أخذ يطرق القائمة الأولى بقوّةٍ مُحْدِثاً ضوضاءَ شديدةً أخبرها خلالها أنّ ثمّة مؤامرةٍ تحاك ضد الملك. فلما انتهى الدّق أرادت زوجته أن يُعيد عليها ما قال فأخبرها أنّه يكره تكرار الكلام. ثم وضع القائمة الثّانية في محلِّها وأخذ يدقُّ عليها مُحْدِثاً ضوضاء أخبرها خلالها أنّه مُشتركٌ في المؤامرة. وبتركيب القائمتين كان قد تخلَّص من ذلك السرّ فشعر بارتياحٍ شديدٍ وأشرق وجهه لإخباره زوجته بالسرّ مع ضمان عدم إفشائها إياه، فنهض من مكانه ونفض فُتات الخشب عن ملابسه ثم اتجه إلى الباب بمرحٍ يريد مغادرة المنزل، ولكنّه وجد زوجته واقفةً أمام الباب بحزمٍ كحزم صاحب الشرطة فعرِف أنّ عليه أن يكمل تركيب القوائم قبل مغادرة المنزل.

***

في أحد الأيّام سمع عمرو في قبوه المقفول خُطوات زائرٍ ثمّ سمع صوْتاً عرفه بسهولة، لقد كان مسعود مساعد أبيه في الدّكان يسأل مختاراً إنْ كان يعلم شيئاً عن عمرو لأنّ أباه قلقٌ عليْه إذ لم يكن من عادته أن يتجاهل أهله عندما يسافر، وزاد من قلقه أنّه سافر فجأةً وهو الذي كان نادراً ما يسافر، وأنّه لم يأخذ معه أمتعة. فقال له مختار إنّه سمع من بعض رفاقه الذين عادوا أنّه بخيرٍ وأنّه سيكتب لهم قريباً. انتاب عَمراً شعورٌ غريبٌ عندما سمع صوْت مسعود، شعر أنّه يريد أن يستنجد به ولكنّه تذكّر قوّة مختار خاصّة مقارنةً بمسعود الضئيل الجسم، وأدرك أنّه لا بدَّ أن يتعرّض لأذى مختار وسجنه إذا

علم بأمره، وقد ينال السجن والإيذاء أباه وأخته – عندما يرتابان لغياب مسعودٍ المفاجيء إذا ما احتُجز– لمنع عرقلة تلك المؤامرة فآثر أن يصمت ويكتفي بالاستماع إلى أن ذهب مسعود، وعندها فتح مختار باب القبو وقد علم أنّه سمع كلَّ شيءٍ فطلب إليه عمرو أن يأتيه بقلمٍ ودواةٍ وورقٍ في الحال، ثم كتب كتاباً إلى والده يعتذر فيه إلَيْه عن سفره المفاجيء ويعدُه بمحاولة العودة بعد أشهرٍ قليلةٍ كما أملى عليه مختار، ثم أخذ الكتاب إلى دكّان أبيه بعد أيامٍ قليلة.

بعدها استوعب عقل عمرو كليّةً حقيقة كونه سجيناً فازداد شعوره بالتوتّر. وأخذ انعدام الصبر والغضب يظهران بوضوحٍ تامٍّ عليه حتى أنّه في مساء أحد الأيام عندما وضع له مختار عشاءه على إحدى درجات السّلم السفلى وصعد أخذ الصحن وألقاه باتجاه مختار الذي حمى وجهه منه بإغلاق باب القبو بسرعةٍ فاصطدم بالباب وانكسر وتناثر الطعام أعلى الدرج، فنظف مختار ذلك المكان غاضباً، ثم أغلق الباب، وعندما استعدّ للنوم بعد مدّةٍ سمع خبطاً شديداً على باب القبو فاقترب منه وقال: "ماذا تريد؟" فقال عمرو: "إنّني جائع، أحضر لي طعاماً." فذهب إلى المطبخ وأحضر له برتقالةً وفتح الباب وألقاها عليه بقوةٍ وهو يأمل أن تصيب عيْنه اليسرى، ولكنَّ عَمراً أبعد وجهه وتلقّاها بيديْه وقال له: "ولكنّني أريد أن آكل شيئاً يُشبعني، أليس عندك خبزاً." فذهب مختار ثانيةً وهو يجزّ على أسنانه وأحضر له رغيفاً ألقاه على وجهه، وقبل أن يغلق الباب قال له عمرو: "ألا يوجد شيءٌ آكله مع الخبز؟" فقال له مختار غاضباً: "كان يوجد شيءٌ يؤكل معه ولكنّك ألقيت به على الدرج وإذا كنت تريده فسأحضره لك من القمامة!" فأطرق عمرو برهةً وهمّ مختار بإغلاق الباب ثانيةً فقال له قبل أن يُتمّ إغلاقه:

- ولكنّي جائع، ابحث ثانيةً، أريد أن آكل.

- إنّك لا تريد أن تأكل ولكنّك تتشاغل عن النوم كالأطفال، ولن أقضي الليل كلّه أبحث لك عن طعامٍ فلديّ أعمالٌ مهمةٌ غداً أحتاج إلى نوم ليلةٍ كاملةٍ قبل أدائها.
- إنّني حقاً لا أستطيع النوم، ابق معي لنتحدَّث، أريد أن أتكلّم معك.
- ألم أخبرك أنّني يجب ألّا أسهر الليلة؟
- أحضر فراشك هنا إذن ودعني أتحدّث إلى أن تنام... ألا تذكر أنّك عندما مرِضت في السنة الماضية تناوبنا أنا والباقون السّهر عليك؟
- ولكنّي أخشى أن تغافِلني وتهرب.
- أقفل الباب من الداخل وضع المفتاح في جيْبك.
- ولكنّك قد تسرقه وأنا نائم.
- لن أستطيع أن أسرقه وهو في جيبك لأنّك ستستيقظ ولا أحد يستطيع أن يقاومك وأنت مستيقظٌ لأنّك قويٌّ كالثور... أعني كالأسد يا مختار.

لم يكن مختار يريد تنفيذ الفكرة ولكنّه شعر أنّ عَمراً إذا لم يُتَح له أن يتكلّم كما يريد تلك الليلة فإن الإشراف عليه في الأيّام القادمة سيكون أصعب بكثيرٍ، لذلك فقد رأى أن يوافق فقال لعمرو وهو يلوّح بإصبعه محذراً: "سأفعل ذلك الليلة فقط نظير سهرك عليّ في مرضي تلك الليلة فلا تطلب ذلك ثانيةً، ولا توقظني إذا نمت." ثم أحضر فراشه وأغلق الباب وأخذ يستمع بملٍل شديدٍ إلى عمرو الذي ما لبث أن سمع شخيره فأدرك أنّه جنى على نفسه بسؤال مختار أن يبقى معه.

ثم بدأ يتشاغل بأكل الرغيف وهو ينظر إلى موقع المفتاح في جيب مختار وصمّم على الإستفادة من وجوده معه في المكان، ولكنّه كان يدرك أنّه يتعيّن عليه أولاً أن يُفقده وعْيَه بشيء. وتلفّت حوله ليجد ذلك "الشيء" فلم يجد ما يصلح لهذا الغرض فعرف أنَّ ذلك الماكر لم يكن ليرضى بالنّوم في

مكانٍ واحدٍ مع سجينه إلّا وكلّه ثقةً بأنّه لن يفلت منه، لذلك قرّر أن ينتظر إلى أن ينقلب مختار فيجعل الجيب المحتوي على المفتاح في الجانب الأعلى ليحاول أخذه من دون إيقاظه، ثم أطفأ المصباح فانعدم النور في المكان إلا من خطٍ دقيقٍ أسفل باب القبْو أعلى الدرج يأتي من النافذة التي تقابله خارج القبو. وانتظر إلى أن اعتادت عيناه الرؤية في ذلك الضوء الضّعيف ثم ركّز بصره على مختار وأخذ يراقب حركته في الظلّام ينتظر انقلابه على الجانب الآخر، ولكنّه ظلّ في ذلك الوضع مدّةً طويلةً حاول عمرو أن يُبقي عيْنيْه مفتوحتين خلالها مُقاوِماً النعاس الشديد الذي كان يُسقط رأسه بين حينٍ وآخر إلى أن نام بعد مدّةٍ ولم يوقظه إلا صوت مختار وهو يقدّم له فطوره قبل أن يخرج.

بعد تلك الليلة التي فشل عمرو في استغلالها شعر برفضٍ شديدٍ لموقف مختار، وأصبح لا يكلّمه إلا للضرورة وفي معظم الأحيان كان يتركه يتكلّم عن الخطّة كما يشاء من دون أن يعلّق على ما يقول بكلمةٍ، ولم يكن مختار يعبأ كثيراً بإضراب عمرو عن الكلام فآماله التي كان يشعر أنّها على وشك التحقّق كانت تجعله يرى كلَّ شيءٍ صغيراً أمامها.

٣

أثناء العمل في استكمال خطّة الإطاحة بالملك وإعداد مختار ليكون الملك القادم للبلاد اقترح عليه شركاؤه الأربعة في المؤامرة أن يستكمل مستلزمات صورة المَلك بالزواج لأنّهم لم يسمعوا بملكٍ أعزب من قبل. قال له دريد: "هل ما زلت تحلم بقريبة الملك؟" فردّ مختار: "لا، كيف أحلم بها وأنا أنوي الإطاحة بقريبها. لن يكون بيْننا عيشٌ هانىءٌ وإن رضِيْت بالزواج بي." وعندما جلس سارحاً أمام لهب المصباح في المساء أخذ يفكّر في مواصفات الفتاة التي يريد أن يتزوّجها، واستقرّ رأيه على أنّه بحاجةٍ إلى الزواج بامرأةٍ تكنّ له حبّاً يجعلها عوْناً له في كل الظروف الّتي يمرّ بها أثناء مُلكه، ولا تشعر بالتعالي لكونها أعرَق منه نَسباً فلم يجد أمامه غير سلمى. وما إن اطمأنّ إلى ذلك الرأْي حتّى أخذ يستعرض مزاياها وعيوبها ويحلّل شخصيتها وكأنّه يختبر صلاحيّتها لتكون مَلِكة.

وفي اليوم التالي عندما جلس أعلى السّلم عند باب القبو تحدّث مع سجينه عن زواجه بسلمى، فسأله عمرو وقد أثار الموضوع فضوله بما أخرجه من حالة الصّمت قائلاً: "هل نسيت قريبة الملك؟" فأجاب بتلقائية: "طبعاً! فهي لا تناسبني الآن، لا مكان لها في خطَّتي الجديدة، سلمى هي الأنسب الآن." فقال عمرو مستهجناً منطق مختار: "خطة! ما دخل الزواج بالخطط؟" أجاب

مختار: "يجب أن نُخطّط لحياتنا ونختار كلَّ من يدخلها بدقّة. سلمى هي الأنسب لي الآن". فتساءل عمرو متهكّماً:

- وهل يناسبها إنسانٌ مثلك؟

- وهل تحلم أن تتزوج أفضل من ملك؟

- لا يهم أن يكون الزوج ملكاً، ما يهم هو أن يكون إنساناً مناسباً.

- والإنسان المناسب قد يكون ملكاً.

- نعم ولكنْ إذا حكم بذلك شيءٌ آخر غير صورة أسدٍ على سطح بحيرة.

- ماذا تعني؟

- أعني أنّك أصبحت مُهتماً بالأمر بلا ذنبٍ آتاه المَلك، وبلا حقٍ لك فيه، فلا أبوك ولا جدُّك كانا ملِكيْن، ولم تُربَّ لتكون ملكاً ولم يطالب النّاس بتنصيبك مكان الملك، ولو لم تمرّ بقرب البحيرة بالصُّدفة بعد أن كنت تُزاحم الناس لترى وجه الملك الذي تريد الإطاحة به الآن لما فكرّت في الإستيلاء على المُلك ولما حلمت به.

وقف مختار غاضباً وهو يقول: "لماذا تتحدّث في هذا الأمر الذي لم أستشرك فيه قط؟ جئت إلى هنا الآن فقط لأخبرك أنّني قد نويْت الزواج بسلمى." فأجاب عمرو بلا مبالاةٍ بغضبه: "وحتّى هذا لا تستحقّه لأنّك كنت تريد الزواج بغيرها. يمكنك أن تُخضع كلّ شيءٍ لتخطيطك إلا حياة إنسانٍ آخر." فرد مختار وقد ازداد غضبه:

- هذا الإنسان الآخر يُحبّني ويتمنّى الحياة معي.

- أعلم ذلك، ولذا فأنا أشعر بالشفقة الشديدة عليها.

- إنك تظلمني فلست بالصورة التي تتخيّلها، كما أنّني أيضاً أُحِبّها كما تعلم.

صمت عمرو مُشمئِزّاً من سلوك مختار بينما خرج مختار وقفل باب القبو.

***

كان قد مضى شهران على زيارة مختار الأخيرة لسلمى عندما جلست مع هند أمام نافذتها كالمعتاد وفي يدها منديلٌ تطرِّزه وهي تتحدث إلَيْها عن جفاء مختار. فقالت لها هند متردِّدة: "سلمى، لم أكن أريد أن أخبِرك بذلك ولكنّي أصبحت لا أطيق رؤيتك هكذا.." فرفعت سلمى عيْنيْها عن منديلها وقالت:

- ماذا تعنين؟

- مختار لا يستحقُ اهتمامك وحبّك... لقد سمعت منذ مدّةٍ أنّه يحلم بالزواج بابنة الوزير الجديد.

فهمست سلمى بدهشة: "ماذا؟" فقالت هند: "نعم، أخبرتني بذلك أُمامة، أخت عمرو صديقه، لقد سَمِعَتْهم يتحدثون بذلك..." فردَّت سلمى بدون تردُّد: "كذب! لا أصدق ذلك." فقالت هند بإشفاق: "لماذا؟" عندئذٍ غضِبَت سلمى وقالت:

- لن أصدّق أوهام طفلةٍ مثل أخت عمرو.

- ولكن أخت عمرو ليست طفلة، لقد أصبحت في الخامسة عشرة من عمرها.

- لا يهم كم من العمر تبلغ، ما يهم هو أنّني لا أصدّق ما تقول.

- ولم لا تصدّقين؟ لقد كنت تتحدَّثين عن تغيُّره منذ هُنَيْهة.

- ذلك أمر مختلف...

كانت سلمى مدركةً أنّ ذلك لم يكن أمراً مختلفاً على الإطلاق، ولكنّها كانت بحاجةٍ إلى الدِّفاع عن كرامتها وعن نفسها وإن اقتضى ذلك أن تقول شيئاً تعلم أنّه بلا معنى، وأن تتمادى في المكابرة. التفتت إلى هند ثانيةً وقالت

بخبث: "قد لا تفهمين ما أعني لأنّك لم تكوني في وضعٍ مشابهٍ قطّ، تماماً كما أجهل أنا حسابات التجّار وصنع العطور." شعرت هند بنبرةٍ مُهينةٍ في لهجة سلمى لأنّها حوّلت رأيها ونصيحتها إلى جهلٍ بالموضوع برمّته لتُنصِّب نفسها خبيرةً ومن ثَمَّ تُغلق الباب أمام أيّة مناقشةٍ قد تُبرز حقائق لا تريد مواجهتها. فكفّت عن محاولة إقناع سلمى بموقف مختار منها بعد أن فطِنَت إلى رغبَتها في تحويل الحديث عن مشكلتها وأنهت الحديث في ذلك الأمر. ولكنّها لم تستطع أن تطرُد من ذهنها تلميح سلمى بعملها مع والدها الذي شبَّت وهي تراه جزءاً من مستقبلها بل ومن قدَرِها الذي ينبغي قبوله من دون مناقشةٍ والتسليم به تسليماً تاماً، ولم تلاحظ أن ذلك "القدر" صاغه والدها إلا عندما وصلت إلى العشرين وانتبهت إلى أنّها ما كانت لتختار ذلك العمل لو خُيِّرت في سنٍ تتيح لها الاختيار، ولكن كان أوان الرفض قد فات بعد أن أصبحت جزءاً من مستقبل والدها التجاريّ، وأيضاً لأن البدائل كانت محدودةً أمامها.

كان البديل الآخر في نظرها هو أن تعيش مثل سلمى مع الإبَر والخيوط، ولكنّها كانت تكره ذلك وترى أنّه لا يناسب إلا الإنسان المُسْتَسلم الذي لا يستطيع أن يفعل ما هو أفضل منه، وترى أنَّ ما تفعله هِيَ على عيوبه عملٌ له فائدةٌ أكبر. أما سلمى فكانت ترى ما تفعله هند عملاً رجالياً سخيفاً لا ينبغي أن تقوم به امرأة، فالمرأة إذا أرادت أن تفعل شيئاً مُفيداً فعليها أن تخيط وتطرّز. ابتسمت هند وهي تتذكّر خلافاتها مع سلمى حول هذا الموضوع ووجدت أنّها ما تزال رغم كلِّ شيءٍ تفضّل العمل مع والدها على التطريز، ومع ذلك فقد شعرت برغبةٍ شديدةٍ في منح نفسها إجازةً من العمل في مخزن والدها في ذلك اليوم كما كانت تفعل كلّما شعرت بالتّمرّد على ذلك العمل.

عندما وصلت إلى البيت وأبلغت والدها أنّها لا تستطيع العمل في المخزن في ذلك اليوم شعرت بالملل بعد مدةٍ فقرّرت أن تساعد والدتِها في طهو طعام العشاء فجاءت بوعاءٍ ملأته بالباذنجان وجلست تُقشِّره قريباً من والدها الّذي كان قد افترش الأرض وصفَّ دراهمه ودنانيره في أعمدةٍ كثيرةٍ بعد أن أحصاها توطِئةً لوضعها في خزينته. وبعد أن انتهى من ذلك لمّها كلّها في صرّةٍ واحدةٍ حملها بحنانٍ واتجه بها إلى خارج الحجرة، وما إن خرج حتى لمحت ابنته درهماً نسِيَه على الأرض فأخبرته بذلك وهي تتناول الدرهم وتلقي به على رفٍّ بالحائط بعيداً عنها فسقط على الأرض، فدخل على الفور والتقط الدّرهم ولامها لوْماً شديداً على عدم احترامِها للنقود التي لا تجتمِع وتنمو إلّا عند من يقدِّرها ويعرف قيمتها، فقالت له هند: "ولكنّه درهمٌ واحدٌ يا أبي!" فألقى الصرَّة على الأرض في غضبٍ شديدٍ وقال: "وهذا ما يغيظني! تضيع النقود كُلُّها عندما نستهين بالدّرهم الواحد!" نظرت هند إلى الصّرّة والنقود المبعثرة حولها وقالت: "ولكنّك استهنت بدراهم ودنانير كثيرةٍ يا أبي فألقيت بها على الأرض." فنظر الأب في ذهول إلى الأرض ثم لمَّ النقود ثانيةً ووضعها في الصرّة ووقف بعد أن استخرج منها درهماً وأمسكه بين سبّابته وإبهامه ونظر إليه ثم قال بحدّة: "يجب أن تتعلمي رؤية قيمة الدّرهم! ما كان ينبغي أن تُلقي به بعيداً معرّضة إياه للضياع." ثم خطا نحو الباب وقبل أن يخرج التفت بكامل جسمه إليها وقال باللهجة الحادّة نفسها: "هل تظنين أن الأرض تنبت الدراهم!" ثم وضع الدّرهم في الصرّة وخرج، ودخلت والدتها وسألتها عن سبب الصخب الذي أحدَثه والدها فأخبرتها بما حدث، فتنهّدت وأخبرتها أنّها كانت تعاني من حرصه على النقود عندما تزوّجته حتى أَلِفَت طبْعه واضّطرت إلى تقبُّلِه. وفيما هي تتحدث إليها لاحظت أنّ هند تنزع أكثر

مما يجب من الباذنجان مع القشر فأنّبتها قائلةً: "لا تقشِّري الباذنجان هكذا، إنّك تضيعين جزءاً كبيراً منه". ثم قالت بسرعةٍ وقد تذكرت شيئاً فجأة:

- ثم من أخبرك أن الباذنجان يجب تقشيره؟ هل أطعمناك باذنجاناً مقشَّراً قط؟

- ولكنْ يا أمي لقد كنت تقولين إنك تكرهين البخل...

- لا يهم ما كنت أقول، يجب ألّا تُسرفي يا هند! هل تظنّين أنّ الأرض تنبت الباذنجان؟

- نعم يا أمي.

انتهبت الأم إلى أنَّ الأرض تنبت الباذنجان فعلاً فتلعثَمت ثم قالت: "ومع ذلك فالباذنجان لا ينبغي تقشيره إطلاقاً!"

كان الأب قد عاد إلى الحجرة وسمع آخر ما قالته زوجته فقال بدهشة: "هل كانت تقشِّر الباذنجان؟" فقالت هند بضجر: "لقد توقّفت عن ذلك يا أبي." فنظر إلى كمية القشور ثم قال: "ولكنّك قشّرت نصفه! اسمعي يا هند، لا تلقي بالقشور بل أقليها مع باقي الطعام فالباذنجان لا يطيب مذاقه إلا بقشره." فتنهّدت وهي تتخيل نفسها تقلي القشور، ولكن صوت والدتها التي كانت تهمّ بمغادرة الحجرة جاءها واضحاً مرّةً أخرى يذكّرها بعدم استخدام زيتٍ جديدٍ للقلي، فحملت الوعاء بما فيه وقدّمته إلى والدتها قائلةً: "خذي يا أمي، تفضّلي واطهي الطعام بنفسك... أُفضّل صنع العطور على قلي القشور، خاصةً إن كانت بالزيت البائت!" ثم اتّجهت إلى المخزن وهي تشعر أنّه لا بد أن يكون لها عملٌ غيْر هذا وذاك، ولكن عالَمها لا يجعلها ترى شيئاً آخر.

***

في اليوم التالي أخذت سلمى تُكمل تطريز مِنديلٍ كانت بدأت العمل فيه منذ أيامٍ ولم يكن قد بقيَ على إنهائه إلا القليل. وبينما كانت الإبرة تختفي في المنديل ثم تخرج منه كانت الأفكار تتزاحم في رأس سلمى عن ذلك الشاب الذي قدِم إلى المدينة بطموحٍ يتعدّى سنوات عمره السبع عشرة، وبتصميمٍ هائلٍ على تحقيق كلِّ ما يستطيع تحقيقه من النجاح... كانت هي في الخامسة عشرة من عمرها آنذاك، وكان يسرّه أن يحادث سلمى ابنة معلِّمه كلّما سنحت له الفرصة، ويرسم معها صوراً جميلةً لمستقبلهما معاً. وبعد ثلاث سنين تحوّل وأصدقاؤه إلى معلّمٍ آخر غيْر والد سلمى فأصبحت لقاءاتهما عبر النافذة، فبدأت تطرِّز منديلاً لتتسلّى أثناء الانتظار اليوميّ لمختار، وعندما جاء ورأى المنديل ظنّ أنّهما سيتزوّجان بعد أن تكمل عشرة مناديل، ولكن قبل أن تكتمل المناديل العشرة حدثت تغيّرات كبيرةٌ في نظرة مختار للأمور وفي خططه المستقبلية التي بدت كالمعادلات، لكيْ تنتهي بالشكل المطلوب لا بدَّ أن تكون قائمةً على أساسياتٍ معيّنةٍ لم تكن سلمى بنت معلّمه القديم من بينها. لذلك فما إن نشرت سلمى المناديل العشرة أمامه بعد شهرٍ حتّى اصفر وجهه، وصرف نظرها عمّا كان قد قال، ولكنّها لم تمتنع عن تطريز المناديل أثناء انتظارها على مقعدها أمام النافذة المسدولة الستار.

نظرت سلمى إلى المنديل بين يديها وكانت قد أوشكت على الانتهاء من تطريزه وأدركت شيئاً كان غائباً عنها. أدركته بعد مائتي منديل... لقد عرفت سبب تغيّر مختار أخيراً عندما تذكرت ملامحه وهو ينظر إلى المناديل العشرة الأولى، لقد كانت قيْداً كره أن يضعه حول عنقه قبل أن يتأكّد من جدواه... كلُّ شيءٍ حدث فيما بعد كان يثبت أنّه لا يفعل شيئاً غير مدروس، لذلك قلّل تردّده عليها شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت زياراته نادرةً حتى كادت تتوقف.

أخذت الإبرة تغوص في المنديل ثم تخرج بعصبيّةٍ أملَتها عليها أصابع سلمى التي امتلأت نفسُها غضباً وندماً ولوماً لذاتِها لأنّها لم تفطِن إلى طبيعة مختار منذ البداية بل انساقت بكيانها مع وساوِس الحبِّ الأولى الّتي بثّها إليها عندما كان بحاجةٍ إليها وإلى والدها. وأخذت تقرّع نفسَها لتقديمها لمختار أضعافَ ما كان يستحقّ من الاهتمام والمحبّة والانتظار الذي تشهد المناديل المائتان على ساعاتِه الطَّويلة التي تحوّلت في نظرها إلى هباء. وفي تلك اللحظة علَّلت شعوره بالقرب منها الذي تستشعِرُه في هرعِه إليها في كلِّ مناسبةٍ سعيدةٍ أو غير سعيدةٍ بأنّه استغلالٌ لطيبَتِها وعاطفتِها الجيّاشة تجاهه، وشعرت أنّ القدَر يعاقِبُها لأنّها أقامت علاقةً في الظلام مع إنسانٍ غير مناسبٍ تلاعب بعواطِفِها ثم أخذ يتنصّل من حياتها، وشعرت أنّها أذنبت في حقِّ نفسِها بحبِّها إنسانٍ قبل أن تختبره. ثم أخذ الشعور بالجُرح يزداد ويتحوَّل إلى شعورٍ بالغثَيان يملأ صدْرها، وما إن وضعت آخر غُرزةٍ في المنديل الذي كان بيْن يديها حتى كان الكيل قد طفح وحتّى قرَّرت أن تضع الغرزة الأخيرة في حكايتِها مع مختار أيضاً، فنظرت إلى المنديل المكتمل وقرَّرت أن تبيعه هو وكلَّ المناديل التي كانت تعتبرها من ألصق الأشياء بها ومن أغلى الأشياء عندها، فاتّجهت إلى صندوقِها وفتحته وأخرجت منه لفةً فتحتها واستعرضت ما فيها من مناديل وكأنّها تودِّعها وتتملّى من نقوشِها الجميلة الزاهية الألوان التي حاكتها بيدها، ثم أضافت إليها المنديل الأخير وربطتْها وأغلقت الصندوق دون اللفة. ثم ارتدت وشاحَها وحملت اللفة واتجهت إلى الباب. ولكنّها عادت إلى الداخل قبل أن تغادر المنزل وفتحت صندوقها مرَّة أخرى وأخرجت منه درجاً صغيراً فتحته وألقت نظرةً أخيرةً على الأزهار الجافّة الذابلة بداخله، ثم مشت إلى وعاء القمامة في المطبخ وألقت بمحتويات الدرج فيه ثم وضعته في مكانه والتقطت لفّة المناديل وغادرت المنزل.

توجّهت سلمى إلى بيت هند وطلبت إليها أن ترافِقَها إلى السوق، وهناك باعتا المناديل ثم عادتا وقد بدا في عيْنَيْ سلمى انكسارٌ وحزنٌ لاحظتهما هند فسألت:

- لماذا بعت المناديل وأنت تريدين الاحتفاظ بها؟

- لا... لا أريدُها.

- ما الذي يُحزِنُك إذاً... هل ما زلت تحبينه؟

- لا أعلم، ولكنّي أشفقت على نفسي لأنّني كرّست سبع سنواتٍ من عمري لإنسانٍ مثله... ولكن اطمئني فبعد مدةٍ قصيرةٍ سأنسى ولن يبقى من هذا الحزن شيء.

ثم واصلتا سيرهما صامتتيْن إلى أن وصلتا حيّهما. دخلت هند بيتها وأكملت سلمى طريقها إلى البيت، وهناك أخذت مكانها أمام النافذة وهي لا تدري ما تصنع، وشعرت أنّها فعلت ما فعلت قبل أن تُهيّىء لنفسها بديلاً لتطريز المناديل والانتظار، فعاد إليها الحزن ليجعل لنفسه مُستَقَرّاً في نفسها.

كان تفكير مختار في فتاةٍ أخرى هو الذنب الّذي لم تستطع أن تغفره أو تطرده من فكرها بل استسلمت لسيطرته على عقلها وتركته يشحذ الغضب الّذي ملأ نفسها. وبينما هي تُصعِّد غضبَها وحقدَها على مختار في نفسها سمعت نقْراً مألوفاً على النافذة ففتحتها في الحال. كان سوء حظّ مختار قد دفعه إلى نافذتها في تلك اللحظة التي لم يكن فيها في الدنيا أحدٌ أبغضُ إليها منه. وكعادته في إهمال التفاصيل الصغيرة لم يلاحظ الأدمع الجافّة والحقدَ في عيْنيْها وهي تقول له: "ماذا تريد؟" استغرب من السؤال الجافّ ولكنّه قال لها في براءة: "أريد أن أتزوجك." كان من الممكن أن يكون لذلك الطلب وقعٌ أفضلُ بكثيرٍ على نفس سلمى لو جاء قبل ذلك بيومين، أما في تلك اللحظة فلم تكن له أهميّة. أجابت سلمى بوجهٍ مُتجهِّم:

- لقد بعت المناديل.
- ماذا يعني ذلك؟
- وألقيت بأزهارك في القمامة.
- وماذا في ذلك؟ ما علاقته بزواجنا؟
- لو كنت أريد أن أتزوّجك لاحتفظت بالأشياء التي تذكِّرني بك.
- ولماذا تحتفظين بأشياءٍ لا قيمة لها؟

ضاقت سلمى ذرعاً بتجاهله للأمور التي تراها هامةً فقالت بغضب: "عندما أتخلص من هذه الأشياء "التي لا قيمة لها" فذلك يعني أنّك لا قيمة لك عندي."

قال مختار مهدِّئاً وقد أدرك مقدار ثورتِها عليه:

- أَعتَرِف أنّني كنت مُخطئاً... لقد كنت مشغولاً في الفترة الماضية فلم أتمكّن من زيارتك.
- بل إنّك تغيّرت بدليل عدم إخبارك إياي بانتهاء الدراسة والحصول على كتاب التزكية.
- لم أخبرك بذلك لأنّي لم أره أمراً هاماً يستحق إبلاغك إياها.. ولكنّي أتيتك الآن.
- لقد أتيت متأخّراً جدّاً لذلك لن تجد سلمى التي تعرِفها في هذا المنزل.

وهمَّت بإغلاق النافذة فدفعها ليُبقيها مفتوحةً وسأل باهتمام:

- هل تعنين أنَّك لا تريدين الزواج بي؟
- نعم، عُدت لا أصلح زوجةً لك لأنّي كرهتك!
- لماذا؟

فقالت له بحدِّةٍ وهي تغلق النافذة:

- إذهب إلى ابنة الوزير، قريبة الملك لتكون قريباً من قَدَمَيْه!

وعندما أنهت كلماتها أغلقت النافذة وأسدلت الستار أمام وجه مختار الغاضب، ولم تعبأ بطرقِه المُتواصل لزجاج النافذة فالتقط حجراً كبيراً من الأرض وضرب به الزجاج بعنفٍ فحطَّمه وأخذ يناديها بقوةٍ ولكنّها كانت قد تركت المكان متجاهلةً كلَّ ما يحدث. وبعد أن ذهب جلست على مقعدها بجانب النافذة المكسورة وهي تتفكَّر فيما حدث، وشعرت أنّها كانت مخطئةً في أسلوب تعاملها مع مختار منذ البداية، وشعرت بالسذاجة وبحاجتها الشديدة إلى إعادة حساباتها أو بالأحرى البدء في إجراء هذه الحسابات.

***

مضى مختار غاضباً وحائراً إلى بيته. لقد شعر بمرارةٍ من جراء ما قالته له سلمى، ولكنّ تلك الإهانة بدت صغيرةً إلى جانب رفضها له، فما قالته تغفره محبَّتها الكبيرة له وثقته بمنزِلته عندها، ولكنَّ رفضها له كان الشيْء الذي لم يتوقعه على الإطلاق. عندما وصل مختار إلى بيته جلس في مدخل القبو أعلى السّلم يتحدث إلى عمرو. قال له بعد أن أخبره بما حدث: "هل كنت تتخيّل أنّ سلمى سترفضني؟" ظلَّ عمرو صامتاً يمنعه حتّى من النظرة التي تطمئِنه أنّه يستمع إليه فسأله مختار: "لماذا لا تقول شيئاً؟ كنت تدافع عنها كثيراً." فلما لم يجب عمرو تنهَّد مختار حائراً ثم قال: "أخبرني يا عمرو، ماذا أفعل؟" ثم أضاف مُحاولاً إغراءه بالكلام: "سأنفِّذ كلَّ ما تقول إذا نصحتني في هذا الأمر." عندئذٍ نطق عمرو قائلاً – وقد ملّ من إلحاح مختار: "هل تريدها حقاً؟" فقال مختار: "نعم، ولكن ما يهمني الآن هو ألّا يحُول شيءٌ بيني وبين ما أريد، أكره أن أقف عاجزاً مهزوماً أمامها." تجاهل عمرو كلامه وأشاح بوجهه عنه فأدرك مختار أنَّ انتزاع النصيحة منه لن يتم إلا بإظهار حسن النيّة فقال: "ولكنّك تعلم أنّني كنت أحبّها وما زلت، وهذا ما دفعني إلى طلب

النصح منك لإعادة المياه إلى مجاريها." فرد عمرو: "أصلِح نافذتها." فقال مختار مُحتجّاً ومستهجناً تلك المشورة: "أُصلِح نافذتها! بعد ما قالته لي؟ لماذا لا تقترح عليَّ شيئاً أسهل؟" فتجاهله عمرو وأشاح بوجهه عنه ثانيةً فاعتبر مختار ذلك إنهاءً للزيارة فخرج من القبو وقفل بابه خلفه ثم اتجه إلى الباب وغادر المنزل.

وجاءت هند تزور سلمى في ذلك اليوم فأخبرتها بسعادةٍ ومرحٍ بما حدث بينها وبين مختار فقالت هند: "لا أكاد أُصدِّق أنّك ترفضين مختار. كيف استطعت ذلك؟" فقالت سلمى وكأنّها لم تسمع سؤال هند:

- أشعر الآن بارتياحٍ شديد، لقد رددت له الصفعة وكسرت من حدِّة غروره وغطرسته... أشعر أنّني وضعت أثقال همومي التي أنهَكت كاهلي منذ أن أخبرتِني بابنة الوزير.
- ولكنّك أضعت فرصة الزواج بمن تحبين.
- لا أظن أنّني أضعت شيئاً هاماً.

وفيما هما تتحدّثان كان عاملُ زُجاج يمشي خلف مختار حاملاً على كتِفِه الأيمن لوْحاً من الزجاج، وبيده اليسرى حقيبة عدّته حتى وصلا إلى بيت سلمى التي فتحت لهما الباب وأدخلت العامل بعد أن دفع له مختار شيئاً من النقود وأوصاه خيراً بنافذة سلمى، ثم اعتذر لها بشكلٍ مهذَّبٍ وانصرف. أما سلمى فقد أخذت تضحك فور ذهاب مختار فنظرت إليها هند مستغربةً وسألتها:

- ما الأمر، ما الذي يضحكك؟
- لم أكن أظنُّ أن مختاراً سيفعل ذلك.
- لقد أثبت لك تهذيبه وحسن نيّته فماذا في ذلك؟

- لقد ذهبت إلى بيته قبل أن تأتين بقليلٍ وكسرت نافذته بحجرٍ وتركت له رقعةً أقول له فيها إنِّني فعلت ذلك انتقاماً لنافذتي!

ضحكت هند ثم قالت باستهجان:

- أظن أنك أسأت التصرُّف يا سلمى... بعد أن طلب منك الزواج ثم أصلح نافذتك التي كسرها بعد إهانتك إياه ظننت أنكما ستتزوجان، أما الآن...

- أما الآن فسنتزوج أيضاً!

- بعد أن قمت بذلك العمل الصبياني؟

- نعم! لقد علمني قربي من مختار طوال تلك السنين أنّه لا يفعل شيئاً إلا بعد اختبار جدواه وإثبات كونه في مصلحته، وهو عندما يقرر فعل شيءٍ فيه مصلحته لا يدع شيئاً يعرقله، وهو لم يأتِ إليّ إلا وقد وجد أنَّ مصلحته تقتضي الزواج بي ولن يدع مسألة كسر النافذة تثنيه عن عزمه، لذلك أؤكد لك أنه سيأتي ثانيةً وثالثةً ورابعةً، ولن يهدأ له بالٌ حتى أوافق... ولكنّي لن أوافق قبل أن أجعله يأتي عشر مرات! لا بد أن يُعاقب على تفكيره في ابنة الوزير.

- ولكن ذلك قد يكلّفك عشر نوافذ.

فابتسمت سلمى في ثقةٍ وهي تتأمل الزجاج الجديد ثم قالت:

- لا يهم ما دام هو الذي سيدفع ثمنها.

- ووالدك؟ لا بدَّ أنّه سيستاء من تكسّر النوافذ.

- إنَّ أبي لا يلاحظ شيئاً. لو تغيّر كلّ شيءٍ في البيت لما لاحظ ذلك التغيّر. تعلمين أنّه لا يلاحظ في هذه الدنيا إلّا الأخطاء اللغوية.

نهضت هند متأهبةً للذّهاب وقالت: "وهكذا حُلّت مشكلتك، أمّا مشكلتي فستبقى معلقةً إلى الأبد." فنظرت سلمى إليها نظرةً حنونةً وقالت: "لا تقلقي يا هند فما زال أمامك وقتٌ طويلٌ تحلُّ فيه جميع مشاكلك... لا تنسيْ أنّك تصغُرينَني بعامين." فأجابت هند وهي تمشي أمامها إلى الباب: "ربما." ثم عادت سلمى بعد أن ودَّعتها وهي تفكّر فيما سيفعله مختار عندما يرى نافذته.

***

وفي البيت مشت هند ساهمةً إلى مخزن والدها التاجر الذي يحتفظ فيه ببضائعه، ثم دخلته وفتحت باب مخزن العطور – وهو حجرةٌ مستطيلةٌ صغيرةٌ في إحدى زوايا المخزن الكبير– وجلست على مقعدٍ صغيرٍ أمام منضدةٍ صغيرةٍ عليها بضع زجاجاتٍ وأرففٍ كثيرةٍ وُضع عليها باقي الزجاجات التي لُفَّ بعضها بأقمشةٍ لا يكاد لونُها الحقيقيُّ يظهر وبالأواني المعدنية والفخارية. أخذت تتأمّل إناء الخلط والميزان وباقي محتويات المخزن وشعرت بشيءٍ غريب. كانت فيما مضى تفتخر بأنّها تُجري حسابات والدها وتسكُب بعض العطور التي يشتريها جاهزةً في زجاجاتٍ صغيرةٍ لتُعِدّها للبيع وتركّب له العطور الأخرى بخلط مجموعةٍ منها مُتّبعةً قوائم يجلِبها معه من العطّارين وتملأ بها زجاجات البيْع الصغيرة، وكانت ترى في ذلك ميزةً كبيرةً على سلمى التي لا تفعل شيئاً غير التطريز المُمِلّ، حتى جاء يومٌ في الأسبوع الماضي سمعت فيه والدتها ترجو والِدها أن يستأجِر مُحاسِباً أو خادِماً يساعده في عمله ويترك هند تعيش كباقي الفتيات اللواتي يهتممن بزينتهن وملابسهن. شعرت بصدمةٍ عندما سمعت ذلك لأنّها عرفت أنّها لم تكن لوالدها إلّا خادماً، بل عبداً لا يستحق أجراً غير إيوائه وإطعامه. وعندما تفكّرت في حياتها مرّةً أخرى وجدت أنّ أباها أيضاً أدخل في ذهنها أنّ الزوج

المناسب معناه تاجرٌ غنيّ، واستاءت لسماحها لتلك الفكرة بالسيطرة عليها زمناً طويلاً تقاوم فيه مع والدها أيّة محاولةٍ لدخول رجلٍ "غير مناسبٍ" حياتها. وهي لا تنكر أنّ والدها بالرغم من بخله لم يقرِّر ذلك لأنّه يرتجي فائدةً منه، وأنّه لا يهدف إلّا لمصلحتها كما يراها، إلّا أنّها أنكرت عليه أنّه كان يُسيّر حياتها ويحلم عنها. ومنذ ذلك اليوم وهي تشعر أنّ ذلك المخزن ليس مكانها وأن الأرقام وأواني العطور التي لا تلمسها إلا كما يلمسها تاجر العطور أو صبِيُّه لسيت دنياها. ومنذ ذلك اليوم وهي تشعر بشيءٍ من الذّل في ذلك المخزن الذي لا تستطيع أن تتركه لأنّها لا تستطيع أن تؤلِم والدها بإعلان تمرُّدِها عليه. نظرت إلى زجاجات العطر المركَّز الخانقة التي فرض عليها استنشاقَها كلَّ يومٍ وإلى الميزان المتأهَّب للعمل وحاولت ابتلاع امتعاضها وشمّرت عن ساعِديْها وبدأت العمل.

***

عندما عاد مختار إلى منزله ورأى نافذته المكسورة وقرأ رقعة سلمى استشاط غضباً واندفع إلى القبْو والكتاب في يده وفتح بابه بسرعةٍ وقال لعمرو وهو يلوّح بالرقعة: "هل يُعقل ما فعلته تلك الشيطانة! لقد كسرت نافذتي انتقاماً لنافذتها!" ضحك عمرو فور سماعه ذلك بعد تجهّمٍ استمرّ أياماً طويلةٍ فعَجِب مختار من استجابته تلك وزاد غضبه فسأله: "ما المضحك في الأمر؟" فردّ عمرو وهو ما يزال يضحك:

- لقد كنت أشعر بالشفقة عليها وأظنّ أنّ من سوء حظّها أن ترتبط برجلٍ مثلك، ولكنّي الآن أطمأننت عليها بعد أن أثبتت أنّها لا تقل عنك شراسة.
- اطمأننت عليها بعد أن كسرت نافذتي! وهل تظنُّ أنّني سأتزوجها بعد فعلتها هذه الرعناء؟

- ولماذا لا تتزوّجها؟ ما فعلته يثبت أنّها أنسب امرأة لك في الوجود.
- ولكن ألا تفهم؟ أنا أريد أن أتزوج امرأةً تصلح أن تكون ملكة، والملكات لا يكسرن النوافذ كالأطفال العابثين!
- وهل يكسر الملوك النوافذ كالأطفال العابثين؟

صمت مختار وغادر القبو مستاءً وقفله ثم أخذ يدور في بهو منزله مُفكّراً في المسألة. كانت المقدمة التي بنى عليها أفكاره هي أنّ الملكات لا يُسئن التصرف، فاستنتج من تلك المقدّمة أن سلمى لا تصلح أن تكون ملكةً. وفي الوقت ذاته كان يوافق عَمراً في أنّ سلمى أنسب نساء الأرض له لقربها الشديد منه. ظلّ يمشي وهو يدافع غضبه الذي جعله يراها رعناء، شريرة، شرسة... واستوقفته صفة "شرسة" التي صادفت هوىً في نفسه، فربما كانت سلمى لبؤة. وشيئاً فشيئاً اقتنع أنّ انتقامها لنفسها كان انتقام لبؤة، وارتاح لهذه الفكرة ونسيَ فعلتها وقرّر أن يذهب إليها ثانيةً في الغد لينهي مسألة زواجه فيتفرّغ ذهنه تماماً لإكمال خطّة الإطاحة.

في الصباح وضع مختار طعام الإفطار لعمرو وغادر منزله، ثم عاد يمشي خلفه الزجّاج بمللٍ وهو يحمل لوْحاً زجاجياً على كتفه وحقيبة عدّته في يده. وبعد إصلاح النافذة صرف العامل ثم توجّه إلى بيت سلمى التي فتحت نافذتها فحيّاها بلهجةٍ عذبةٍ ثم قال:

- لقد أصلحت لك النافذة.
- وما معنى ذلك؟
- يجب أن نُصلح علاقتنا أيضاً.

فقالت بلهجةٍ ساخرة: "ولكنّنا لم نختلف بسبب النافذة." فقطّب فجأةً وقال:

- تذكرت الآن، لقد وجّهت إليّ إهانةً كبيرة! كيف استطعت أن تقولي لي إنّني أريد التقرّب من قدمَيْ الملك؟
- عندما تتركني بعد سبع سنينٍ من أجل قريبة المَلك الّتي لا تكاد تعرفها فلا بدّ أن يكون لقربها من الملك علاقةٌ بذلك.
- ولكن كيْف علمتِ بأمرها؟

عندئذٍ احمرّ وجه سلمى غضباً وقالت: "إذن فأنت تعترف أنّ ذلك حقيقة!" وأغلقت النافذة في وجهه قبل أن ينطق بحرف. فأخذ يطرق النافذة لتفتحها بإلحاحٍ رأته في وجهه قبل أن تسدل الستار ففتحتها فالتقط أنفاسه وقال:

- هل كان يسرّك أن أكذب عليك؟
- نعم!
- إذن سأكذب عليك الآن...
- لا، لقد فات أوان الكذب.
- ماذا أفعل إذاً؟

تأمّلت سلمى أمارات الحيرة على وجهه لحظةً ثم ردّت بعنف: "إذهب إلى ابنة الوزير وقدميْ الملك!" وأغلقت النافذة فغضب عندما أهين مرّةً أخرى وأخذ يطرق الزجاج بقوةٍ ولكنّها لم تفتح له بل اتّجهت إلى الباب لتغادر الحجرة، وما إن أدرك أنّها تتجاهله ثانيةً حتى اعترَتْهُ نوبة الغضب العنيف ثانيةً فضرب الزجاج بقوةٍ بقبضة يده فكسره، فحانت منها التفاتةٌ إلى الخلف لتسمع أنّة ألمٍ فركضت نحو النافذة وأزاحت الستار فوجدت يده تقطر دماً. أفزعها ذلك المنظر ففتحت النافذة بسرعةٍ ثم ذهبت إلى الداخل وعادت بلفائف وضماداتٍ وأخذت تمسح الدم عن يده ثم تلفّها بالضمادات.

انتاب سلمى شعورٌ غريبٌ وهي تُضمّد يده الجريحة. شعرت أنّهما جزءان لشيءٍ واحدٍ عندما وجدت نفسها تعالجه بلا تردّد، وشعرت أنّها المسؤولة الوحيدة عن العناية به، وشعر هو بشيءٍ مماثلٍ أيْقظ محبّته القديمة لها بعد أن كان قد ألقى بها في مكانٍ مهمَلٍ من نفسه ونسِيَها، فأخذ يُعرب لها عن حاجته الشديدة إليها وكيف أنّها عندما قدم إلى مدينتهم كانت له عِوَضاً عن والديه وإخوته، وكيف أنّها ملاذُه في كلّ خطب. ثم بدأ يُعيد على مسمعها أحاديث حبّه لها التي لم تسمعها منذ سنين عديدة، ولم تحاول أن تكذّب ما يقول – ربما بسبب شفقتها عليه في تلك اللحظة – بل أخذت تلفّ يده بصمتٍ وهي تفكّر مليّاً في ما كان يقوله لها وفي ما يمكن تصديقه من كلامه بعد أن فقدت الثقة به. أما هو فقد كانت ثقته بحبّها له أكبر بكثير من ثقتها بحبّه لها، لذلك فقد عرض عليها الزواج ثانيةً بعد أن انتهت من لفّ الضّمادة وانتهى هو من كلامه. وبهدوءٍ سألته أن يمنحها وقتاً تفكر فيه على رويّةٍ لأنّها وإن كانت مدركةً تماماً لمناسبة كلٍّ منهما للآخر إلّا أنّها كانت ما تزال غاضبةً لتفكيره بالإرتباط بغيرها، فوافق على مضض. وفي اليوم التالي كان يسير إلى بيتها وخلفه عامل الزجاج بزجاجه وحقيبة عدّته يمشي بخطواتٍ تنمّ على الملل الشديد. وبعد أن انصرف العامل وقف مختار أمام النافذة يحادث سلمى في موضوع الزواج ثانيةً ووقفت سلمى تستمع إليه من الداخل.

أدرك مختار أنّ كلّ شيْءٍ له مقابلٌ حتى حبّ سلمى الذي كان يظنُّ أنّه نبعٌ لا ينضب في إمكانه اللّجوء إليه متى شاء. وفي تلك اللحظات قرَّر أن يستفيد من الحب القديم الذي بدأت الحياة تدبُّ فيه ثانيةً عندما رأى الحنان الذي أحاطته به سلمى عندما جُرحت يده بعد أن كاد يصدّق أنّه فقده إلى الأبد، وبعد أن تعلّم أنّ عليه أن يدفع مقابله من الإخلاص. أما سلمى فقد استقبلت كلماته الودودة بابتسامةٍ مُشرِقةٍ إذ اقتنعت أنّه لا ضرر من إحياء الحبّ القديم

بعد أن وصل إلى مرحلة الاحتضار ما دامت تحتفظ وراء تلك الابتسامة السعيدة بالسجِلّ الذي دونت فيه كل البيانات عن مختار بما فيها قائمة عيوبه التي أفقدتها الشعور بالإطمئنان إليه والأمان معه. ووافقت على الزواج به وهي تعلم أنّه لم يدفعه إلى توثيق الارتباط بها إلا كونه جزءاً من خطّةٍ مستقبليةٍ فيها مصلحته، ولكن لم يطرأ على بالها أبداً أن تلك الخطة بذلك الحجم الهائل، وأن مختاراً كان يريد أن يصنع منها ملكة.

٤

اتّفق مختار مع سلمى على سُكنى منزلها بعد الزواج حرصاً منه على ألّا تعلم بحبس عمرو في القبْو بعد أن احتجّ بأنّ منزله صغيرٌ وبأنّه بحاجةٍ إلى إصلاحاتٍ كثيرة، ووافق والدها على ذلك لأنّه فضّل أنّ تظلَّ سلمى مع زوجها في بيته على أن يُترك وحيداً. وتمّ الزواج وانتقل مختار إلى بيت سلمى فأصبح يتردد على ثلاثة منازل، منزل سلمى ومنزله حيث يتفقّد عَمْراً، ومركز قيادة المؤامرة العُليا. ومرّت أشهرٍ على ذلك الزواج قضاها مختار في متابعةٍ متواصلةٍ لسير خطة الإطاحة بالمَلك وتنظيمها وتفَقُّد قوّاته التي كانت تتزايد مع الأيام. وأدركت سلمى من انشغال مختارٍ أنّه مُقدمٌ على أمرٍ كبيرٍ وإن أصرّ ألّا يُعلِمُها بشيء.

بمضيِّ الشهر السادس على بدء المؤامرة اقتربت اللحظة الحاسمة: لحظة المواجهة. وكان المستشار المعزول يعاني الأمرّيْن من الاحتفاظ بذلك الخبر المثير سراً على زوجته، فأراد أن يخفّف على نفسه وطأته فما كان منه إلا أن دخل الحمّام وأخذ يستحِمّ وهو يُغنّي حتى ظنّ أنّه أوْحى لزوجته أنّه يُغنّي أغنيةً قديمةً لا يُؤبَهُ لها وعندئذٍ طلب إليها بكلماتٍ مُنغّمةٍ ككلمات الأغنية أن تأتيه بمنشفةٍ أخرى فلم تجبه، عندئذٍ اطمأنَّ وأضاف إلى الأغنية بيْتاً يقول فيه:

"سيُطاح بالملك غداً وسيأتينا ملكٌ جديد". فإذا بزوجته تصيح: "ماذا تقول؟" فشعر بالهلع وتوقّع أن تنطلق زوجته إلى الجيران لتُخبرهم بذلك في الحال فلفّ جسمه بمنشفةٍ كبيرةٍ وخرج من الحمّام والماء يقطِر منه وهو يقول لها: "انتظري! لا تخبري أحداً بذلك. إنّها أغنيةٌ قديمة." فقالت له بمكر: "ولكنّي أعرف تلك الأغنية، وأعرف أنّها لا تشتمل على هذا البيت عن المَلك الذي..." فقاطعها قائلاً بخوف: "أخفضي صوتك وإلّا عاقبنا الملك وطرَدَنا من البلاد!" ثم نظرت إليه بمكرٍ وأضافت: "وأعرف أنّك لا تستطيع الاحتفاظ بالأسرار." فقال بغضبٍ اهتزّ له رأسُه فتناطرت من شعره قطراتٌ من الماء في جميع الاتجاهات: "لا توجد حقيقةٌ أخبرك بها في هذا الشأن، بل أخبريني أنت، لماذا لم تُجيبي عندما طلبت منك أن تُحضري لي منشفةً أخرى؟" فصمتت وعادت إلى حجرتها، وشعر أنّه لا يستطيع مغادرة المنزل وتركها مع ذلك السرّ الذي لا بد أن يُعرقل الخطة إذا انكشف لأحدٍ ويعرّض جميع المتآمرين بما فيهم هو للعقاب، وفي الوقت نفسه كان يتعيّن عليه الاجتماع بمختار، فاحتار حيرةً شديدةً وأخذ يدور بمنشفته ويُفكّر بعمقٍ إلى أن اهتدى إلى حلٍّ ارتاح له، فدخل إلى إحدى الحجرات وقد ترك خلفه حلقةً كبيرةً من قطرات الماء على الأرض، وارتدى ملابسه ثم خرج من البيت وقفل الباب على زوجته من الخارج ومضى في طريقه. وعندما وجدت سُعدى أنّ زوجها فعل ذلك أرادت أن تطرق الباب من الداخل وتستغيث حتّى يسمعها كل الجيران ويأتوا ليروا ما فعله زوجها بها، إلّا أنّها تذكرت أنّها ستفضح نفسها بذلك، وأنَّ هوايتها نشر فضائح الناس لا فضائحها الخاصّة فآثرت ألا تفعل.

***

جاء اليوم الحاسم فأخبر مختار زوجته بالمؤامرة قبل أن يغادر البيت مباشرةً في منتصف الليلة التي خرج فيها لتنفيذ الخطّة مع الجنود المتآمرين تاركاً إيّاها في حالةٍ من الذهول والخوف والشعور بقلّة الحيلة والقلق على مصيره ومصيرها ومصير طفلهما المنتظر.

كانت الخطّة تقتضي اقتحام مجموعاتٍ من المتمردين القلاع والحصون في أماكنها المختلفة والسيطرة عليها بعد مهاجمة حرّاسها، وقيام مجموعةٌ أخرى بمحاصرة القصر إلى أن يستسلم الملك. وفي تلك الليلة استسلمت الحصون الواحد تلْو الآخر ووقعت القلاع تحت سيطرة المتآمرين. وبقيَ القصر مُحاصراً بجنود مختار وكان فيهم دُريد ومختار نفسه بينما فضّل المستشار أن يكون في مجموعةٍ من المجموعات التي تهاجم الحصون بعيداً عن عيْنَي الملك وكذلك آدم. أما هيْثم فقد كان ضمن مجموعةٍ تُتابع عمل المجموعات الأخرى وتتفقد حاجاتها وتُمِدُّ المتآمرين بالأسلحة التي تجلبها من الحصون التي تم إخضاعها. وفي تلك المعركة التي بدأت هادئةً يلوح منها نصر مختار تمكّن كثيرٌ من الجنود الموالين للمَلك من الفرار بأسلحتهم عندما باغتهم المتآمرون.

ظلّ المتآمرون مُلتفّين حول القصر بأعدادٍ كبيرةٍ بعد أن هاجموا الحُرّاس الخارجيّين وقتلوا بعضاً منهم وقيّدوا الباقين. ورأى الحرس الداخليون ما حدث فانطلق أحدهم يطرق باب مَخدع الملك، وعندما خرج الملك إليه أخبره بما حدث فأسرع إلى إحدى النوافذ وأطلّ منها فإذا به يرى ذلك المنظر المُروّع. لقد كانت حديقة قصره ملأى بالمقاتلين الذين أحاطوا بالقصر وبأيديهم سيوفٌ لامعة، وشعر للحظاتٍ أنّ ما يراه لم يكن إلا حلماً غريباً مُبْهماً ليس له بدايةٌ ولا تَبِين له نهاية. ولم يجعله ينتبه من ذلك الشعور ويُدرك

أنّ ما يراه حقيقةٌ إلا صوت الحارس وهو يقول له: "سيّدي المَلك المعظم، ماذا نفعل؟" فنظر إليه ثم نظر ثانيةً إلى الحديقة ولم يَحر جواباً، فقال له الحارس: "أظنُّ أنّ بعض الحرس الخارجيّين قد قتلوا... ماذا ترى يا سيّدي؟" فقال الملك بقلق: "ماذا يريدون؟" فقال الحارس وقد بدا عليه الحرج: "لم أستطع إخبارك بذلك في بداية الأمر يا سيّدي، إنهم يريدونك يا سيّدي أن... تَستسلمَ وتُسلّمهم الحكم طواعيةً وإلا..." وصمت، لم يستطع أن يُكمل التهديد الذي رآه عظيماً في حقّ سيّدِه. وكان الملك يستمع صامتاً ولم يُجب بشيءٍ، فأضاف الحارس: "هل نستسلم حقْناً للدّماء يا سيدي، أم نقاتلهم؟" فقال الملك: "دعني أفكّر، دعني أفكّر فأنا لم أستوعب الموقف بعد... أين الجنود، أين العساكر؟ لماذا لم يأتوا لحماية القصر؟ ما الذي حلّ بهم؟" فقال له الحارس ورنّة الخوف في صوْته: "لا أعلم يا سيّدي الملك، ولكن يبدو أنّ الحصون والقلاع قد حوصرت كما حوصر القصر، ويُخيّل إليّ أنّها استسلمت يا سيدي." فقال له الملك: "أيْقظ جميع الخدم والعاملين بالقصر ومُرهم أن يُبْدلوا ملابسَهم ويتسلّحوا بما يستطيعون، واجتمع وإياهم وباقي الحرس في القاعة الوسطى في الطابق الأسفل وانتظروا أوامري." فقال الحارس: "أمرُك يا سيّدي الملك".

وانطلق إلى الطابق الأسفل بينما دخل الملك غرفته وأيقظ الملكة ثم أخبرها برباطة جأشٍ عمّا يدور حول القصر، فأسرعت إلى النافذة، ولما رأت الجنود المحيطين بالقصر كاد يُغمى عليها فأسندها زوجها وأوصلها إلى السرير، فجلست عليه وأخذت تنتَحِب فهدّأها الملك وطلب إليها أن توقظ الأطفال وتبدِل ملابسها وملابسهم تحسُّباً لأيِّ ظرفٍ ثم ينتظرون جميعاً في غرفةٍ واحدةٍ من غرف القصر، ثم أضاف قائلاً: "ارتدوا ملابس لائقةً فسنظّل مُلوكاً حتّى لو هُزِمنا." فمشت إلى غرف الأطفال وهي تبكي بكاءً مَخنوقاً،

ودخل هو غرفة الملابس وأبدل ملابسه وارتدى لباس القِتال وتقلَّد سيْفِه وأمسك بدِرعه ونزل إلى الطابق الأسفل حيث وجد الخدم في حالةٍ ذهولٍ ورعبٍ، فحاول تهدِئتهم وأوصاهم بالحذر حتّى يأتيهم ثانيةً. ثم صعد إلى الطابق الثاني وجلس على تكأةٍ في إحدى الغرف يُفكِّر مَليّاً... لقد وجد نفسه فجأةً في موقفٍ لم يتخيّلْه أبداً، لم يعلم ما نقِمَه الناس منه. وأخذ يتفكّر في كلِّ الأحداث الأخيرة، أتكون الشائعات هي التي ألّبت عليه الناس، أم تكون الشائعات أحد أسلحةِ فئةٍ منهم أرادت أن تحقّق هذه النتيجة؟

كان التفكير في الأسباب في ذلك الوقت شيئاً لا جدوى منه وإن أعاده إلى ذهنه الشعور بالظلم مرّةً بعد مرّةً حتّى أُرهِق ولم يهتدِ إلى سببٍ مقنعٍ لغضْبَةِ الناس المسلّحة عليه. ثم أخذ يفكّر فيما ينبغي عمله. كانت المواجهة المُسلّحة ضرْباً من الجنون في تلك الساعة، وكان الاستسلام شيءٌ غير واردٍ لما فيه من مذلّةٍ لم يألَفْ التفكير في قبولها. ثم تراءت له صورُ زوجته وأطفاله، وما يمكن أن يحدث له ولهم لو كانت حرب، فتراءى له الاستسلام حلّاً لحقن الدّماء، ولكنّه عاد فاستبعد الفكرة عندما أراد أن يتخيّل ما سيحدث له ولأسرته إذا ما استسلموا، فلم يستطع أن يضمن شيئاً غير المذلّة التي ستلحق به وبأطفاله من بعده، ولم يهتد إلى قرارٍ. فنهض من مكانه ذاك ودخل غرفته فوجد أطفاله مُصطفّين على السرير مع أمهم وهم يبكون والرعبُ يطلّ من أعينهم، فأضاف ذلك المشهد الكثيرَ إلى مخاوفه وشعر أنّه قد يفارقهم إلى الأبد، ذلك أنّه إن هُزم أو قُتل فلن يراهم ثانيةً، فألقى درعه وأخذ يَضم أطفالَه إلى صدره ويقبّلهم واحداً واحداً فتبتلُّ شفتاه بأدمعهم جميعاً، ثم أوصاهم بالصبْر وبألّا يتفرَّقوا، وبأن يحنو أحدهم على الآخر وبـ... وصايا كثيرةٍ لا تطرأ على الإنسان دفعةً واحدةً إلا لسببٍ واحدٍ شعرَت به زوجته فزاد بكاؤها وخرجت من الغرفة كيْلا يرى الأطفال أدمعَها التي بدأت تتدفّق بلا هوادة.

في تلك الأثناء كان الجنود الفارّون من الحصون بعد أن سيطر عليها المُتآمرون قد تجمّعوا في مكانٍ بعيدٍ عن عيون جنود مختار وقرّروا أن يدافعوا عن القصر، فأخذوا يجمعون المزيد منهم ممن كانوا بائتين في منازلهم ليُهيّئوا لأنفسهم فرصةً في النصر أكبر.

***

استمرّ الحصار قائماً والملك يدور في ردهات قصره غير قادرٍ على اتّخاذ قرار؛ ترفض نفسه الإستسلام ويرفض حنوّه على زوجته وأطفاله وخدمه أن يُدخلهم في معركةٍ تُعقِبها هزيمةٌ ساحقةٌ لهم بحكم قلّة عددهم. فمشى إلى الغرفة التي فيها أسرته ووقف أمام الباب، فسمع ابنته الصغرى تقول لأمّها إنّها جائعة – وكان الوقت قد قارب الضحى – ولكنّ الأم كانت سارحةً فلم تسمع ما قالته ابنتها. كان الطعام آخر ما يفكّر فيه في تلك الساعة ولكنّه شعر أنّ الطعام قد يكون آخر شيءٍ يقدّمه لأطفاله الذين لم يكن يعلم متى يتاح لهم أن يأكلوا ثانيةً بعد أن يطعمهم هذه الوجبة. فخرج في الحال إلى الخدم وأمرهم بإعداد مائدةٍ عامرةٍ للإفطار، ثم عاد واقتاد أطفاله إلى قاعة الطعام فقالت زوجته وهي تمشي خلف الأطفال: "وهل هذا وقت ذلك؟ لماذا لم تجعلهم يُحضروا شيئاً من الطعام هنا؟" فقال لها: "نريد أن نجلس جميعاً حول المائدة، قد لا نفعل ذلك ثانية." ثم اصطفوا حول المائدة التي صُف عليها أصنافٌ فاخرةٌ من الأطعمة، فأخذ الأطفال يأكلون ويشربون وهم يُثرثِرون ويضحكون ناسين المصيبة المحيطة بهم، ورأت الملكة الملك وهو يراقب أطفاله مبتسماً فابتسمت وظنّت للحظةٍ أنّ كلَّ شيءٍ قد عاد كما كان ولكنّها شكّت في ذلك فانطلقت إلى النافذة لتتأكد من أنّ الجاثوم الذي كان يجثُم على صدورهم قد انتهى فرأت صفوف المتآمرين ما تزال مُحيطةً بالقصر فولّت

النافذة ظهرها ونظرت إلى أسرتها علّها تعيش لحظاتٍ أخرى تشعر فيها أنّ كلَّ شيءٍ قد عاد كما كان.

في تلك الأثناء كان جنود الملك قد تجمّعوا بأعدادٍ كبيرةٍ وكوّنوا جيشاً صغيراً توجّهوا به إلى القصر الملكيِّ لإنقاذه من المتآمرين. وعندما وصلوا إلى القصر- وكان الوقت قد قارب الظهيرة- باغتوهم واحتدموا معهم في معركةٍ قوية. كان المَلك يراقب الجنود المحاصِرين للقصر من إحدى النوافذ العليا، وما إن رأى جنوده القادمين وبدء القتال حتّى قوِيَ عزمه ودبَّ الأمل في نفسه إذ استبشر خيْراً بنصر جنوده له وإقبالِهم على القتال من أجله من دون انتظار أمره. فنزل إلى الطابق الأسفل مُتجاهلاً توسلّات زوجته بألّا يفعل وآذن الحَرس والخدم بالخروج معه والانضمام لجنوده المقاتلين في الخارج. ففتحوا بوابة القصر وخرجوا جميعاً بسيوفهم وأسلحتهم تاركين الوصائف والملكة والأطفال بالداخل. وحمي وطيس المعركة التي استمر فيها الجنود بين كرٍّ وفرٍّ إلى أن جاءت الجماعة المتفقّدة من جنود مختار وأدركت خطورة الموقف فجلبت إمداداتٍ كبيرةٍ من الرّجال والسلاح من بعض الحصون، وعندئذٍ سيْطر المتآمرون على سيْر المعركة إذ أحاطوا بالملك وجنوده من كلّ الجهات، فأخذ جنود الملك يتساقطون، ثم سقط الملك نفسه قتيلاً بسيف مختار.

في أثناء ذلك كانت الملكة قابعةً في مخدعها مع أطفالها الذين نام اثنان منهم على سريرها بينما جلس اثنان منهم معها على الأريكة، وظلّ أكبرهم وكان صبياً في الثانية عشرة من عمره يتنقّل في أرجاء الغرفة في قلقٍ ويغافل أمّه أحياناً فيتّجه إلى النافذة ليرى سيْر المعركة، وكانت الملكة قد منعت أطفالها من الإقتراب من تلك النافذة لكيْ لا يشهدوا تلك المناظر الدامية، وإن

كانت أصوات صيْحات المقاتلين المُمتزجة بصُراخهم وصهيل الخيْل تصل إلى أسماعهم بوضوح. وفجأةً تسمّر الأمير الأكبر عند النافذة ثم استدار وجلس على الأرض أسفل النافذة وفي عيْنيْه ذهولٌ شديد. ولم تلاحظ الملكة ذلك لانشغالها بهمّها عن النظر حولها. وفيما هي كذلك سمعت طرْقاً على باب الغرفة ثم دخلت وصيفتها وهي تبكي وأخبرتها أنّها تريد أن تكلّمها بعيداً عن الأطفال، فنهضت من مكانها مُسرعةً ووقفت معها أمام الباب بعد أن أغلقته خلفها فأخبرتها الوصيفة وهي تنشج أن سيّدها الملك قد قُتل. كان ذلك الخبر فوق ما تستطيع احتماله فكادت تهوِي على الأرض لولا أنّ الوصيفة تداركتها وأسندتها وأوصلتها إلى السرير حيث أضْجَعتها بجانب طفليها قبل أن ينتابَها ما يشبه الغيبوبة، وأخذت الوصيفة تضمّ الطفلين اللّذين أسرعا نحو أمّهما وتطمئِنهما عليها، وأقنعتهما أنّها بحاجةٍ إلى النوم والراحة، ثم جلست وإيّاهما على الأريكة وهي تمسح أدمعها فلاحظت الصبيَّ القابع على الأرض أسفل النافذة وتلك النظرة المذهولة في عيْنيْه فأيْقنت أنّه رأى مقتل أبيه، فجلست بجواره على الأرض وأحاطته بذراعها، فأخذت الأدمع تنساب من عينيه مع نشيجٍ هادىء.

بعد موت الملك لم يسعْ من بقيَ من جنوده على قيد الحياة إلّا الاستسلام لجنود مختار فانتهت المعركة عصراً بانتصار المتآمرين. وبانفضاض المعركة أمر مختار مجموعاتٍ من جنوده باقتياد جنود الملك إلى سجن المدينة، ثم أخذ يتجوّل في حديقة القصر والعرق يتصبّب منه متفقّداً القتلى والجرحى وقد تلوّث الجوّ بالغبار والأعشاب المتطايرة التي اقتلعتها حوافر الخيول، فراعه أن يجد دُريداً بين الجرحى وهو ينازع الموت، فتقدّم إليه وأسند رأسه بيده بعد أن جثا بجانبه، وكان يتمنى ألّا يكون أحد قتلى تلك المعركة ولكنَّ دريداً نظر إليه وقال له بضعف: "لا تهتمّ يا مختار، لا بأس في

أن نموت ما دام أحدُنا سيصبح ملِكاً." قال تلك الكلمة ومختار يستمع إليه والدموع تلمع في عينيه ثم لهث قليلاً قبل أن تتوقف أنفاسه. وما هي إلا لحظاتٍ حتى قدم هيْثم متقلّداً سيفه واقترب منهما وقد ظهر الارتياع عليه ثم أخذ يحدّق في دُريدٍ بذهول. وبعد لحظاتٍ قام من مكانه وأخذ يتلفّت حوله ناظراً إلى الجثث المتناثرة في ساحة القصر وفي عينيه ذهولٌ وتساؤلات كثيرةٌ وعبرةٌ تكاد تخنقه.

***

كانت أخبار انتصار مختار وأعوانه قد بلغت الناس قبل أن يعود كلٌّ إلى بيته، وكانت سلمى تعاني مزيجاً غريباً من الإكتئاب والحزن والقلق وأشياءٍ أخرى كثيرةٍ لا تعرف كُنْهها. وعند الغروب عاد المعلّم والد سلمى إلى البيت وأخبر ابنته بما حدث في المعركة وكيف أنَّ مختاراً قتل الملك وبعض أعوانه بيده، فاستاءت سلمى وأخذت تبكي بقلّة حيلةٍ ثم نظرت إلى أبيها وقالت له:

- أبي، قل لي، ماذا أفعل؟ إنّني حائرة.
- لم الحيرة؟
- كيف سأستطيع أن أعيش مع قاتل؟
- ولكنّها حربٌ والناس يقتُلون في الحروب ولا يُسمّوْن قتلة.
- ذلك في الحروب الحقيقيّة التي يدافع بها الناس عن أنفسهم ولكنَّ ما فعله مختارٌ شيءٌ مختلف، لقد افتعل الحرب ليسرِق العرش.
- ذلك من اخترت يا سلمى.

فزاد بكاء سلمى وقالت لأبيها معاتبة:

- أبي، هل تلومني الآن على الزواج به وقد وافقت عليه قبل أن يتزوجني بمدّةٍ طويلة؟

- لم أقصد لومك يا ابنتي، ولكنّي أريدك أن تفهمي أنّ عليك أن تقبلي زوجك بأيِّ حال.
- ولكنّي لم أكن أعلم شيئاً مما نوى فعله، لم يُطْلعني على نيّته إلّا البارحة قبل مغادرته البيت، ولم أعلم أنّه سيدور قتال.
- كلّنا فوجِئنا بما فعل ولكنْ فات أوان التحسّر لأنّه لن يُعيد شيئاً.
- هل أنت راضٍ بما فعل؟
- لا يهمّ رضاي، ولكن يجب أن ترضيَ أنتِ به.

تنهّدت سلمى وهدأت قليلاً ثم قالت لأبيها:

- أظنُّ أنّك محقٌّ يا أبي، لقد فات أوان التحسّر، ولكنّي لن أستطيع أن أراه هذه الأيام، لن أستطيع أن أنسى بسهولةٍ أنّه قاتل... لا بدّ أن أغادر البيت...
- بل يجب أن يجدك في انتظاره عندما يعود.
- لن أستطيع أن أراه اليوم يا أبي.
- احتملي رؤيته فأنت زوجته، وبعد أشهرٍ قليلةٍ ستكونين أمّ ابنه.
- وهذا ما يُخيفني، كيف يُصبح طفلي ابن قاتل.
- كفّي عن ترديد هذه الكلمة يا سلمى.
- ولكنّه استطاع أن يقتُلَ ظلماً ومعنى ذلك أنّه سيفعل ذلك مِراراً في المستقبل.
- لن يفعل إذا حاولت أن تصلحيه. استقبليه اليوم بهدوءٍ وتذكّري أنّك تستطيعين تغييره شيئاً فشيئاً في المستقبل.

ثم تركها وذهب إلى حجرته فجلست على السرير تفكّر فيما قاله والدها. شعرت أنّ محاولتها توجيه مختار ستكون في صعوبةِ قيادة أسطولٍ من السفن في يومٍ عاصفٍ، ولكنْ لا ضرر من المحاولة. ثم فكّرت قليلاً فشعرت بتصميمٍ شديدٍ على النجاح في تلك المَهمّة التي ألقاها أبوها على عاتقها.

***

فيما أخذ رجال مختار يُخْلون حديقة القصر من الجثث خرج بعض أعوانه من القصر يقتادون الملكة وأطفالها الخمسة وهم يبكون بألمٍ فوقف مختار يراقب الملكة المهزومة التي تشبثت بإثنين من أصغر أطفالها بينما سار الباقون ملتصقين بها. كانت الملكة التي امتقع لونُها من الحزن والقهر تمشي برزانةٍ محاولةً أن تُخفي ما يتناوَشُها من مشاعرٍ حِفْظاً لوصيّة زوجِها الذي أوصاها بالتماسك والتجلّد والتصرّف كملكةٍ إلى آخر لحظةٍ لعدم إثارة شماتة الأعداء، فكانت من ثَمّ تسير في ردائها الفاخر ببطءٍ حاولت أن تجعله يبدو إبطاء رزانةٍ لا إبطاء انهيارٍ وشبه عجزٍ عن الحركة، وتحبس الدموع في مآقيها كي لا تكشف ذلك الانهيار. ومشت تشعر أنَّ ما يمشي مُنتصباً لم يكن منها إلا هيكلٌ كالهيكل الخارجيِّ لقلعةٍ تهدّمت أجزاؤها الداخلية كلّها فتجوّفَت، أما روحُها، أما هي، الملكة الحقيقيّة فكانت ملقاةٌ على الأرض كالظّلّ غير المرئيِّ أمام تلك القلعة الجوفاء. استوقفها مختار وخيّرها بين أن تبقى معززةً مكرمةً في قصرها كامرأةٍ من عامّة الناس أو أن تغادر البلاد إلى مسقط رأسها فاختارت أن تغادر. فأوكل بهم من يتكفّل أمرهم ثم قال لها بعطف: "سيّدتي الملكة، لقد وضعنا جثمان زوجك على إحدى الدوابّ التي سترافقكم، ولك أن تدفنيه في أيِّ مكانٍ تختارينه في المدينة أو خارجها." عند ذلك عجزت الملكة تماماً عن التصنّع فانهمرت دموعها غزيرةً كما تندفع مياه الأنهار عندما تنهدم السدود فجأةً وأسرعت إلى الهودج الذي كان من المقرّر أن تركبه، فأمسكت وصيفتها بذراعها وأعانتها على دخوله مع أصغر أطفالها، وأُركب بقية أطفالها ووصيفاتها ومن تبقّى من خدمها، واقتيد الموكب إلى خارج القصر ترافقه مجموعةٌ من الحرس. وشعرت الملكة وهي تغادر قصرها بمذلّةٍ أضافت الكثير إلى ما تجده، وغضبت من الدنيا التي خدعتها

طويلاً بإيهامها أنّ الحياة سهلةٌ مُذ وُلِدت أميرةً مدللةً لملك الدولة المجاورة إلى أن تزوَّجت الملك وأنجبت منه أطفالها الخمسة، ثم فجأةً وبلا إنذارٍ أصابتها بتلك الفواجع دفعةً واحدة. وشعر مختار أيضاً بالخديعة في تلك اللحظات. شعر أنّ البحيرة خدعته وخذلته عندما أظهرت له صورة أسدٍ ولم تُظهر له أنّ الأسد لكي يُصبح أسداً يجب أن يقتل أسداً آخر ويُذلّ زوجته ويُيتّم صغاره ويشرِّدهم، ويُسيل كثيراً من الدماء في الطريق. ولأول مرةٍ أَوْلى التفاصيل الصغيرة شيئاً من الاهتمام حاول أن يضعه تحت قدمه كما كان يفعل دائماً بأيِّ شيءٍ يعلم أنّه لن يكون في صالحه. أثار منظر أسرة الملك شفقته وساءه منظر القتلى وأحزنه موت دُريد، ولكنْ لم يَلْ أيٌّ من هذه المشاعر حقّه في التعبير إذ كان يحاول تغليب الشعور بالانتصار على كلِّ تلك الأحاسيس لكيْ يكون لكلّ تلك الأحداث الأليمة مُبرّر. ووقف يرسم على الأرض خطوطاً متعرِّجةً بسيفه ويراقِبُها وهي تتكوّن وكأنّه يريد أن يصرف فكره عن كلِّ شيءٍ من شأنِه أن يجعله يندم على الإنتصار الذي أحرزه. أما هيْثم فقد جرّ ساقيه إلى عمود من أعمدة مدخل القصر وجلس مُستنداً إليه وبكى لمنظر الملكة وأطفالها وهم يُقتادون باكين إلى خارج قصرهم، ولمقتل كلِّ من قتل في تلك المعركة الدامية.

وبعد أن مضى شطْرٌ من الليل قضاه مختار وأعوانه في تنظيم تسلّم مراكز القُوى ووضع حرّاس عليها منهم، أراد مختار الذهاب إلى المنزل ولكنّه تذكر عَمراً الذي لم يتفقَّده منذ الليلة السابقة فمضى إلى بيته القديم وحمل كميّةً كبيرةً من الطعام والشراب وفتح عليه باب القبو فوجده جالساً القرفصاء وقد بدا عليْه الأرق والقلق، فوضع الطعام أمامه وجلس مكدوداً أعلى السلم. لاحظ عمرو امتقاع وجه مختار والهالات الداكنة حول عينيه على ضوء المصباح فأدرك أن أحداثاً جسيمةً قد حدثت، ولكنّه لم يسأل عن

شيءٍ بل أخذ ينظر بصمتٍ إلى مختار متمنّياً ألّا يسمع منه شيْئاً عن تلك الأحداث. ظلَّ الاثنان صامتين برهةً وبعد لحظاتٍ قال مختار بصوتٍ مجهد: "لقد انتصرنا يا عمرو." شعر عمرو بغصةٍ كبيرةٍ وحاول إقناع نفسه بأنّ مختاراً يكذِب عليه ولكنّه فشل في ذلك فسأله:

- هل حدث قتال؟

- لم نُرد أن نقاتل ولكنَّ الملك رفض الإستسلام.. ثم هاجَمنا جنده فكان لا بد من القتال.

فأطلق عمرو زفرة ألمٍ وتنهّد في تَحسّرٍ وهو يقول بصوتٍ مملوءٍ بالألم:

- كنت أخشى أن أسمع هذا النبأ.

- هل كنت تريدنا أن نُهزم؟

- لم أكن أريدكم أن تُنفِّذوا تلك الخطّة الحمقاء... لا بدّ أنّه قُتل، لقد كان رجلاً طيباً.

- من تعني؟

- الملك.

- تعني الملك السابق.

- إذن فقد أصبحت ملكاً.

- ... نعم.

- وما ليَ لا أراك سعيداً بعد أن حققت ما كنت تصبو إليه.

- ... لقد قُتل منّا كثيرون.

- ولا بدّ أن من يقابلهم من قتلى الجانب الآخر كثيرون أيضاً.

- ... نعم.

- ما أعظم مُصاب المدينة... طمعت في المُلك وتمسّك هو به فكان أبناء المدينة المساكين هم الضحيّة.

كان مختار قد نوى عدم إطلاع عمرو بموت دُريْدٍ تلك الليلة ولكنّ عَمراً بادَرَه قائلاً: "وهل مات من المجموعة أحدٌ؟" فأطرق مختار ولم يجب فقال عمرو وقد عرف الإجابة: "من الذي قُتل؟" فأجاب مختار بصوتٍ ضعيف: "دُريد.." أطْرَق عمرو وقد ظهر عليه الألم فتنهّد مختار ثم قال: "لقد كان آخر ما قاله هو إنّه لا ينبغي أن نهتمَّ بموته ما دام أحدنا سيصبح مَلكاً.." بلغ شعور عمرو بالإشمئزاز من مختار ومنطِقه غايته عندما سمع جملته الأخيرة وشعر أنّه لن يحتمل البقاء معه أكثر من ذلك فقال: "أطلقني الآن كما وعدتني ودعني أذهب إلى البيت." فقال له مختار وكأنّه مُليء بالدم البارد: "ستكون أحد مستشاريّ يا عمرو." فردَّ بعنف: "لا أريد أن أكون لك شيئاً! فقط دعني أغادر القبو، بل وهذه المدينة التي أصبحتَ فيها ملكاً." فنهض مختار وقال: "إذن فأنا استميحك عُذراً في أن أبقيك يوماً أو يومين لأتحدث إلَيْك ثانيةً. لا أريدك أن تغادر المدينة يا عمرو، إنّها مدينتُك قبل أن تكون مدينتي." فقال عمرو بانفعال: "وقد كانت مدينة الملك أيضاً ومدينة دريد." فتنهّد مختار وقال: "سأتركك الآن.. لا أحتمل النقاش، إنّني في غاية التعب." فصرخ فيه عمرو: "انتظر! أخرجني من هنا!" وهم بصعود السّلم ولكن مختاراً كان قد غادر القبو وأغلق الباب، ثم قال بهدوءٍ وهو يقفله: "انتظر أنت يوماً آخر." واتجه بعدها إلى الباب الخارجي مُتجاهلاً خبْط عمرو المتواصل على باب القبو، ولكنّه عندما همّ بإطفاء المصباح لاحظ أنَّ ملابسه شديدة التلّوث وكأنّها ثياب قصّاب قد أنهى عمله بعد يومٍ حافل، فعاد إلى الداخل واغتسل ولبس بعض الملابس القديمة التي لم يكن قد أخذها معه إلى بيت زوجته، ثم ألقى بملابسه المتّسخة في وعاء القمامة وغادر المنزل. وفي منتصف الليل وصل مختار مكدوداً إلى البيت وبشّر زوجته المهمومة بأنّها أصبحت ملكة، ثم ألقى بجسده على الفراش ونام نوماً عميقاً.

في اليوم التالي فوجىء عمرو وهو داخل القبو بأصوات أقدامٍ كثيرةٍ في البيت فاستبشر خيْراً واعتلى السّلم ووقف قبالة الباب في انتظار ما قد يحدث ففوجىء بانفتاح الباب وبمرأى عددٍ كبيرٍ من العساكر. وفيما هو ينقل بصره بينهم في انفعالٍ وهو يؤمّل نفسه بالحريّة اجتذبه اثنان منهم وقيّدا ذراعيه خلف ظهره بعد أن فشلت محاولته في مقاومتهما، فأخذ يتساءل عما يحدث فقيل له إنَّ الملك الجديد قرّر نقله إلى سجن المدينة، فسأل: "لماذا؟" فقال له أحد العساكر بصرامة: "لا تسألنا نحن فنحن لم نُكلَّف إلا بنقلك إلى هناك." فانهار عمرو وأخذ يسبُّ مختاراً وغدْره فما كان من العساكر إلّا أن كمّموه واتجهوا به إلى مبنى السجن. وعندما وصل الركب بعمرو إلى السجن وفتحت كمامته توسّل إلى الحراس أن يستدعوا له الملك ولكنّهم استنكروا ذلك الطلب منه فألحّ عليهم فأخذوا يتغامزون فيما بينهم بشكلٍ أوحى له أنّهم يظنّونه مجنوناً فكفَّ عن الإلحاح وقد يئِس من رؤية مختار والاستفسار منه.

هنالك قبع عمرو في حجرةٍ شبه خاليةٍ من الأثاث يحاول تفسير ما حدث، فاستنتج أن مختاراً أصبح مشغولاً بعد أن أصبح ملِكاً بحيث لا يستطيع أن يعتني بـه، أو ربّما وجد التردُّد على بيته الصغير مُحرِجاً فآثر أن ينقلـه إلى

السجن. ولكنّ شعوره بأنّه أصبح سجيناً في سجنٍ حقيقيٍّ بعث في نفسه بمزيدٍ من المخاوف والقلق، وشعر أنّه لم ينقل إلى السجن إلّا ليُسجَن أمَداً طويلاً، وربما تُرك فيه إلى آخر عمره. عندئذٍ تضاعف شعوره بالألم والقهرْ وتملّكته رغبةٌ شديدةٌ في البكاء ولكنّه تماسك، وتحوّل شعوره تجاه مختار إلى شيءٍ أقرب إلى الكراهية.

***

بعد يومَيْن جلس صالحُ الحدّاد والد عمرو وابنته أُمامة يتحدَّثان في الظهيرة عمّا حدث مؤخراً، وعن المَلك الجديد الذي لم يخطر لأحدٍ على بالٍ أنّه سيعتلي العرش يوماً. وفيما هما يتحدثان طرق مسعودٌ الباب، وما إن فُتح له حتى قال والقلق يعلو ملامحه إنّه سمع لتوّه أنّ عَمْراً شُوهِد منذ يومين مُقيّداً ومُكمّماً على راحلةِ جنودٍ أخذته إلى السجن، فهبّ أبوه من فوره واتّجه إلى السجن.

كان أمام بوّابة السجن الكبيرة مجموعةُ حرسٍ واقفين بسيوفهم بلا حراكٍ كأنّهم تماثيل مُتقنة الصنعِ فدخل من بينهم بعد أن أومأوا له بالدخول. وما إن وضع قدمه عبر البوّابة حتّى وجد نفسه في دهليزٍ طويلٍ في نهايته منضدةٌ أمامها حارسان، وبجانبها أرففٌ كثيرةٌ مليئةٌ بالكتب البالية والأوراق، وعندما بدأ يمشي في الدهليز شمَّ رائحة الزمن المُخزَّن تفوح من أرضه المُتربة وجدرانه الكئيبة الّتي انحسر الجص عن أجزاءٍ كبيرةٍ منها فظهرت اللّبنات المُصفرّة تطُلُّ بكآبةٍ على الدهليز من خلال الضوء الخافت في المدخل، فازداد انقباضه وقلقه وتمنّيه ألّا يرى ابنه في ذلك المكان. وعندما انتهى إلى المنضدة في آخر الدهليز ووقف أمام الحارسين وأوراقهما المتآكلة طلب رؤية السجين الذي أُحضِر مُكمّماً منذ يومين، فلم يُسمح له بذلك في بداية الأمر

فأخبرهما أنّه يُريد أن يُلقي عليه نظرةً سريعةً ليتحقّق من كونه ابنه كما أُخبِر، فتشاورا في مسألته بعد إلحاحه وقرَّرا إدخاله. عندها مشى مع أحدِهما عَبْر فتحةٍ تفصِل بين الدهليز الذي جاء منه ودهليزٍ آخر غير مسقوفٍ أطول من الأوّل تتخلّله مِمرّات طويلةٌ يُؤدّي كلٌّ منها إلى صفٍّ من الحُجُرات. ثم سار بجانب الحارس عبْر الدهليز الطويل بجانب شريطٍ شمسيّ عريضٍ يفترشُ ما يَقرب من نصف أرض الدهليز عَرْضاً ويمتدّ من أوّله إلى آخره ويَلفح في طريقه وجه صالحٍ ونصف وجه الحارس مَيْسَرَة مع نسماتٍ خريفيةٍ تُثير الملل في نفس الحارس وتزيد من قلق صالح الحدّاد. ثم ازداد الملل في نفس ميسرة فأخذ يُصفّر تصفيراً حادّاً يُشتّت الانتباه فتضايق الشيْخ والتفت إليه، وعندما رأى فمه الممدود أمامه تمنّى لو استطاع أن يُغلِقه بسدّادة زجاجة، ولكنْ شغله القلق وتعذُّر وجود السدادة عن تلك الرغبة فأكمل سيْره بخطواتٍ مُضطربة وهو يتمنّى أن يكون من رأى ابنه مُخطئاً. ولكنّه فوجىء به في حجرةٍ أوقفه الحارس أمام نافذتها. عندئذٍ وجد نفسه وجْهاً لوجهٍ أمام ابنه الذي علا الألم ملامحه وظهر أثر السجن جليّاً على جسمه ولونه الشاحب. فصُعِق لذلك المشهد وسأل وهو يحاول ضبط انفعاله: "عمرو؟! ما الذي أحضرك إلى السجن؟ ماذا فعلت؟ وأين كنت قبل ذلك؟" ولم يُجب عمرو، لم يستطع الكلام. كان في عيْنيْه ألمٌ لمرأى صدمة والده وحرجٌ من سوء معاملة صديقه وحزنٌ لم يبرأ. جذب ميسرة الحارس صالحَ الحدّاد بِلُطفٍ من ذراعه وهو يُخبِره أنّه لا يستطيع إبقاءه بلا إذنٍ أكثر من ذلك، فمشى معه الشيْخ بخطواتٍ عصبيّةٌ وهو يصرخ مُطالِباً معرفة سبب سجن ابنه وما إذا كان قد حوكم، فقال له ميْسرة: "إنّ كلَّ ما نستطيع إخبارك به هو أنّ ابنك سُجن بأمرٍ من الملك الجديد." وقبل أن يفيق صالحٌ من دهشته أضاف الحارس: "لقد سجن الملك الجديد كلّ الجنود الذين قاتلوه من أجل المَلك السابق وسمّاهم البائديين

لرغبتهم في استمرار العهد البائد. لا بدَّ أنّ ابنك بائدياً." فاستفزّ صالحاً وصف ابنه بأنّه بائديٌّ فأخذ يسبّ ويشتم فيما أتى الحارس الآخر زرياب يساعد ميْسرة في جرّه إلى خارج السجن. وقال له أحد الحارسين قبل أن يغادر المبنى إنّ عليْه أن يستصدِر أمراً من الملك إذا أراد الزيّارة بشكلٍ منتظمٍ لأنّ ابنه سجينٌ خاص تستلزم زيارته إذناً من الملك مباشرةً. فذهب في الحال إلى بيت هيْثم وطالبه بتفسيرٍ كاملٍ لما حدث لابنه فوقف هيثم خجِلاً أمام صالح الحدّاد وهو يحكي له ما حدث، ثم وعده بأن يجلب له إذناً بالزيارة من مختار.

وفي مركز قيادة المؤامرة العُليا اجتهد هيْثم في محاولة إقناع مختارٍ بمنح والد عمرو وأخته الإذن بالزيارة فأبى مختار السماح بذلك خوفاً من محاولة عمرو نشر آرائه المضادّة للمؤامرة عن طريقهما، فأخذ هيثم يُلحّ في ذلك حتى انتهى الأمر بالسماح لوالده فقط بزيارته بعد أن أقنعه هيثم بأنّ من في مثل سنّه لا يعبأ بالسياسة ولا يُقدم على شيءٍ فيه خطورةٌ على حياته وحياة ابنه.

وفي الصباح طرق هيثم باب صالح الحدّاد ففتح له وقد ظهر عليه أثر الإرهاق والسهر، فحيّاه تحيّةً لم يردّها ثم قدّم له رقعةً مطويّةً وقال له: "لقد وصل إلى كبير الحرّاس بالسجن أمرٌ بالسماح لك بزيارة ابنك وقتما تشاء، فقط أره هذه الرقعة وسيسمح لك بالدخول في الحال.." أراد والد عمرو أن يشكر هيْثماً ولكنّ كلمة الشكر وقفت في حلقه تأبى الخروج لرفض نفسه غفران ما فعله الأربعة بابنه، فهم بإغلاق الباب بصمتٍ ولكنَّ هيْثماً أمسك الباب وقال متداركاً:

- نسِيت أن أخبرك أنّك أنت الوحيد المسموح له بالزيارة.

- ولكن ابنتي تريد أن ترى أخاها.

- لقد حاولت استصدار أمرٍ لها أيضاً ولكنّ مختاراً رفض... صدِّقني أنّني أنا أيضاً ممنوعٌ من زيارته وكذلك آدم.

وقبل أن يغلق الباب أضاف هيْثم:

- سأمرّ بك من حينٍ إلى حينٍ لأرى ما حاجتك.

- لن أحتاج شيئاً منكم.

ثم قال بقهرٍ وتحسّر: "لو علمت سبب تردد ذلك الخائن علىْنا وقضائه حوائجنا بحجّة أنّ عَمْراً أوصاه بذلك... لقد خدعني ولولا ذلك لكنت طردته." ثم تنهّد وقال: "ولكنت أبلغت كبير الشرطة عنه وجئته بعساكر يُحرِّرون عَمراً من قبضته ويضعونه في السجن قبل أن يفعل ما فعل بالبلد.." كان هيْثم يستمع إلى ما يقوله أبوعمرو وكأنّه يستمع إلى أفكاره تخرج بلسان غيره. بعدها امتطى ظهر فرسه وهو يشعر بالخِزيِ والمذلّة التي تحولت إلى شعورٍ بالحنق على مختار.

واتجه صالحٌ بعد الإفطار إلى السجن وزار ابنه ثم ذهب إلى دكّانه فوجد أنّ مَسعوداً قد فتحه وبدأ في كنسه وترتيب أدواته. فحيّاه وجلس على مقعدٍ مستطيلٍ ينتظر إنتهاءه من التنظيف. ثم وقف سارِحاً أمام سندانه وتناول مِطرقته، ورفع مسعودٌ صفيحةً من حديدٍ مُحمّي من الموقد ووضعها أمام صالحٍ فأخذ يدقّها بقوةٍ تهتزّ لها لِحْيَته الطويلة الشعثاء التي تغطّي رقبته وتصل إلى أعلى صدره وهو يحاول أن يجعل الضوضاء تنتزع من ذهنه الشعور بالظلم والقهر الذي انتابه عندما علم بسجن عمرو، وإن كان الأمر كلّه يبدو في عيْنيْه كأنّه لعبة أطفالٍ لا يُدرِك تماماً مدى جديّتها، فمختارٌ أصبح ملِكاً فجأةً بعد أن غافل الناس والزمن وزحف إلى العرش من شقٍ صغيرٍ من شقوق بوابة القصر الملكيِّ الخلفية، ثم غافل أواصر الصداقة التي تربط بينه

وبين عمرو فوضعه في السجن... فوضى عمّت الأحداث فبدا الأمر كلّه لعبة أطفال، كل الآباء يشعرون بين فترةٍ وأخرى بأنّ أبناءهم ما زالوا أطفالاً مهما كبِروا، ومن الممكن أن يكون عمرو طفلاً يلعب مع صديقه لعبة الملك والسجين. ولكنّه رآه وراء قضبانٍ حقيقيةٍ في سجنٍ حقيقيٍّ، فهل تكون اللعبة حقيقة؟ حيرةٌ كبيرةٌ اختلطت بمشاعر أخرى كثيرةٍ تلاعبت بقلب صالح العجوز وظهرت مُجتمعةً يتزعّمها حزنٌ عميقٌ على ما تسمح لحيته وشاربيه بإظهاره من وجهه. ولاحظ مسعودٌ الحزن البادي على وجه سيّده وهو يعمل فعرض عليْه أن يذهب إلى منزله ويتولّى هو العمل بدلاً منه، فرفض صالحٌ وأخذ يدقُّ وقد ملأت رائحة الحديد أنفه وملأ عيْنيْه بريقٌ لم يألفه مسعودٌ فيهما.

لقد عاش صالحٌ حياته مُسالماً لا يعبأ بشيءٍ ولا يشكو من سوء حالٍ حتّى عندما يشتكي الناس جميعاً، قنِع بعيشته البسيطة بين زوجته وأولاده الأربعة إلى أن تزوجت اثنتان من بناته وغادرتا البلد وماتت زوجته ولم يبق معه من أولاده إلّا أكبرهم عمرو، وأصغرهم أمامة، وكان أيضاً راضياً بعيْشه ويأمل أن يُصبح عمرو مُعلماً كما يتمنّى وتتزوج أمامة فيبيع دكّان الحدادة ويستريح من آلام الظهر التي بدأت تنتابه منذ سنوات عندما بلغ الستين من عمره، ولكن حدث ما لم يتوقّعه على الإطلاق. وانبترت أحلامه لولديْه وشعر للمرّة الأولى في حياته أنّه يُبالي بما يحدث حوله، وأنّه يريد أن يصرخ ويحتجّ ويتمرّد، وشعر للمرّة الأولى أنّه يريد أن يهوي بمِطرقته على رأس إنسان.

كان يضرب صفائح الحديد وبه مرارةٌ كبيرةٌ لم يشعر بمثلِها من قبل. كان من الممكن أن يقبَل سجن ابنه لو كان مُذنباً وكان من الممكن أن يقبَله لو كان أُلقي فيه بلا خديعةٍ ولا مكرٍ من أقرب أصدقائه، ولكنّ سجنه بتلك الصورة

كان ما يعصره ألماً ويجعله يشعر بطعم الخداع والقهر. وطافت بمخيّلته مشاهد له وهو يصنع لأصدقاء ابنه أنواعاً عديدةً من الأطعمة والأشربة طوال سبع سنواتٍ ويقدّمها لهم بنفسه في كثيرٍ من الأحيان، فشعر بمزيدٍ من القهر والغضب والإحساس بطعم الجحود والمكر، ومن ثم زادت قوة طرْقه واهتزازات لحيته. سأله مسعودٌ فجأة: "هل يُسمح لي بزيارة عمرو يا سيدي؟" فقال وهو يدقّ: "لا." فسأل ثانيةً: "لماذا؟" فتوقّف عن الدّقّ قليلاً ومسح جبهته بكُمّه وقال: "لا يُسمح إلّا لي أنا، ولا تسأل لماذا لأنّني لا أعرف السبب." فكفّ مسعودٌ وأخذ يعاون سيّده بصمت.

***

مضت الأيّام واستقرّ حال مختار وآن أوان انتقاله إلى قصر الملك السابق الذي حاولت سلمى إثناءه عنه، ولكنّه صمّم على موقفه وأمر بتنظيف القصر وتغيير أثاثه واستصلاح ما تلف من حديقته. وعندما اقترب وقت الرحيل وأيقنت سلمى أنّ عليها أن تنتقل لتعيش في قصر الملك السابق حاولت مرّةً أخرى أن تُثني مختاراً عن تنفيذها إلا أنّه صمّم قائلاً إن وضعه كملكٍ يستدعي أن تكون له أماكن مُتعددةٌ في المنزل يجتمع فيها بمستشاريه وبرُسل البلاد الأخرى، كما يستدعي فريقاً من الحرس والخدم والحشم لن يكفيهم بيت أبيها الصغير فوافقت على مضض. وفي يوم الرحيل ذهبت إلى هند، وكان وداعهما حزيناً حاولتا جعله أخفّ وطأةً بأن وعدت كلٌ منهما الأخرى بالزيارات العديدة كما كانتا تفعلان. ثم عادت سلمى إلى بيت والدها حيث أكملت استعداداتها للرحيل وركبت هودجاً فاخراً جلست داخله متجهّمةً تُعبّر عن رفضها لفكرة سُكنى قصر الملك السابق. وما إن اقتربت من القصر حتّى بدأت تبكي وبداخِلها رهبةٌ شديدةٌ. ورجَت زوجها أن يُغيّر رأيه دونما فائدة.

ثم دخل الرّكْب حديقة القصر الواسعة فأمرها بحزمٍ أن تكفَّ عن البكاء، ولكنّها كانت تتخيّل المعركة الشرسة التي دارت بها، وعندما انحنى لها ولزوجها الحرس وفريق الوصائف والخدم الذين استقبلوهما في مدخل القصر ازداد وجلُها إلى أن دخلت وهي تهمس إلى زوجها باحتجاجاتِها الكثيرة وضيقها الشديد بالمجي إلى ذلك المكان، وأخذ هو يحاول تهدئتها إلى أن وصلا إلى غرفتهما فأطلقت لنفسها العنان في التعبير عن رفضها لدوْر الملكة الذي لم تتمنّه في يومٍ من الأيام، فهدّأها مؤكّداً لها أنّها ستتعلم أسلوب الملكات في التعامل في زمنٍ يسير ثم قال:

- صدّقيني، لو عرفت امرأةً يليق بها أن تكون ملكةً أكثر منك لما تزوجتك.

- ولماذا نسكن هذا القصر؟ لقد ذكّرني مرأى الحديقة بما حدث بها.

- وماذا في ذلك؟ إنّني أذكر مكان جثّة الملك السابق وجثة دريد و...

- كُفّ عن ذلك! وإياك أن تخبرني عن مكان تلك الجثث في يومٍ من الأيام.

- إنسيْ كلَّ تلك الأمور كما سأنساها.

فصمتت قليلاً ثم قالت بصوتٍ ما تزال به آثار البكاء: "والممرّات والردهات والقاعات الفسيحة والغرف، كيف سأستطيع تنظيف كلّ هذه الأماكن؟" فضحك قائلاً:

- لا تنسيْ أنّك ملكة! لن تلمسي أدوات التنظيف فبالقصر ما يكفي من الخدم.

- ولكنّي أحب غسل الصحون أحياناً.

- لا تغسلي شيئاً منها هنا وإلّا استقلّ الخدم شأنك.

- ولكن سيقتلني الفراغ، فأنا لم أتعود أن أقضي يومي بلا عمل.

- عندما تلدين سيكون لديك الكثير من العمل لأنّك ستساعدين المربية في العناية بالطفل.

استهجنت سلمى الفكرة فقالت غاضبة: "أساعد المربية؟! حتى هذا العمل لن يترك لي كلّيّاً." فقال لها: "ولكنَّ هذه حياة الملوك!" فزمجرت بغضب:

- لا تهمّني حياة الملوك فأنا لم أولد ملكةً ولم أربَّ في القصور، ولن أسمح لامرأةٍ أخرى أن تتولّى تربية طفلي بدلاً مني.
- حسناً، أنت وذاك، لن يقوم بتربية الطفل غيرك.
- وماذا أفعل حتى ذلك الحين؟ إن أمامي خمسة أشهر قبل أن يكون لديّ عمل.

فتنهّد بضيقٍ وقال لها: "طرّزي كما كنت تفعلين في السابق!" فارتاحت لهذا الرأي وقالت: "نعم، سأصنع ملابس جميلةً لطفلي القادم وأطرزها." فتنفّس مختار الصعداء وخرَّ على السرير.

***

في الصباح عندما أفاقت سلمى من النوم وفتحت عيْنيْها قابلها منظر الستائر الفخمة الّتي امتدت من السقف إلى الأرض وقد ظهر شعاع الشمس خلفها. وتلفّتت حولها فرأت نفسها في غرفةٍ كالأحلام فتذكرت ما حدث وشعرت بشيءٍ من الضيق فاتّجهت إلى النافذة وأطلّت منها فرأت حديقة القصر الشاسعة بأشجارها الشامخة، وفتحت زُجاج النافذة فدخلت عليها أنسامٌ لطيفةٌ اتّحدت مع منظر المساحة الهائلة من العشب الأخضر والأشجار الباسقة المصفوفة في الحديقة والهدوء الذي لا يقطعه إلا حفيف أوراق الأشجار القريبة وزقزقة العصافير فأسبغت على نفسها سكينةً لا مثيل لها تغَلْغلَت في أعماقها حتى أزالت كلَّ أثرٍ للضيق.

ابتسمت سلمى وهي تتمطى ثم تثاءبت وهي ما تزال مستسلمةً لقوى الطبيعة الساحرة. ثم استدارت وخرجت من الغرفة فوجدت وصيفةً في نهاية الممرّ ما إن رأتها حتى اقتربت منها وحيّتها ثم قالت: "إنّ سيِّدي المَلك المُعظّم في قاعة الاجتماعات ريْثما تستيقظين، هل نُعدّ لكما الإفطار الآن يا سيدتي الملكة؟" فأجابت: "لا، سنتناول الإفطار فيما بعد." فقالت لها الوصيفة: "كما تشائين يا سيِّدتي، ولكنْ هل تريدين تناول الإفطار في غرفة نوم جلالتك أم في قاعة الطعام؟" فارتبكت سلمى قليلاً لعدم معرفتها بالمراسيم الملكية لتحدّد ما هو الأنسب، ثم شعرت أنّها يجب ألّا أن تُظهر حيرتها أمام العاملين بالقصر فقالت بسرعةٍ بدت غريبة: "في قاعة الطعام." فقالت: "كما تشائين يا سيّدتي الملكة، سأُخطر سيّدي الملك بذلك." ثم انحنت لها مُحيّيةً وانصرفت. فعادت سلمى وهي تشعر بحرجٍ كبيرٍ لا تعرف سببه. وبعد أن اغتسلت وأبدلت ملابسها خرجت من الغرفة وأخذت تتلفّت بحيرةٍ حولها بحثاً عن قاعة الطعام فرأتها الوصيفة فأرشدتها إليها، وهناك كان كلَّ شيءٍ مُعدّا على المائدة، فجلست أمام مختار الذي كان قد وصل قبلها بقليلٍ، ثم التفتت بحرجٍ إلى الوصيفة فأدركت تلك أنّ وجودها غير مُستحبٍّ فانسلّت بهدوء، فأخذت سلمى تتناول الطعام أمام صفٍ طويلٍ من النوافذ المُشرقة المفتوحة الستائر.. وبدأت تستحسن حياة القصور.

***

بعد تناول الفطور عاد مختار إلى غرفة الاجتماعات وجلس يستكمل تسجيل ما لا يَحتمِل التأجيل من الأعمال التي يتعيّن عليه القيام بها بعد أن استلم مقاليد الحكم. فوضع قائمةً طويلةً على رأسها تأمين مُلكه. ثم وضع تحت ذلك العنوان عدة نقاطٍ أهمّها الاستفادة من أخطاء الملك السابق في هذه المسألة، ودرس الفترة الأخيرة من حكم الملك السابق وكيفيّة تمكّنه من

هزيمته فوجد أنّه لم يكن يُحيط قصره بحراسةٍ كافية، فقرر تسخير جيشٍ صغيرٍ من الحرس والجنود والشرطة للإحاطة بالقصر ليلاً ونهاراً، ثم وجد أنّ نشْر الأخبار والشائعات قد ساعده كثيراً في تأليب الشعب على الملك السابق فقرّر أن يقطع كلّ سبيلٍ إليها.

وفي اليوم التالي أصدر مختار أوامره بزيادة الحراسة على قصره. ثم استدعى المستشار سُفيان وأمره أن يخبره بأمر جهاز نشر الشائعات الذي ذكره مرّةً فحاول إقناعه بكلّ ما يمتلك من دهاءٍ وخبثٍ بأنّ ما قاله لم يكن إلّا مُزاحاً، ولكنّ مُختاراً رفض رفضاً باتّاً أن يُصدّق ما قاله بعد أن رأى كيف كانت الشائعة تنتشر في يومٍ واحد. فلم ير المستشار بداً من أن يُبلغ عن جاره السمّاك وزوجته وطفله ويؤكّد له أن تلك الأسرة وحدها لها القدرة على نشر الشائعات في أرجاء المدينة كلّها خلال يومٍ وليلةٍ فسأله مختار متشككاً: "هذه الأسرة فقط؟" فأجاب المستشار مُتصنّعاً الأمانة: "فقط يا سيّدي الملك المعظم." فأطرق مختار مفكّراً، فأضاف المستشار: "هل يسمح لي سيّدي الملك بأن أشفَع لهم عنده نظير ما أسدَوْه لنا من خِدْماتٍ كان لها دوْرٌ لا نستطيع تجاهله في إنجاح مؤامرتِنا الشريفة؟" فقال مختار بحزم: "إسمع أيها المستشار سفيان، أنت تعلم منزلتك الرفيعة عندي، ولكنْ لا مكان للعواطف في عملنا، وأمن الدولة واستقرارها أهمّ عندي من أيِّ شيءٍ آخر." فقال المستشار في خنوع: "طبعاً، طبعاً يا سيّدي الملك العظيم." ثم خرج من مركز قيادة المؤامرة العُليا وهو يُقلِّب الأمر في ذهنه ويُقنع نفسه أنّه لم يُخطىء ولم يظلم أحداً.

وفي اليوم التالي جاء السمّاك أمرٌ ملكيٌّ بالانتقال إلى إحدى القرى القليلة السكان في غرب البلاد، وأطلق مُنادين في المدينة يقولون إنّ أسرة السمّاك

نُفِيت عقاباً لها على نشر الشائعات ليرتدِع من تُسوّل له نفسه فعل ذلك. وبعدها بثلاثة أيام أخذت حليمة تبكي وهي تُلمْلِم متاعها، وأخذت سُعدى تُعاونها في لَمْلَمَة المتاع وسكْب الدموع، بينما كان السمّاك يحزِم شباكه وقد استوطن البؤس وجهه النحيف شرَّ استيطان.

عندما انتهوْا من جمع المتاع وضعوا كلَّ شيْءٍ على راحلةٍ ثم ركبوا راحلتين أخريين بعد أن ودّعوا المستشار سفيان وزوجته ومضوا إلى حيث تتجمّع القوافل. وأخذت سُعدى تمسح أدمعها وحيدةً أمام الباب إذ كان زوجها قد سبقها إلى الدخول إلى البيت. وعندما دخلت خلفه وجدته مُطرقاً وهو واقفٌ في الفناء يَظهَر عليه انكسار المُذنبين فسألته ما به فاعترف لها بأنّه سبب نفي عائلة السمّاك، فغضبت منه كثيراً وأخذت تلومه قائلةً: "كيف تفعل ذلك بهم؟ لم أجاوِر في حياتي مثلهم، أين أجد جيراناً مثلهم يُحوّلون كلَّ شيءٍ إلى خبرٍ مثير.. وحتّى الطفل، لم أر في حياتي طفلاً في السادسة من عمره في قدرته على تضخيم المسائل وجعلها مثيرة.. ومأساوية.. إنه.. أنه.. " وأخذت تبحث في منديلها إلى أن وجدت بقعةً جافةً صغيرةً فقرَّبتها من عينيها وأكملت: "... بومةٌ صغيرة." ثم أجهشت بالبكاء ثانيةً، فضاق بها ذرعاً وقال لها: "إنسي البومة الصغيرة الآن وكفّي عن هذا البكاء، فلديَّ خبرٌ سيُفرِحُك." فرفعت رأسها وسألت بفضول: "ما هو؟" فقال لها: "بما أنّني أصبحت مُستشاراً مرةً أخرى فسأعود ثريّاً كما كنت، وسننتقِل من هذا البيت إلى بيتٍ أكبر منه وأجمل بآلاف المرات." فابتسمت بسرورٍ وانقلب الفضول إلى لهفةٍ وهي تسأله: "متى؟ متى؟" فأجاب: "قريباً! قريباً!" فبدا عليها التفاؤل وقالت له: "أعتقد أنّ انتقال بيت السمّاك إلى قريةٍ بعيدةٍ فيه مصلحتنا، فمن سمع عن عائلة مستشارٍ كبيرٍ تُصادق عائلة سمّاكٍ فقير." فهزَّ رأسَه مؤيِّداً ثم قال بحزم: "ولكنْ، تذكّري أنّنا يجب أن نحفظ الأسرار، اتّعِظي بما حدث لبيت

السمّاك ولِيَكُن هذا درساً لك يا سُعدى. ودعي نشر الأخبار والشائعات إلى الأبد." ثم اقترب منها وخفَض صوْتَه وهو يقول لها: "إنّنا في عهد ملكٍ جديدٍ، مختلفٍ عن الملك القديم تماماً، إنّه ملكٌ شديدُ الصرامة، شديدُ البطْش، ولا يغفر شيْئاً، لذلك إيّاك ونشر الأخبار." فصمتت مدهوشةً وقد شعرت برهبةٍ وهو يصف لها الملك الجديد. ثم لوّح بسبابته الضخمة أمام وجهِها قائلاً: "وما أخبرتُك عن الملك الجديد سرٌ أيضاً فاحتفظي به وقاومي رغبتك في نشر الأخبار، وإلّا حدث لنا ما حدث للسمّاك وأهله." فتذكرت عائلة السمّاك فأخذت تبكي من جديدٍ وتبحث عن بقعةٍ جافةٍ أخرى في المنديل.

***

بعد أسابيعٍ من بدء حكم مختار بدأ الناس يستوْعِبون الأمر ويرضوْن بالواقع فكفّوا عن الكلام عن الأحداث الأخيرة بلْ وملّوها ما عدا صالح الحدّاد الذي كان يُكثر الخوض فيها إلى أن لاحظ ضيق الناس بكلامه. ففكّر في زيارة طلحة النجّار والد دُريدٍ إذ كان مُصابُه من جرّاء ما حدث أكبر من مُصابِه هو. فذهب يزوره في دكّانه. وبعد أن حيّاه وجلس قبالته تحدّث عن فِعلةِ مختار التي أودت بحياة دريدٍ وسجنت عَمْراً فلاحظ عدم اهتمامه. كان يتحدّث معه وهو يُشذّب ساق سريرٍ وقد امتلأت الأرض حوله بنشارة خشبٍ نظر إليها صالحٌ وهي مُكوّمةٌ على الأرض حول قدميْه وشعر أنّها عالَم ذلك الرجل بأكمله. فحاول إخراجه من وسط تلك النشارة بإظهار إستيائه لتسبّب مختار في قتل ابنه فأحسّ طلحة بغرض صالح فقال: "لقد فقدت ولدي منذ زمنٍ بعيد، قبل أن يُقتل... فقدته عندما رفض أن يعمل معي وأصرّ على استكمال دراسته. آنذاك شعرت أنّ أسرتي بُترت... إنّنا نتوارث النجارة منذ ما يزيد على المائة عام، ولكنّها خرجت منّا برفض دُريدٍ أن يعمل بها قبل أن

تخرجَ بموته. لقد كان يُقلّد أصحابه في كلِّ شيء... ابنك والآخرين." فقال له صالح: "وإبني أيضاً رفض الحِدادة، ولكن ذلك لم يُغضِبني عليه ولم يجعلني غيرَ مكترثٍ بسجنه." فتنهّد النجار وهو يتأمل سدرةً أمام دكّانه قد تساقطت منها أوراقٌ صفراء فرشت الأرض حولَها وقال: "لا تظنّنَ أنّي غيرُ مكترثٍ بموت دريد، إنّني حزينٌ عليه..." وشعر بغصّةٍ أسكتته برهةً ثم ابتلعها وأكمل: "... ولكنْ، هل تعود تلك الأوراق الذابلة المبعثرة على الأرض خضراءَ حيّةً في مكانها على الغصون لو استنكرنا ما يفعله الخريف؟"

أطرق صالحٌ قليلاً ثم حدّق ثانيةً في كومة النشارة المحيطة بالرجل. لقد أدرك أنَّ يأسه من عودة ابنه إلى الحياة أذهب غضبه على مختار وما فعله وجعله لا يبالي بشيء. ثم نظر إلى السدرة وإلى الأوراق التي ما تزال خضراءَ معلَّقةً بغصونها، وشعر أنّ بيْنه وبين طلحة النجار فجوةً كبيرةً ليس في الإمكان تجاوُزها. وبعد قليلٍ قام من مكانه وودّع والد دريدٍ وخرج وحيداً كما دخل.

***

بمُضيِّ الأيام أصبحت هيئة صالح الحدّاد مألوفةً عند كلّ العاملين بالسجن لكثرة تردّده عليه، وأصبحوا يسمحون له بالدخول بدون إظهار تلك الرخصة. ووصل ذلك إلى علم آدم وهيْثم ومختار الّذي لم يُظهر اعتراضاً على ذلك، بل اعتبره مزيّة لغرضٍ في نفسه، فبعد أن استقرت الأوضاع وانتقل وزوجته إلى قصر الملك تذكّر أنّه وعد عَمْراً منذ بضعة أشهرٍ وهو سجينٌ في قبو منزله بمُحادثتِه ثانيةً في أمر عمله معه، وأصبح يشعر بالحرج لعدم وفائِه بوعده، ففكّر في زيارته ولكنْ أخَّره عن ذلك أمران، أحدُهما استصعاب زيارته بهيْئتِه العاديّة بعد أن أصدر أمراً بعدم السماح لأحدٍ بزيارته غير والده. أما

الأمر الآخر فقد كان حرجه من عدم القدرة على إطلاق سراحه، إذ كان يعلم برفض عمرو للمؤامرة ويخشى من تأثيره في الآخرين من أفراد الشعب وحملهم على كرهه، لذلك فعندما سمع أنّ حرّاس السجن اعتادوا تردّد أبي عمرو على السجن شعر أنّ أحد الأمرين قد تدبر، ولم يبق إلا حمل نفسه على زيارة عمرو التي كان يتمنّى أن يَحدُث لها مبررٌ غير إطلاق سراحه. وحدث هذا المبرِّر عندما وضعت سلمى مولودَها الأول بعدها بأسبوعين.

عندما اقترب النهار من الانتهاء في ذلك اليوم خرج مختار متنكراً بلحيةٍ صناعيةٍ وشاربيْن شبيهةٍ بلحية صالح الحداد وشاربيه وبملابس شبيهةٍ بملابسه، وركب حصاناً غير مألوفٍ لدى المُقرّبين منه وانطلق إلى السجن. وأدخله الحراس، وعندما استقرَّ أمام قضبان النافذة التي تفصل بينه وبين عمرو كشف له وجهه الحقيقيّ. استغرب عمرو من مجيء مختارٍ وقال له:

- أنت؟ لقد ظننت أنّك نسيتَني إلى الأبد.
- من المستحيل أن أنساك يا عمرو... ولكنّي كنت مشغولاً جداً في الفترة الأخيرة... تعلم أنّ الأوضاع لا تستقرُّ بسهولة بعد مثل هذه الأحداث.
- لماذا سجنتني هنا؟ لماذا حوّلت سجني إلى شيءٍ حقيقيّ؟
- لأضمن أن يُعتنى بك يا عمرو، ولكن ألم يُسعدك أنّك عدت غيرَ مُضطرٍ إلى أكل طعامي الذي لم تكن تحبّه؟
- لا، كان مذاق طعامك السيّىء يوحي بالسجن المؤقت، أمّا طعام طُهاة السجن المهرة فيُوحي بطول مدّة سجني... ولكنْ، لماذا جئت متنكراً؟ ألن تخرجني من هنا؟
- لا أستطيع فعل ذلك الآن، فلا زالت الأحداث غير مستقرةٍ، ولا أظنّ أنّك غيّرت رأيك وقرَّرت أن تقبلَ العمل معي.
- لماذا جئت إذاً؟

هنا ابتسم مختار وقال بلهجةٍ ودودة: "لقد جئت لأخبرك أنّني أصبحت أباً. لقد وضعت المِلكة وليَّ العهد... أردت أن أسمّيه دريْداً إكراماً لذكرى صديقنا البطل، ولكنّي وجدت أنّ ذلك الاسم لا يناسب أميراً فأسميته فراس." أشاح عمرو بوجهه وابتسم ابتسامةً ساخرةً ردّاً على طريقة مختار في التفكير فقال له مختار: "ظننت أنّك ستهنِّئني." فلم يتفوّه عمرو بحرفٍ فلبس مختار لحيته وشاربيه وغادر السجن.

وفي اليوم التالي أدخل الحراس صالح الحداد فمشى يطلّ في نوافذ حُجرات السجن حتى وصل إلى نافذة عمرو الذي قام من مكانه على الفراش واتجه إلى النافذة. فأخذ والده يتلفّت حوله، ولمّا اطمأن إلى انصراف جميع الحراس من الممرّ خلع لحيته وشاربيه فإذا بعمرو يرى هيْثماً أمامه فقال: "أهذا أنت يا هيْثم؟" فأجابه هيثم بانكسار:

- بل حُطام هيْثم... بقايا هيْثم الذي ذهب بلا عودةٍ منذ بدء المؤامرة.
- كيف؟ كيف رضِيت يا هيْثم؟
- لم أشأ أن أجد نفسي حبيساً في قبو مختار.
- لماذا لم تهرب؟
- قال آدم إن مختاراً قد وضع حرّاساً يمكنهم أن يتعقَّبوني ويسجنوني فلم أشأ أن أعرّض زوجتي وطفلي للمشاكل والمخاطر.
- فوضعت نفسك في قبضة مختار.
- لا تلُمني يا عمرو، تكفيني السياط التي أجلد بها نفسي كل يوم.
- هل أنت نادم؟
- لا أملك حتّى الندم يا عمرو، فأنا أعلم أنَّ ما حدث كان سيحدث بي أو بدوني، ولكنْ... أظن أنّني نادمٌ وإن لم أكن أملك الرفض... وحتّى الآن لم يفارقني منظر المِلكة وأطفالها وهم يُقْتادون خارج القصر... إنّك محظوظٌ

لعدم رؤيتك ذلك المنظر... لم أكن أعلم قبل ذلك اليوم أنّ رؤية إنسانٍ يُذَّل قاسيةٌ على النفس مثل رؤية إنسانٍ يُقتل.

تنهّد عمرو وتمنّى بشدّةٍ إنهاء الحديث في ذلك الموضوع فسأل هيْثماً:

- لماذا لم تأت قبل اليوم يا هيثم؟

- مختار لا يسمح بزيارتك خوفاً من تأثيرك فينا.

- كيف سمحتم لمختار بالسيطرة عليْكم!

- وكيف سمحت له بسجنك يا عمرو؟

- لو رفضتم جميعاً لما أصبح مختار شيئاً.

- لقد كان معه آدم ودريد... ما كانا ليرفضان.

- نعم آدم... جاءت المصيبة على يد آدم... لولاه لما استطاع مختار شيئاً.

- لقد سمعت منه أنّه لو ضمن تعاونك معه لأطلق سراحك... لماذا لا توهِمْهم بأنّك ستتعاون معه ثم تهرب؟

- وهل استطعت أنت الهرب؟ ثم إنّني لا أحب الخداع حتّى مع المخادعين.

تنهّد هيْثم ثم لبس لحيته وشاربيه وقال:

- هل تريد شيئاً من خارج السجن يا عمرو؟

- لا، لا تستطيع أن توفّر لي ما أريد يا هيثم.

فودعه هيثم وانصرف.

بعد أن ذهب هيْثم بقليلٍ جاء والد عمرو الحقيقي فدخل السجن فنظر إليه ميسرة الحارس مستغرباً وقال له:

- لماذا عدت؟ ألم تستطع الانتظار إلى الغد؟

- ولماذا أنتظر إلى الغد وأنا لم آتِ منذ ثلاثة أيام؟

- لم تأت منذ ثلاثة أيام؟ ولكنّك أتيت أمس وأتيت منذ قليل.
- لم آت منذ ثلاثة أيّام، صدقني.
- ولكنّي رأيتك بعيني.
- لماذا تدّعي ذلك؟ إنّ كلّ ما أريده هو رؤية ابني الذي لم أره منذ ثلاثة أيام.

شعر ميسرة بالشفقة على الشيخ فأومأ إليه بالدخول وهو يقول له: "أدخل إليه... مع أنني متأكد أنّك كنت هنا منذ قليل." ودخل والد عمرو بينما وقف ميسرةُ أمام المدخل حائراً فأتى زرياب وسأله عن سبب نقاشه مع الرجل فقال له:

- إن والد عمرو رجلٌ غريب، لقد جاء مرّتين اليوم وعندما سألته عن سبب مجيئه مرّةً ثانيةً أنكر أنّه جاء قبلها.
- ولكنّه لا يكذب، إنّه رجلٌ مستقيم.
- لم أقل إنه كذَبَ يا زرياب، فقط قلت إنّه غريب.
- ربما فَقَدَ الذاكرة.
- وكيف يفقد الذاكرة فيما يتعلّق بزيارته الأولى ويتذكّر كلَّ شيءٍ غيرها؟
- إذن ربما أُصيب بالخَرَف، إنّه حدادٌ كما تعلم والحدّادون يتعرّضون كثيراً للضوضاء وهذا قد يُصيبهم بالصمم.. والخرف.
- بين يومٍ وليلةٍ يا زرياب؟
- ربّما أثّر فيه أيضاً حُزنُه الشديد على ابنه فأُصيب بالخرف فجأة.
- ربما... ولكنْ إذا جعله الحُزن يصاب بالخرف، فما الّذي يُصيب جسمه؟ أحياناً أراه أطوَل قليلاً وأحياناً أقصر قليلاً وأنحف.

- لا تعبأْ بذلك يا ميسرة، إنّه حدّاد، وكلّ الحدّادين هكذا لأن ظهورهم تتعرض للإنحاء كثيراً.
- كلّ الحدّادين هكذا! أظنُّ أنّ الذي أصيب بالخرف أنت وليس الحدّاد.

وفيما هما يتحدثان جاء آدم مُتنكِّراً في شكل أبي عمرو ومحاولاً أن يقلّد مشيته فقال له زرياب: "من أنت، ومن تريد أن تزور؟" فقال لهم مُحاولاً تقليد صوت والد عمرو: "ما بِكُم اليوم؟ هل نسيتم هيئتي بعد كلّ هذه المدة؟" فقال ميسرة بحزم: "أخبِرنا من أنت!" فقال آدم: "أنا صالحُ الحدّاد والدُ عمرو أتيتُ أزوره." فنظر الحارسان أحدهما إلى الآخر ثم التفتا إليه وقال له ميسرة: "إذا كنت أنت والد عمرو فمن الرجل الذي أمام نافذته الآن؟" فما كان من آدم عندما سمع ذلك إلّا أن ركض مبتعداً بأقصى سرعته، فلحِقه الحارسان ولكنّه كان قد امتطى جواده وانطلق كالريح. وعاد الحارسان بعد أن فشِلا في اللّحاق به وقال ميسرة لزرياب: "أخالك ستقول إنّ كلّ الحدادين يوجدون في مكانين في الوقت نفسه." فهز زرياب رأسه مُعبّراً عن حيرته الشديدة ولم يحر جواباً.

٦

بعد انتقال أُسرة السمّاك بأسابيع قليلةٍ جاءت مكانها أرملةٌ في الستّين من عمرها ومعها والدتها. وفي الصباح ذهبت إلى منزل المُستشار سُفيان ففتحت لها سُعدى الّتي نظرت إليها بازدراءٍ وهي تتأمّل مظاهر البؤس عليها وسألتها ما تريد فأجابت المرأة: "إنّني جارتك الجديدة، إسمي هاجر، وتسكن معي أمي... أريد أن أسألك أين تستلمون الجِرايات في هذه المدينة." فقالت سُعدى باحتقار:

- جِرايات؟ ومالي وللجرايات كيْ أعرف مكانها!

- ظننتُك من أصحاب الجِرايات، ظننتُك أرملةً.

- أرملة!

ثم شعرت سُعدى بالتعالي أمام تلك المرأة الفقيرة التي أغضبها كلامُها فأكملت بغطرسةٍ وقد نفخها الغرور:

- إنّني لست أرملة، ولست فقيرة، إنّني زوجة أحد مستشاري الملك.

- زوجك أحد مستشاري الملك! مَنْ مِنَ المستشارين هو؟

- المستشار سفيان.

- المستشار سفيان؟ ولكنْ ألم يعزِله الملك منذ زمن؟

فاضطربت سُعدى وقالت بصوتٍ سقَط منه التعالي الذي استقبلت به المرأة فخرج مُجَوّفاً: "ألم تسمعي أنّ الملك الجديد عيّنه مستشاراً مرّةً أخرى؟"

- لا، لم أسمع بذلك.

- من المؤكد أنّك لم تسمعي بأنّ الملك القديم انتهى أمره منذ مدّةٍ وأنّ لدينا الآن مِلِكاً جديداً!

- بل سمعت... ولكنْ... لِمَ عزل الملك القديم زوجك.

- ما شأنك بذلك أيّتها المرأة؟

- أحببت فقط أن أعرف السبب.

- قلت لك لا شأنَ لك بذلك! ما هذا الفضول!

ثم همّت بإغلاق الباب ولكنّها فتحته قبل أن تُتِمَّ إغلاقه وقالت:

- ونحن لا نعرف مكان استلام الجرايات لأنّنا لا نحتاج إليها.

- لماذا تسكنون هذا المنزل الصغير إذاً؟

- سكنّاه بصفةٍ مؤقّتةٍ ولكنّنا سننتقل إلى قصرٍ كبيرٍ قريباً جداً حيث نُجاور من يليق بِنا من كبار القوم.

قالت ذلك ثم أغلقت الباب بقسوةٍ في وجه العجوز التي خشِيَت أن تطرق باباً آخر فتُقابلها امرأةٌ مثل سُعدى، فأخذت تتجوّل في الحيِّ على غير هدىً علّها تجد من تسأله، إلى أن رأت رَجُلاً في مثل عمرها يبدو عليْه الفقر فسألته عن مكان استلام الجرايات فقال لها إنّه ذاهب إليه، فمشت معه وعلِمت منه أن اسمه بِشْرٌ، وأنّه يستلم الجراية منذ عامين، وتحدثّا عن قيمة الجراية التي عادت غير كافيةٍ لسد احتياجات أصحابها إلى أن وصلا إلى المكان المطلوب.

***

ذهبت هند إلى القصر لتزور سلمى بعد أن صنعت ثوبيْن لمولودها، ففوجئت بأنَّ الحرس أدخلوها إلى قاعةٍ واسعةٍ قريبةٍ من الباب الخارجيّ، وسألوها عن اسمها وسبب قدومها ثم أمروها بالانتظار واختفوْا داخل القصر. فانتظرت وقتاً طويلاً وملّت فأخذت تمشي في القاعة مُستعرضّةً ما فيها من أثاثٍ فاخرٍ ورياشٍ لم تر مثله في حياتها، ثم جلست ثانية. فلّما طال انتظارُها شعرت برهبةٍ من المكان والحرّاس فاتجهت إلى الباب لتغادر المكان وتعود إلى البيت. ولكنّها فوجئت بحرسٍ على الباب يأمرونِها بالعودة وانتظار أمر الملِكة. وأمام سيوفهم لم تجد بُداً من العودة والجلوس ثانيةً يَنتابُها القلق والندم على التفكير في تلك الزيارة. وشعرت بعد كلّ ما حدث أنّ سلمى أصبحت بعيدةً جداً عنها، ونوَتْ ألّا تكرّرِ الزّيارة إنْ خرجت سالمةً من ذلك الموقف. وفيما هي في ذلك القلق إذ برز إليها أحد الخدَم وأخبرها أنّ الملَكة ستستقبِلها. وأمرها أن تَتبْعه، فقامت مرتبكةً وهِي تشعر بالحرج والدهشة إذ رأت كيف أصبح لسلمى ذلك الوزْن، ولأوامِرها تلك القيمة. ومشت خلفه حيْث قادها خلال ممرّاتٍ طويلةٍ وردهاتٍ واسعةٍ وخلال أنواعٍ من الأثاث والرِّياش والتحف والزينة. ثم قادها الخادم إلى درجٍ فسيحٍ هائلِ الحجمِ صعدَتْه خلفه، ثم أُدخلت إلى قاعةٍ أكثر جمالاً من الأولى حيث استقبلتْها وصيفةٌ جعلتها تُقرِّر في الحال ألّا تقدِّم الثوْبَيْن إلى سلمى إذ كان عليها رداءٌ لا تحلم هيَ بارتداء مثلِه. فحيّتها بأدبٍ جمٍّ وأجلستها على أريكةٍ وثيرةٍ، وأخبرتها أنّ الملِكة ستأتي عمّا قليل. وازداد شعور هند بالضآلة عندما رأت الوصيفة ورأت أنّ عليْها الانتظار مرّةً أخرى، ثم أخذت تُسائِل نفسها: لِمَ كلّ ذلك؟ ومن أجل من كلّ ذلك؟ من أجل سلمى جارتِها القديمة.. ابنة المعلّم؟

بعد مدةٍ قصيرةٍ دخلت سلمى وعليها رداءٌ جميلٌ وقد ازدادت جمالاً. وما إن رأت هند حتّى تهلَّلت أساريرُها وابتسمت. فابتهجت هند بذلك وشعرت أنّها

لم تفقد صديقتها بعدُ وقررت أن تقدِّم لها الثوبين. ثم تحدّثت الصديقتان وأبدت هند إعجابها الشديد بالقصر الذي كانت تظنُّ أن سلمى سعيدةٌ فيه، إلا أنها أخبرتها أنّ وجودها فيه لا يُسعدها أبداً، فاستغربت هند فأخبرتها سلمى أنّها تشعر بامتعاضٍ لكونه لم يُبْنَ لها، وأخبرتها أنّها أحياناً عندما تكون وحيدةً في إحدى الغرف تشعر أنّ الملكَ المقتولَ سيشخَصُ أمامَها، وأنّها عندما تطُلُ من النوافذ وترى الحديقة تتذكّر ما رُوِي لها من أنّ الجُثث ملأت أجزاءً منها. ثم ابتسمت وقالت: "ولكنْ، كلّ ذلك سينتهي عندما يكتمل بناء قصرِنا وننتقل إليه."

كان مختار قد بدأ بناء قصرٍ له ولأسرته بعد شهرٍ من تسلُّمه مقاليد الحكم من الأموال التي كانت مُخصّصةً لبناء عدّة مُستشفياتٍ في مناطق متعددةٍ من البلاد بعد أن اختار مساحةً هائلةً في أجمل مناطق المدينة وأمنعها. واستحضر أمهر البُناة في بلاده والبلاد المجاورة لأنّه أراده أن يكون أكبر وأجمل وأفخم من قصر الملك السابق، ومن قصور باقي الملوك في البلاد المجاورة.

في نهاية الزيارة قالت هند لسلمى وهي تودِّعها: "أَعذريني إذا لم أزُرك ثانيةً يا سلمى، وذلك لصعوبة مجيئي إلى القصر." فقالت لها سلمى: "هل ضايقك الحرّاس؟ لا بدّ أنّ الانتظار في القاعة السفلى ضايقك، ولكنْ لا تهتمّي فلن يحدث ذلك ثانيةً. سأوصيهم بإحضارك هنا فوراً في المرَّة القادمة." ثم قَرعت جرساً صغيراً فأتت إحدى الوصائف فأوصتها أن ترافق هند إلى الخارج وتُبلغ الحُرّاس بعدم تعريضها لما يتعرّض له غيرها من الزوار. ثم ودّعت هند ووقفت ترقبها أعلى الدرج إلى أن وصلت إلى الدرجة الأخيرة واتّجهت إلى الباب الخارجيّ.

خرجت هند من القصر وهي تؤكّد لنفسها أنّها لن تعود ثانيةً بالرغم من تظاهرها بقبول الأمر الذي أصدَرته سلمى إلى الحراس. كانت تمشي وتسأل نفسها: "هل يكون ذلك حسداً لسلمى على المكانة التي وصلت إليْها والسلطة التي تستطيع فرضها على ذلك العدد الكبير من الخدم والحشم؟" ولكنّها عندما فكّرت ثانيةً وجدت أنّها لم تكره ما آل إلى سلمى من رفعةٍ وسلطةٍ وإنّما كرِهت الفرق الذي بدأت تراه بينها وبين صديقتها التي طالما لعبت معها في طفولتها؛ لم تكره أن تجد سلمى تتبوأ تلك المكانة ولكنّها كرِهت أن تشعر بالضآلة بجانبها مهما أظهرت لها من التلطّف لأنّ ذلك الشعور أتى تلقائياً وبشكلٍ مفاجيءٍ عندما رأت صديقتها ملكةً فجأة، وكرهت أن تتّخذ زيارتها لصديقتها شكلاً آخر لم تألفه. لقد ألِفت أن تفتحَ لها سلمى الباب وأن يبدأ حديثهما من الباب إلى حُجرتها ذات النافذة التي تجلس أمامها وتطرِّز أبداً، ولم يعجبها أن تمرَّ على ردهاتٍ كثيرةٍ على جدرانها مصابيح كبيرةٌ تقف فوق حواملٍ كالأغصان الذهبية... كلّ شيءٍ أصبح مختلفاً، ولذلك قرّرت أن تكون تلك آخر زيارة لسلمى.

***

أخذ آدم يراقب صالِحاً بين الفيْنة والفيْنة حتّى علم الأوقات التي يذهب فيها إلى السجن، فاستطاع أن يحدِّد الوقت الأنسب لانتحال شخصيّته. وفي إحدى الأمسيات تنكّر في زيِّ صالح الحدّاد ودخل إلى السجن. ووقف أمام نافذة عمرو وناداه همساً، فهبَّ عمرو واقفاً واقترب من النافذة وهو يقول: "من القادم؟" ثم اقترب فخلع آدم لِحيته وشاربيه وما إن رآه عمرو حتى أشاح بوجهه عنه وهو يقول بضيق:

- أنت؟ ماذا تريد؟

- أريد أن أراك.
- ولكنّي لا أريد أن أراك فلَيْتَك تذهب في الحال ولا تعود إليَّ ثانيةً.
- أعلم أنّك غاضبٌ عليَّ ولكنّي أعلم أيضاً أنّك طيّب القلب.
- ما فعلتَه لا يُغتفر.
- أُقسم أنّني لم أكن أعلم أنّ مختاراً سيُبقيك في السجن بعد تنفيذ الخطّة.
- وحتّى اشتراكك في الخطة لا يُغتفر.
- ولكنّك غفرت لهيْثم، لقد أخبرني أنّه يزورك.
- هيثم كان مُجبَراً، لم تكن لديْه الشجاعة الكافية ليُقاوم مختاراً.
- وأنا أيضاً كنت مُجبراً، هل تظنّ أنّني كنت أستطيع أن أقاومه؟
- كنت ثانيَ اثنين في الخطة، لو تخلّيْت عنه في ذلك الوقت لما استطاع شيئاً، ولكنّك كنت تريده أن يُنفّذ الخطة... أعرف خُبثَك وطمعَك.
- لا تظلِمني يا عمرو.
- أصدِقني القول، ألم تصادفْ خطّة مختار هوىً في نفسك؟

تنهَّد آدم ولم يجب فقال عمرو:

- تكلّم يا آدم، لماذا لا تجيب؟
- إسمع يا عمرو، تعلمون جميعاً أنّني مختلفٌ عنكم، تعلمون ظُروفي كلَّها منذ أن كان أبي حمّالاً فقيراً لا يستطيع أن يُطعمنا كلَّ يوم... أذكر جيداً ذلك اليوم الذي اضطر أبي فيه إلى سرقة مبلغٍ من المال ليبدأ به عملاً يمكّنه من إطعامنا كلَّ يومٍ وفي نيّته أن يردَّه في المستقبل، فَفُطن إليه وطورِدَ حتى سقط وكُسرت رجلُهُ واستُردَّ ما بحوزته... وحتّى عندئذٍ لم يرحمه الناس، بل طردونا من المدينة فعشنا أيّاماً صعبةً غُرَباء في قريةٍ بعيدةٍ، ثم

أصيب أبي المُقعد بالسلّ فمات مُضطراً أخي الأكبر إلى العمل حمّالاً وهو في الثالثة عشرة من عمره...

- نعم ولكنّه أصبح تاجراً بعد أقلّ من عشر سنين، وأصبح له دكّانٌ في تلك القرية، مما جعلك تعود إلى المدينة لتدرس على أيدي مُعلميها.

- وحتّى عندما عدت وخِلت الناسَ قد كفّوا عنّا ونسوا كلّ شيءٍ وجدت أنّ أيّ هفوةٍ لي تذكّرهم بأبي... أذكر جيّداً كيف سبّني أحد الطلاب ونعتني بابن الحمّال السارق قبل أن يفاتِحني مختارٌ بأمر المؤامرة بيومَيْن اثنين... إنّكم تعلمون ذلك، تعلمون أنّني دائماً أُعامل معاملةً سيئةً بسبب ما فعله والدي المسكين مُضطراً، وتعلمون أنّ ذلك الأمر كان سيقفُ دائماً أمام أيّة محاولةٍ لي في تحقيق حياةٍ أفضل.

- وما الذي فعلته لك المؤامرة؟

- قدّمت لي مركزاً لم أكن أحلم به. أصبحتُ مستشاراً له مكانته العالية بين الناس - لن تتخيل كيف أصبح الناس ينظرون إليّ... وضمنت تجنيب أبنائي ما عانيْته من نظرة الناس المتعالية عليّ، من سيجترِئُ على التطاول على ابن مستشار الملك؟

- تلك فتاتةٌ من المائدة التي استولى عليْها مختار.

- أعلم ذلك، ولكنْ بدا ليَ الأمر مختلفاً قبل تنفيذ الخطة.

- كان مختار بحاجةٍ إليك.

- ولم يكن قد رأى المستشار السابق.

- هل يفضّله عليك؟

- في كلّ شيء. لقد بدأت أشعر أنّه يراني وهيْثماً عِبْئاً عليه ويودُّ لوْ أخلى مركز قيادة المؤامرة منّا.

- ذلك الماكر، لا أعرف كيف اهتدى إليه مختار.

- لقد اضطررنا إلى الاستعانة به في تنفيذ الخطة.
- إذن لا تشكو، لقد نلت ما تستحق... والآن إذهب ودَعْني، لا أريد أن أرى من خان صداقتي وخدعني.
- لماذا تصب جام غضبك عليّ؟ لماذا لم تغضب من مختار الّذي سجنك واستولى على المُلك وحده.
- لا أُنكر أن مختاراً لئيم، ولكنَّ صورة البحيرة وشهوة المُلك غلبته على أمره وأغوَته، أما أنت فكنت الأداة التي نفذ بها خطته اللعينة، وأنت من استدرَجني كالفريسة ومكّن ذلك اللئيمَ منّي، لذلك فأنا أرى خِيانتك أكبر وظلمك أفدح. ولا تبرّر هذه الخيانة بأيِّ شيء! فلا معاملة الناس السيّئة ولا قلّة الفرص الجيّدة تجعل الإنسان الشريف يُعين على ظلم الآخرين وسفك دمائهم! وما أكثر من عاشوا ظروفك واستنكفوا أن يظلِموا غيرهم أو أن يُعينوا على الظلم.. إن الأحداث يا آدم لا تغيّر الناس وإنّما تُعزِّز ما بأنفسهم قبلها؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.. لا أستطيع أن أغفر لك يا آدم.

شعر آدم بحرارةٍ تسري في وجهه من الغضب من عمرو فركّز بصره عليه وقال بصوتٍ مليءٍ بالسخط:

- ولكنّك غفرت لمن ظلم الناس وسفك دماءهم، وتربّع على عرش المَلك الذي قتله وشَرّد أهله فلماذا ترفض أن تغفر لي، ألأنّني آدم ابن الحمّال السارق؟
- إذا آثرت ألّا أطرده في المرّات الّتي جاءني فيها فذلك لا يعني أنّني غفرت له، بل يعني أنّني آمل أن استميله وأقنعه بما أراه مناسباً لكون البلد كلّه في قبضته، ثم أنّه لم يسُقْني كالفريسة إلى مكانٍ يعلم أنّه سيكون سجني... إنّ الإيذاء بالسجن مؤلِم، ولكنّ الخديعة لها طعمٌ أشدّ مرارة. ليْتك رفضت مساعدته في سجني، ليتك تركته يأتي إلى بيتنا ويخدعني بنفسه، لو كنت

فعلت ذلك لما كاد غضبي عليك أن يكون أشدَّ من غضبي عليه، ولما تساوى سجنه إيّاي في نظري بخيانتك.

وجه آدم نظرةً غاضبةً إلى عمرو ثم وضع لحيته وشاربيه وذهب وقد صمَّم ألّا يكرِّر الزيارة.

***

بعد زيارة آدم بيوْميْن، وبينما كان عمرو قابعاً في فراشه أطلَّ وجهٌ له لحية أبيه وشاربيه فنهض من مكانه وهو يسأل: "أهذا أنت يا أبي؟ أم أنّك هيْثم.. أم مختار... أم آدم؟ فنزع الزائر لِحْيتَه وشاربيه فإذا بعمرو يقف مُحرَجاً وقد ارتدَّ إلى الخلف من الدهشة إذ وجَد نفسه أمام ميْسرة الحارس الذي قال له: "إذن فكلّ هؤلاء يأتون لزيارتك من دون علمنا." فسُقط في يد عمرو ولم يجب فقال له ميْسرة:

- ولكن من هم أصحاب الأسماء التي ذكرت؟

- إنّهم أصدقائي.. لا تؤذِهم فهم لا يريدون خداعَكم ولكنَّ الأوامر الصارمة بعدم زيارتي هيَ التي دَعَتهم إلى ذلك... كما أنّني بحاجةٍ إلى زيارة أصدقائي.

فربت الحارس على يده المُمسكة بأحد القضبان وقال: "إطمئن يا عمرو، لن أُبلغ عن أصدقائك ولن أدقِّق في وجوههم، ولكنّي فقط أردت أن أُعلمك أنّنا علِمنا بأمرهم..." ثم قدّم إليه الشاربين واللحية وهو يقول: "خذهما، وأَدخِل بهما من شئت." فابتسم عمرو وهو يأخذهما من يده وشكره وهو ينظر إلى رخصة الدخول الغريبة تلك الّتي يعلم تماماً أنّ مختاراً يتغاضى عنها فقط لأنّه هو نفسه يستخدمها. وعندما جاء والده وعلم بالأمر أخذ معه اللحية والشاربين وأصبح مسعودٌ أيضاً يزور عَمراً في السجن بين الفيْنة والفيْنة.

وعرض صالحٌ على أُمامة أن تتنكّر بتلك الأشياء وتذهب إلى السجن ولكنّها استهجنت الفكرة وقالت إنّها لن تتنكّر في شكلِ رجلٍ لأنّ الملك ظلم أخاها وسجنه بلا ذنبٍ ثمَّ فرض على كلّ زوّاره أن يرتدوا تلك اللحية، مع أنّ في إمكانه أن يسمح لهم بالدخول من دونها، وأن عَمراً يجب أن يخرج من السجن لا أن تدخله هي على هيْئة رجل، فتنهّد صالح ولم يُلحّ عليها في الذهاب لأنّه وجدها مُحقةً فيما تقول.

وفي إحدى زيارات مسعودٍ أطرق زرياب مُفكّراً ثم عندما خرج الزائر ماراً به وبميْسرة نظر إلى قامته القصيرة التي لا تشبه قامة صالح الحدّاد إطلاقاً وقال: "أظنّ أنّنا نرتكب خطأً كبيراً. إنّ عَمْراً إنسانٌ طيّبٌ ولكنْ لا يجب أن نُخاطر بعملِنا وربما بأنفسنا من أجله." فقال له ميْسرة بثقة: "وهل تظنّ أنّني أسمح بذلك من أجله فقط؟ إنّني مثلُك لا أرى أنّ علينا أن نخاطر من أجل عمرو، ولكنّي أظنُّ أنّنا مُضطرون إلى ذلك." فاستغرب زرياب وسأل:

- مضطرون؟

- نعم، فهناك من هو أهمّ من عمرو وأجدَر أن نفعل ذلك من أجله.

- من؟ صالح الحدّاد؟

فاقترب ميْسرة منه وقال له هَمساً: "بل الملك مختار!" فبدت الدهشة على وجه زرياب وسأل غير مُصدِّقٍ لما يسمع:

- الملك مختار؟

- نعم، عندما تنكّرت مرَّةً ووقفت أمام نافذة عمرو ذكر اسم الملك مختار من بين الأسماء التي ذكرها، فعلِمت أنّ الملك يزوره مُتنكِّراً، وكلّنا نعلم أنّه صديقه، وبما أنّنا لم نر الملك قط فقد رأيت أن نُدخل جميع من يأتون مُتنكّرين لئلّا نسيء إلى الملك فيعاقبنا بالسجن أو القتل.

- ارتعدت فرائص زرياب وسأل:
- القتل؟
- نعم، لقد سمعت أنّه شديد الصرامة ولا يغفر شيئاً.

فنظر زرياب إلى ميْسرة بتودّدٍ وقال بنغمةٍ تستجدي اقتناعه:

- أليْس هذا أدعى إلى ألّا يرانا نُخلّ بالتعليمات التي وُجِّهت إلينا؟
- أظنُّ أنّه يريد أن يزور صديقه مُتخفِّياً، ومن الأسلم أن نتركه يفعل ذلك.
- ولكن، ماذا يكون مصيرنا لو علم أنّنا ندخل جميع من يأتوننا متنكّرين؟
- لا تخش ذلك، فإنّني على ثقةٍ أنّه يعلم أنّنا نُدخل غيره مُتنكّرين ولكنّه يسمح بذلك، فعندما يخالِف الكبار القوانين فإنّهم يغضّون الطرف عن غيرهم مِمَّن يفعل ما يفعلونه كيْلا ينكشفوا.
- ولكنّه قد...
- لا تخش شيئاً، إطمئنّ. إذا واجهَنا بهذا في يومٍ من الأيّام فسنتظاهر بالبلاهة، فإنْ لم يُجد ذلك فسنقول له إنّنا كنّا نفعل ذلك من أجله. ولا تنس أنّنا إنْ منعناه من الدخول أو حاولنا احتجازه فسنكون أيضاً عرضةً لغضبه، أيْ أنّنا في خطرٍ في الحالتين، وأرى أنَّ خطر منعه أشدُّ من خطر السماح لغيره بالزيارة.

تنهد زرياب وهو ينظر بحيرةٍ إلى زميله الذي بدا مطمئناً إلى ما يقول، وتمنى لو استطاع أن يقتبس قدراً من طمْئنينته التي عبّر عنها بتصفيره الحادّ وهو ينصرف لمواصلة عمله في تفقّد السجناء.

***

كانت سَوْرة رفض صالح لحبس ابنه قد هدأت قليلاً بعد تلك المدّة وبدأ يفكر بتعقّلٍ أكثر فوجد أنّ من الأنسب أن يحاول التحدّث إلى مختار في شأن إطلاق سراح عمرو بدلاً من أن يحقد عليه، فاستقرَّ رأيه على أن يقابله في مركز قيادة المؤامرة العُليا. وفي اليوم التالي ذهب إلى هناك ففوجىء بأنّ الحرّاس لم يُدخلوه بسهولةٍ. وعندما تمكّن أخيراً من الوصول إلى أحد الحَجَبة طلب إليه أن يستأذن له في الدخول على المَلِك فأخبره أنّ الملكَ ليس بالداخل، وأنّه إذا أصرَّ على رؤيته فعليه أن يستصدِر له إذناً من أحد المُستشارين، فوجد صالحٌ أنّ هيْثماً أنسب المستشارين، فاستأذن في الدخول إليه فأذن له واستقبله بحفاوةٍ فطلب منه صالحٌ أن يُهيىء له موعداً مع الملك، فأخبره أنّه سيبلِغه ولكنّه لا يضمن قبوله، وطلب إليه أن يعود بعد أسبوعٍ ليرى ما وصلت إليه مسألته، فانصرف صالحٌ وهو يشعر أنّه لن يصل إلى شيءٍ ولكنّه قرّر إكمال المحاولة.

وفي اليوم التالي أخبر هيْثم مختاراً بطلبِ صالحٍ فقال إنّه لا يريد أن يراه لأنّه لا يملك تحقيق رغبته، وطلب إلى هيثم أن يقابله بدلاً منه ليرى ما سيقول ثم يحاول صرف نظره عن طلبه بأيِّ شكلٍ، فاعتذر عن تلك المَهَمَّة لخجله من ذلك الرجل، فالتفت مختار إلى آدم الذي مدَّ يده أمام المَلِك قبل أن يفتح فمه وقال: "أعفني من ذلك، فلا هو ولا ابنه يُطيقان رؤيتي." فتنحْنح المستشار سفيان وقال: "دعني وهذه المسألة يا سيّدي الملك مختار، ولن يعرف هذا الرجل طريق المركز ثانية." فابتسم مختار وقال: "أعلم أنّه عندما تصعُب المسائل فليس لها إلا أنت أيّها المستشار سفيان." فابتسم سفيان ابتسامةَ خُنوعٍ وقال:

- أتمنّى أن أكون دوماً عند حسن ظنّك يا سيّدي المَلك المعظَّم.

- إنّني متأكِّدٌ من أنّك ستكون دائماً عند ظنّي أيّها المستشار سُفيان، ولكنْ تلطَّف مع الشيْخ فهو يستحقُّ المعاملة الطيّبة.

- اطمئن يا سيّدي الملك المعظّم.

وبعد أسبوعٍ جاء صالحٌ فأُدخل على المستشار سُفيان فأعرب عن احتجاجِه لعدم إدخاله على المَلك وقال له إنّه جاء ليراه هُوَ شخصيّاً. ولكنَّ المستشار أخبره أنَّ الملك مشغولٌ وأنَّ عليه أن يعرِض مسألته عليْه هو، فأطرق برهةً وهو في حيرة أيخبره أم لا بعد أن تأكَّد له أن الملك يتهرّب منه. ثم رأى أن يُخبِره ما دام لا يستطيع أن يصِل إلى من هو أعلى منه، ولمّا أخبره بمُطالبته بإطلاق سراح ابنه اعتذر له المستشار بصعوبةِ ذلك، وقال له إن إخراج ابنه من السجن سيستدعي إخراج كلّ المساجين البائديّين من أنصار الملك السابق وفي ذلك خطرٌ على الأمن، فلم يُعجب ذلك العذر صالحاً فطالب مرّةً أخرى برؤية الملك شخصيّاً، فنظر إليه المستشار بعدم احترامٍ وأخبره أنّ الملك لو قابل والد كلّ سجينٍ لما تفرّغ لإدارة شؤون البلاد. فخرج صالحٌ ثائراً وقرّر أن يرى الملك بأيّة وسيلة، فذهب إلى قصره ولكنّ الحرّاس اعتذروا له بأنّ الملك غير موجودٍ بالداخل. ولما تكرّرت المسألة عدّة مراتٍ وتأكّد لصالحٍ أنّ مختاراً يحاول التهرّب منه طلب مقابلة المَلِكة، ولكنّها اعتذرت عن مقابلته فغادر صالحٌ القصر في المرّةِ الأخيرةِ الّتي ذهب فيها إليه وقد يئِس تماماً من إمكان إخراج عمرو من السجن بإذن الملك.

وفي دكّانه قال له مسعودٌ مُشفقاً:

- ما كان يجب أن تكرّر المحاولة بعد أنّ تهرّب منك أوَّل مرّةٍ يا سيّدي.

- هل كنت تظنّ يا مسعود أنّي كنت آمَل منه شيئاً بعد فشل المحاولة

الأولى؟

فنظر إليه مسعودٌ مُندهِشاً فواصل: "إنّما أردت فقط أن أتأكَّد من مسألةٍ... وقد تأكدت." ولم يفهم مسعودٌ ما أراده سيّده ولكنّه لم يستطع الاستفسار لأنَّ مِطرقة الحدّاد العجوز هوَت على صفيحةِ الحديدِ المُلتهبةِ على السندان مستأنفةً عملَها. بعدها حاول صالحٌ تَناسِي ذلك الأمر وعكَف على سِندانه ومَطارِقه الّتي لم تكن لتزيل ذرّةً من الغليل الذي يملأ نفسه الحزينة.

***

وجاء الشتاء على السديمة. وأخذ الناس يختبِئون من البرْد تحت الأغطية في لياليه الطويلة إلّا نعمان وهند، فقد كان الشيْخ يُعدُّ شراب الزنجبيل الساخن ثم يجلِس مع ابنته يُكمِلان حسابات تجارتِه وهما يحتسيان ذلك الشراب الدافىء، ويلقيان بالأوراق بين الفيْنة والفيْنة ليُثرْثِرا في أمورٍ أخرى بعيدةٍ عن الأرقام حتّى يشتدُّ البرد وتموت النار في المِجْمَر فيذهبان كلٌّ إلى حُجرته.

وفي إحدى تلك الليالي الباردة في ذلك الشتاء الذي اشتد بردُه أكثر من المعتاد نامت هاجر وأمُّها وقد غطَّيتا جسديْهما بما استطاعتا من أغطيةٍ باليةٍ وملابس. ولكنْ قبل أن تستغرقَ هاجر في النومِ سمعت نداءَ والدتِها المُلِّح يأتي مُرتجِفاً فقالت لها بصوتٍ نائم:

- ماذا تُريدين يا أمّي؟

- لقد سقطتْ أغطِيَتي على الأرض، أُريدك أن تُعيديها علَيّ.

- ولكنّي نائمةٌ يا أمي، التقطيها وغطِّي نفسك.

- لا أستطيع.. أشعر أنَّ أطرافي تجمَّدت، لا أستطيع أن أمدَّ يدي... إنني امرأةٌ عجوزٌ يا ابنتي.

فقامت هاجر متثاقِلةً وهي ترتجِف بَرداً بعد أن خرجت من تحت كومةِ الأغطيةِ واتّجهت إلى فراش أُمها وهي تُهَمْهِم: "حسناً يا أمّي، مع أنّي أنا أيضاً امرأةٌ عجوز." ثم أخذت تُكوِّمُ الأغطية على جسدِ والدتِها الذي كان ينتفِض برْداً وعادت إلى مكانِها وانسلَّت تحت الأغطيةِ بحذرٍ كيْ لا تُضطرُّ إلى صَفِّها مرّةً أخرى ونامت المرأتان. ولكنَّ أغطيةُ الأمُّ سقطت كلُّها مرّةً أخرى بعد أن نامت. وفي الصباح رأت هاجر الأغطيةِ المُلقاة على الأرض، فحاولت إيقاظَ أمّها وهي تُغطّيها ثانيةً ولكنَّها وجدتها باردةً كالثلج، ولم تستيقِظ مرّةً أخرى.

وعندما أصبحت هاجر وحيدةً في البيت فكَّرت في الذهاب إلى بيت ابنها، ولكنّها عدَلَت عن ذلك عندما تخيَّلت نفسها ضيْفةً ثقيلَةً عليه وعلى عائلته، فطلبت إلى بِشرٍ أن يأتِيَها بمن يُشاركها سُكنى البيت بدَلاً من أمِّها، فأحضر لها امرأةً ضَريرَةً من أصحاب الجرايات تعزَّت بها عن والدتها.

وانقضى الشتاء واكتمل بناء قصر الملك الشامخ الذي بُهرَ به كلُّ من رآه، والذي تفوَّق على كلِّ القصور داخل البَلد وخارجه، فانتقلت الأسرة المَلكِيّة بخدمِها وحَشَمِها وحرّاسها وخيولِها إليه قبلَ منتصف الربيع. وشعَر مختارٌ بفخرٍ لم يشعر بمثلِه قط. وكانت سعادة سلمى به لا توصفُ وهي تجتازُ حديقته الشاسعةَ الخلّابةَ مع زوجِها وابنها، وشعر مختار أنّه ضمن الاستقرار في ذلك القصر الذي لم يُبنَ لغيره، والذي أحاطه بالجُند والسِّلاح، وزوَّده بالممرّاتِ السِرِّيّةِ والخنادقِ التي يستطيع إذا لزِم الأمرُ أن يخرُجَ من القصر بواسطتِها من دون أن يعلم به أحد. ولم يكن يعلم أنّ تلك المعركة التي أطاح فيها بالملكِ السابقِ لم تكن إلّا رُخصةَ الدُّخول إلى الامتحان وليست الامتحان نفسه.

٧

بعد ثلاثةِ أيّامٍ من انتقال أسرة المَلك إلى القصر الجديدِ اتّجه شَيْخٌ قرويٌّ رثَّ الهيْئة إلى القصر المَلكيِّ وتحدّث مع الحُرّاس، وبعدها بقليلٍ استدعى أحد حرّاس القصر أحدَ الخدَم وأمره أن يذهَب إلى الطابق العُلويِّ فيُخطر أحد خدم الطابق العلويِّ أن يخطِرَ أحد خدمِ الجناح المَلَكيِّ بأن يخبرَ الملكَ أنّ ببابِ القصر رجُلاً مجنُوناً يَدَّعي أنَّه والده. ففعل الخادم الأول ذلك، وانتهى الخبر إلى مختارٍ الذي دُهِشَ وأمر بإدخال الرّجل في الحال. فاقتيدَ الرَّجُل إلى حيث قاعة الاستقبال بالجناح الملكيِّ وهو يتلفَّت مُندهِشاً طوالَ الوقتِ إلى أن أُجلِس على أريكةٍ وثيرةٍ أخذ يتحسَّس قماشَها الفاخرَ بتمَعُّنٍ شديد. وما إن دخل مختار عليه ورآه حتّى شعر بحرجٍ بالغٍ وقال له: "أبي! كيف تأتي إلى هُنا بهذه الملابس؟" فقال له أبوه: "ألن تسلِّم عليَّ قبل أن تلومَنِي يا بُنيّ؟" فتقدّم إليه مختار وعانَقه ثم جرّه معه إلى غرفة الملابس والوصيفاتُ ينظرْنَ إليه مندهشاتٍ، وأخذ يخلَعُ الملابِسَ عن والِده الذي استاء وكاد يضرِبه لمعاملتِه إيّاه كطفل، وقال بِغضبٍ بينما كان ابنه ينزِع ملابِسَه غير آبهٍ لمعارضته: "لم آتِ إليكَ لتغيير ملابسي!" فتوقَّف مختارٌ فجأةً ونظرَ إلى والدِه الّذي لم يبقَ على جسدِه الضئيل شيءٌ غير الملابسِ الداخليّة وسأل: "لماذا أتيتَ إذاً؟" فأجاب الشيخ: "جِئت أنقِل إلَيْكَ طلبَ كِبار رجالاتِ القريةِ

بالاهتمام بقريتِكَ التي وُلدتَ فيها ونسيتَها عندما أصبَحْت ملِكاً." فقال وهو يُلبِسُهُ قميصاً فاخِراً: "وماذا أيضاً؟" فقال الشيْخُ وهو يقاوم مختاراً: "يُريدونَك أن تقومَ بإصلاحاتٍ في القريةِ فالطرُقُ ما زالت محدودةً ووعرة... نُريدُك أن تَشُقَّ لنا طرُقاً جديدة." كان مختار قد نجحَ في إبقاءِ القميصِ على أبيهِ فقال له وهو يُلبِسهُ رداءً فَخماً: "وماذا أيضاً؟" فقال وهو يحاول خلْعهُ حتّى كاد أن يُمزِّقه: "يُريدونَك أن تبني هناك جُسوراً وتفتتحُ سوقاً تكفيهم مشقّةَ المجيءِ إلى هنا لقضاءِ حوائجهم." فألبس مختار أباه آخر مُستلزماتِ الأناقةِ ثم قال له وهو يتأمَّل ملابسه التي بدت فِضْفاضَةً على أبيه: "قل لهم إنّني سأفعل كلَّ ذلك." فقال الأب: "ها أنت قد استمعتَ إلى ما أُريدُ فدَعني أخلع هذه الثِّياب الآن." فقال مختار: "ولكنِّي لم ألبِسْكَ إيّاها لأستمع إليك." فقال الأبُ غاضباً: "لماذا ألبستني إيّاها إذاً؟" فقال مختار: "لأنّك والدُ المَلِك، ووالدُ الملك يجب أن يكون أنيقاً." ثم أكمل وهو يشير إلى ثياب والده على الأرض: "ولن أسمح لك أن تمشي في ردهاتِ القصر بين الخدَم وفي طرُقِ المدينة بهذه الثّيابِ الرّثة يا أبي." فغضب أبوه وحاول أن يخلع الملابسَ وهو يقول: "لن أرتدي إلّا ما أريد، هل فهمت؟" فقال له مختار: "انتظر يا أبي، أريدُك أن ترى زوجَتي وابني ولا أريد المَلكة أن تراك على تلك الهيئة، هل رأيت في حياتِك والد ملكٍ يرتدي هذه الثياب؟" فقال بانفعال: "ولكنّني لم أكن ملِكاً ولم أر ملِكاً في حياتي، ولم أكن أعلمُ أنَّ المُلوك أناسٌ عاديّون يأكلون ويشربون وينامون مثل باقي الناس إلا عندما سمِعت أنّك أصبحتَ ملِكاً، ولا يهمّني ما سيقوله الناس عني." فطوق مختارٌ أباه بذراعه قبل أن يحاول خلْع تلك الملابس مرّةً أخرى وأخذه إلى حيثُ زوجته فسلَّم عليها ورأى الطفل ثم اتّجه إلى الباب، ولكنْ قبل أن يخرج لفت نظره وِعاءٌ به فاكهةٌ فأمسك بعُنقودٍ كبيرٍ واقتطع منه جُزءاً صغيراً به سبْعُ حبّاتِ عنبٍ ووضعه في فمه دَفعةً واحدةً سقطت على إثرِها

عِنَبةٍ قبل أن تدخل في فمه وتدحرجت على الأرض، فطاردَها إلى أن وصلت إلى أسفلِ النافذة واختبأت تحت الستار الذي أزاحه ثم قبض على حبّةِ العنبِ بأصابع مشققةِ الأطرافِ ودسّها في فمه بعد أن سلّ منه هيكلَ العنقودِ وألقى به في وعاء الفاكهة. ثم خرج وهو يلوك العنب في فمِه الممتلىء يريد غرفة الملابس. ولكنّه لم يعرف طريقها فانتهز مختار الفرصة ورفض أن يخبره عن مكانها عندما سأله، فغضب الأب، وما كان منه إلّا أن أخذ يخلع الملابس التي ألبسه إياها ابنه ويكوِّمُها على الأرض في أحد الممرات ثم يمشي إلى الخارج بملابسه الداخلية. كان مختار يراقب أباه مُندهشاً بينما خرجت سلمى ورأت الشيخ على تلك الهيئة فأسرعت عائدةً إلى غرفتها خجلاً من الوصائف اللاتي رأيْنه في تلك الحالة. وأفاق مختار من دهشته قبل أن يصل والده إلى الدّرج فأسرع خلفه واستوقفه وقاده إلى غرفة الملابس وتركه يرتدي هَلاهِلَه التي جاء بها. وفيما هو يسير خارجاً من الممر بصحبة أحد الخدم خرجت سلمى ثانيةً ووقفت بجانب مختار الذي كان يُحدِّق في أبيه بدهشة، ثم التفت إليها وقال: **"لو لم يكن أبي لأمرتُ بقطع رقبته!"** فضحكت سلمى وأكمل زوجها كلامه قائلاً:

- لم أر في حياتي إنساناً في مثل عناد أبي!

- ولكنّني رأيت من هو في مثل عناده..

ثم نظرت في عيْنيْه وقالت: **"ولطالما تمنيت أن أعرف من أين أتاه العناد الذي يجعله يفعل كلَّ ما يريد، وأخيراً عرفت!"**

ثم أخذ مختار يفكِّر وسار حائراً إلى غرفته. وعندما دخلت عليه زوجته أخبرها أنّ أسرة أبيه يجب أن تكون أسرةً جديرةً بقُربِها من الملك، وأنّ عليه أن يزيد من راتبه ليتمكَّن من بناء قصرٍ لوالديه وإعطائِهما ما يحتاجانه من نقودٍ لإنفاقها على مظهرهما حتّى يعتادا الظهور بالشكل اللّائق والتصرّف

بالشكل اللائق بالتدريج من دون أن يشعرا أنّه يُملي عليهما إرادته، وبذلك يكون مُطمئِناً إلى عدم تسبُّبهما في إحراجه مستقبلاً.

وبعد أيامٍ من تلك الزيارة أمر مختار بوضع خطّة إصلاحاتٍ كبيرةٍ لقريته كما طلب منه والده، وحظى بحبِّ سكان تلك القرية. ولكنْ سَرت أخبار ذلك القرار إلى القرى الأخرى فأخذ الناس يتحدّثون عن بِرِّ الملك بقريته وإهماله ما سواها، فنُقلت إليه هذه الأخبار فأمر بتعميم خطّة الإصلاحات على كلّ القرى الأخرى. بالإضافة إلى ذلك رأى أن يُنعم بكرمٍ شديد على كبار العاملين معه من وزراءٍ ومستشارينَ وجنودٍ فأصدر أمراً إلى الخزينة بزيادة رواتبهم. وتوالت هذه الأوامر على أمين الخزينة في مدّةٍ محدودةٍ فاستاء من ذلك الإسراف الّذي قد يُفقر البلاد لكنّه كتم غيظه وصمت كيْلا يتعرَّض لغضب الملك.

وواصل مختار تفكيره فيما يستحقّ العاملون معه فأمر للمستشارين والوزراء ووالده بقصورٍ، كما أمر ببناء قصرٍ آخر لنفسه في منطقةٍ ساحليةٍ في مدينةٍ أخرى إكمالاً لرسم صورته المَلَكِيّة. فأجرى الأمين حساباته ووجد أنّ هذه النفقات ستُنهك خزينة الدولة وتعرِّض البلاد لما لا يُحمد عُقباه، فامتنع عن صرف النفقات وأصرَّ على مقابلة الملك قبل البتِّ في أيِّ شيء، وكانت المدينة تستعدُّ ليوم التنظيف ثم لموكب الملك.

***

لم يَشأ مختار أن يغيِّر بعض الطقوس الّتي اعتادتها البلاد مثل مسيرة موْكب المَلك، لذلك فقد ارتدى أبهى حُللِه وسار في الموكب. وكان حريصاً على ألّا يبدو أقلَّ بشاشةً من الملك السابق، فقلّده في الابتسامة الدائمة حتّى آلَمتهُ شفتاه، وفي رفع يُمناه تحيةً للجماهير طوال الموكب حتّى آلمته ذراعه.

وكان يُقوِّيه على الاستمرار الاستمتاع باهتمام تلك الجماهير التي تزاحمت لتراه. وكان ابتهاجه لا يوصف وهو يرى الجماهير تُحدِّق فيه بمحبةٍ واستمتاعٍ بمرآه، وكان مُعظم المتجمهرين من سكّان القرى الذين علموا بإنعامه عليها بالإصلاحات.

كان صالحٌ قد رفض أن يُغلِق دكّانه يوم الموكب كما أُمِر، فأمره الجنود أن يغلِق بابه عليه لكيْ لا يرى الملك مختار من يعمل يوم أوّل موكبٍ له، فأشعل صالح ومسعود مِصباحاً بعد أن حُظر عليهما ضوءُ الشمس وأخذا يعملان وقد اشتدَّ الحرُّ بسبب المَوْقد والمصباح. وبعد مدّةٍ فوجئا بأصوات مَعازِف صاخبةٍ تأتي من بعيدٍ أثارت فضول صالح، ففتح الباب وخطا بضع خطواتٍ خارج الدكّان وتبعه مسعود. ووقفا أمام الباب ينتظران مرور تلك الفرقة الضخمة القادمة من وسط السوق، ثم بدآ يُميِّزان الكلمات التي تخرج من أفواه المُغنِّين بحماسٍ شديدٍ وبصوتٍ قويٍّ كالرعد، فأخذا يستمعان إليهم وهم ينشدون:

اشدي يا بلابـل غنِّي يا أطيـار
تردَّدي يا أغاني شِيدي يا أشعار
بمليكِنا الأمين الملك مختار

فارتسم تعبير دهشةٍ على وجهه وهمس لمسعود: "هل هذا النشيد من أجل مختار؟" فابتسم مسعودٌ وهمس: "نعم يا سيدي.. إنّه نشيد الملك مختار كما سمعت." فابتسم صالح وواصل الاستماع إلى النشيد المُنغَّم:

وانحني يا بلاد للرجل الجبّـار
للمَلكِ الهُـمام قائد الأحـرار
للعاهل الكريم معمِّر الدّيـار

للملك الشجاع الملك مختــار

* * *

عِش يا مليكنا فارِساً مغـوار
وكلّنـــا فـداء لقائد الـثـوّار
لقائدنا الحكيم الـملـك مختار

* * *

تكـلّلت جــباهُنا بالنصر والأزهار
وعُمِّرت أوطاننا بالســادة الأخيار
وامتلأت سماؤنا بالخيْر والأمطار
في عهدِهِ الكريم عهد الملك مختار

* * *

اشدي يا بلابل .....

فابتسم صالح وهمس لمسعود: "هل يَعي هؤلاء ما يقولون؟" فأجاب مسعود: "أظنُّ أنهم يفهمون معنى هذه الكلمات يا سيدي." فقال صالح وهو يهزُّ رأسه عجباً وعلى شفتيْه ابتسامةً ساخرة: "لا أظنُّ أنَّ البلابل ستشدو للمِلِك مختار إلّا إذا فقدت أحلامَها الصغيرة!" ثم دخل دكّانه يتبعه مسعودٌ وأغلق الباب.

وما إن انتهى الموكب وعاد مختار إلى القصر حتّى دخل غرفته وأخذ يئِنُّ من ألم ذراعه اليُمنى فأُحضِرت له كمّادةً ثبَّتها عليها بذراعه بيده اليسرى، وجلس يتحدَّث إلى زوجته عن الموكب، فإذا بإحدى الوصائف تطرق الباب لتُخبِره أنّ أمين الخزينة يطلب إليه أن يأذن له بالدخول لأمرٍ

شديد الأهمية. فأذن له ثم ذهب يقابله في قاعةٍ مُخصصةٍ لاجتماعاته التي يُجريها في المنزل مع مستشاريه، فوجده جالساً يقْرِض أظفاره من القلق الذي بدا واضحاً على وجهه وأمامُه رُزمةٌ من الأوراق. وما إن رأى الملك حتّى نهض بأدبٍ جمٍ وحيّاه ثم تحدّث معه في تلك النفقات، وأكَّد له أنَّ الشروع في تنفيذ تلك المشاريع يُعرِّض الخزينة إلى عجزٍ شديد. فنظر إليه الملك نظرة لوْمٍ وقال: "ألا ترى لما قررنا تنفيذه من مشاريعٍ أهميةً أيّها الأمين؟" فحاول الأمين ابتلاع ريقه ولكنَّه وجد فمه جافاً فتجاهل تلك الرغبة وقال: "إنّني يا سيّدي المَلك المعظَّم أُدرِك تماماً أهمية هذه المشاريع، وأهميّة أن يحظى كبار رجالات الدولة بما يليق بمثلهم، ولكنْ حَبَّذا لو أُجِّل هذا قليلاً حتّى تكتمل حسابات الخزينة." ثم أخذ يُطلِعه على حساباته واقترح عليه أن يُعلن عن اجتماعٍ طارىءٍ للمستشارين والوزراء للنظر في هذا الأمر، وإرجاء ما يُمكن إرجاءه من تلك المشاريع، ولكنَّ الملك صمَّم على تنفيذ كلِّ تلك المشاريع المُتعدِّدة دفعةً واحدةً، فاضطرب أمين الخزينة وزاد قلقه ورجا الملك أن يأمر باجتماعٍ سريعٍ ينظُر فيه في أمر زيادة الدخل لإنقاذ ماليّة الدولة، فقال له الملك: "بل سنُناقش ذلك في الاجتماع المقبل." فأجاب: "ولكن يا سيّدي الملك، هذه حالةٌ خطيرة! لم تمر بها الخزينة قبل اليوم." فقال الملك بحزمٍ وقد ظنَّ أنّ أمين الخزينة يُعرِّض بشيءٍ معيَّن: "بقيَ على موعد الاجتماع شهرٌ واحد، ألا تستطيع الانتظار!" فقال برنّةٍ مُحبَطة: "أستطيع يا سيّدي الملك المعظّم... ولكنَّ الخزينة يا سيِّدي الملك... الخزينة قد لا تستطيع." فقال له الملك: "وحتى الخزينة يجب أن ترضخَ لأوامر الملك! اصرف النفقات الخاصَّة بتلك المشاريع واترك لنا أمر تدبير زيادة دخل الخزينة." فهزَّ الأمين رأسه بالموافقة على مضض.

بعدها دخل الأمين إلى الخزينة يبدو عليه القلق والاضطراب وقال لمرؤوسه بنغمةٍ مُوَلْوِلة: "لقد ثُقبت الخزينة اليوم يا جُرَيْج." فتساءل جُريجٌ مُندهشاً:

- الخزينة ثُقبت؟ كيْف تُثقب تلك الجدران السميكة المُحاطة بالحرس من كل جهة؟

- إنّ ثُقبَها أخطر من ذلك يا جُريْج. إنّه ثُقبٌ لا يمكن إصلاحه.

- كيف؟ هل هذا لغزٌ أم مزاح؟

- وهل رأيْتَني مازِحاً قط يا جُريج؟

- لا والحقُّ يُقال، لم أرَك في حياتي إلا قَلِقاً.

- وأنا اليوم في أشدِّ حالات قلقِي. لقد أصرَّ الملك على إنفاق تلك الأموال على الإصلاح قبل أن يُسَدُّ عجْزُ الخزينة... وهذا يعني أنّ هذا قد يتكرَّر كثيراً في المستقبل، هل تعرف ما معنى هذا؟

- ثُقب في الخزينة؟

- بل كارثةٌ يا جُريج، كارثة!

ثم جلس يختِمُ أُذوناً بصرف مبالغ كبيرةٍ ذهبت إلى الجهات المطلوبة وشُرع في إصلاحات القرى وبناء قصور المستشارين والوزراء.

***

في الموعد المحدَّد عقَد الملك مختار اجتماعه الرسميِّ الأوَّل مذ تسلَّم الحكم مع مستشاريه. وكان المجلس يضمُّ أمين الخزينة بالإضافة إلى الملك وآدم وهيثم والمستشار سفيان. وفي الاجتماع ذكر المستشار سفيان أنَّ الشعب يترقَّب المُستشفيات والمرافِق الأخرى الّتي ينتظرها الناس مُذ وُضع مُخطّطها في عهد الملك السابق والتي تعهَّد الملك مختار بتنفيذها، فقال أمين الخزينة إنَّ

هذه الأشياء يجب تأجيلها لعجز الخزينة عن تسديد تكاليفها بعد بناء القصر الملكيِّ وإجراء تلك الإصلاحات في القرى، فقال مختار بعصبية: "وما العمل؟ كيف نبني المستشفيات والخزينة عاجزةٌ عن تسديد التكاليف؟" فقال المستشار سفيان: "فلنفرِض ضريبةً على الخبز يا سيّدي الملك المعظم." فثار مختار وقال: "هل تمازحني!" فقال المستشار مُتذلِّلاً:

- وهل أنا في مَقام سيّدي الملك كيْ أمازحه؟
- لماذا إذن قلت ذلك؟
- لأنَّ الخزينة بحاجةٍ إلى إنعاشٍ سريعٍ يا سيِّدي الملك المعظّم، ويجب أن نتصرّف.
- ولكنّك تعلم أنَّ الناس يكرهون ذلك وسيُسخطهم ذلك عليّ... أعني على مركز قيادة المؤامرة.
- ولماذا نهتمُّ بسخطهم يا سيِّدي الملك؟ فليسخطوا ما شاؤوا أن يفعلوا.

فقال هيثم: "ولكنَّ الخبزَ قوت الفقراء والأغنياء، أيْ أنّ فئةً عظيمةً من الشعب سيسوؤها ذلك، فلنختَرْ شيئاً يستطيع الفقراء الاستغناء عنه، أما الأغنياء فهم لا يُبالون أن يدفعوا." فقال مختار: "هذه فكرةٌ جيّدة، فلنفرِض ضريبةً على العِنَب صيْفاً والبرتقالِ شتاءً." ووافق الحضور بينما كان أمين الخزينة يُتابع جميع المتحدِّثين بنظراته القلقة الّتي ظلّت على قلقِها من بداية الاجتماع إلى نهايته لعلْمه بعدم جدوى الحلول المطروحة.

***

وجاء موعد الاجتماع السنويِّ الثاني ولم تجتمع الأموال الكافية لبناء المُستشفيات. واجتمع الملك بمستشاريه بمركز القيادة حيث اصطفّوا في

مواقِعهم المعتادة حول المنضدة ولم يكن أمين الخزينة معهم لإصابته بوعكةٍ صحيّةٍ نتيجةً لزيادة قلقه. نظر المَلك إلى أوراقٍ أمامه أرسلها أمين الخزينة ثم هزَّ رأسه مُتضايقاً وقال: "ما زالت الخزينة تعاني من العجز... هل من اقتراحات؟" فقال هيْثم: "فلنُخفض رواتب الجنود. إنَّهم يتقاضون ثلاثة أضعاف ما كانوا يتقاضونه منذ عامين." فقال مختار: "الجنود؟ مستحيل! هل نسِيتم ما فعل خفض رواتب الجنود؟" فقال آدم: "ماذا نفعل إذاً؟" فقال المستشار سفيان: "نُخفض رواتب عمّال التنظيف." فهزَّ الملك رأسه مُؤيِّداً ثم نظر ثانيةً إلى أوراقه يتفحَّص ما فيها وبعد قليلٍ رفع رأسه ثانيةً وقال: "أظنُّ أنّنا يجب أن نُسرِّح بعضَهم أيضاً، لدينا الكثير من عمّال التنظيف ونستطيع الاكتفاء بثلثيهم." فابتسم المستشار سفيان ابتسامةً مُشرِقةً وقال: "ما هذه الأفكار النيِّرة يا سيِّدي الملك المعظَّم!" وتنهَّد هيْثم بضيقٍ ثم قال: "لا، لا أيها الملك! إنِّهم بحاجةٍ إلى العمل." فقال مختار وهو يقلِّب الأوراق بين يديه: "لا تخشَ عليهم يا هيثم، سنوفِّر لهم أعمالاً أُخرى عندما يُسدُّ عجز الخزينة. فلننتقل إلى مسألةٍ أخرى." فقال آدم: "المستشفيات، متى سنبني المستشفيات؟ لقد طال انتظار الناس لها حتى أنّهم بدأوا يتذمّرون." فتحدَّث مختار بحزمٍ عن ضرورة الإسراع في حلِّ تلك المشكلة وأخذ يتلفَّتُ حوْله فلم يرَ إلا وُجوهاً حائرةً فصاح بعصبيةٍ: "ماذا نفعل؟" فقال المستشار: "نُعلن أنّنا أوْفدْنا مجموعاتٍ من طلّاب الطّب لدراسة الطَب على أيدي أطباءٍ حاذقِين في أعرقِ البلاد بالطّب، ونعتذر بأنَّنا ننتظر عودتَهم قبل بناء المستشفيات، ولن يتوقَّع الناس عودتهم قبل عامين أو أكثر." أشاح هيثم بوجهه مُشمئِزاً من أساليب المستشار سفيان، أما مختار فقد بدا عليه استحسان الفكرة إلّا أنّه لم يكن في ذلك حلُّ كلِّ شيء، لذلك نظر إلى وجوه الحضور واحداً واحداً ثم قال: "ولكنّنا يجب أن نوفِّر مبالغ أكثر!" فقال المستشار: "الحلُّ بسيط يا سيّدي

الملك المعظّم؛ ضرائب على كلِّ الفواكه وكلِّ الخضروات!" فقال آدم: "ولكنّنا لاحظنا أنّ الناس يمتنِعون عن شراء الأطعمة التي عليها ضرائب ويكتفون بغيرها." فقال مختار: "ولكن الزيادة الضريبيّة ضئيلةٌ جداً لا تتعدى ربع ثمن الشيء." فأكمل آدم: "ومع ذلك فالناس يقلّلون من استهلاكها." تنهَّد الملك وقال: "لقد حاولت أن أمنع ضريبة الخبز ما استطعت ولكنْ يبدو أنّه لا مفرّ منها".

وهكذا فُرضت ضريبةٌ على الخبز وعلى كلِّ الأطعمة. وذهب مختار إلى قصره وهو يحاول تخيُّل ما ستفعله ضريبة الخبز في الناس، فاستقبلته إحدى الوصائف وهنّأته بمولد طفلته الجديدة، فنسيَ الناس والخبز وأسرع إلى الجناح الملكي يطلُّ في مهد ابنته الصغيرة الأميرة ليلى التي وُلدت مع ضريبة الخبز في يومٍ واحد. وقُرب المساء كان يتحدّث عنها من وراء القُضبان إلى عمرو الذي كان ما يزال مستاءً منه وغير قادرٍ على النظر إليه.

ولم يكن عمرو هو المستاء الوحيد، ففي خارج السجن من هو أشدُّ منه غضباً؛ صالح الحدّاد الذي تزيد كلُّ سنةٍ من أساه وغضبه على مختار إذ لم يكن يستطيع قبول سجن ابنه أو حتّى استيعابه، وإنْ كانت تُشغله بعض الأحداث بين فترةٍ وأخرى عن غضبه العارم مثل زواج أُمامة الذي أسعده كثيراً. ولكنْ بعد أن أصبح وحيداً في بيته زاد شعوره بالرفض بسبب تفرُّغه له بعد أن قلّت مسؤولياته بزواج ابنته. وكدأب كلِّ السنوات، مضت تلك السنة بحُلوِها ومرِّها.

وما إن أقبل موعد اجتماع مركز قيادة المؤامرة السنوِّي الرابع حتى انتابته نوبة الإكتئاب والرفض التي تنتابه كلُّ عامٍ وهو يرى السنوات تمرُّ فلا تُزحْزِحُ ابنه قيْد أُنمُلةٍ خارج السجن. فقضى يوم الاجتماع في المنزل ثم

تحامَل على نفسه وخرج إلى دكّانه في اليوم التالي وباشر عمله. وبعد قليلٍ أرسل مسعوداً لشراء مسامير فجاءه بعد مدّةٍ بثلاثة أرباع الكمّية التي طلبها، فنظر إليها صالح وقال لمسعود:

- ولكنّي أحتاج إلى مسامير أكثر، لماذا قلّلت الكميّة؟

- لم أقلّلها بإرادتي يا سيّدي ولكنَّ المسامير زاد ثمنها، لقد فرضت عليها ضريبة.

فألقاها صالحٌ أرضاً بقوةٍ فانتثرت أمامه دفعةً واحدةً على أرض دكّانه وهو يقول: "حتى المسامير يا مختار! لقد توقّعت أن يرتفع سعر شيءٍ بعد اجتماع مركز المؤامرة السنوّي." فقال له مسعودٌ بحذر: "ليس شيئاً واحداً يا سيّدي..." فالتفت إليه صالح باهتمامٍ فأكمل مسعود بصوتٍ منخفض:

- بل كلّ شيء...

- ماذا؟

- كلّ شيءٍ يا سيّدي، لقد فُرضت ضرائب على كلِّ ما يُباع ويستهلَك.

- أين تذهب كلُّ هذه النقود التي يسرقونها من أفواه المساكين، أين تذهب؟

- لا أعلم يا سيّدي، لا أعلم!

تنهَّد صالح بضيقٍ شديدٍ واتّكأَ على السِندان وهو يفكِّر ويهزُّ رأسه يميناً وشِمالاً بين الحين والحين، وظهرت في عيْنيْه نظرةُ رفْضٍ غريبٍ بينما انسلّ مسعود من أمامه وأخذ يجمع المسامير المنتشرة في كلّ مكان.

***

في بيت نعمان التاجر أنهَت هندُ عملَها في مخزن العُطور في إحدى الأمسيات ثم خرجت. وفيما كانت تغلق الباب استدارت بسرعةٍ عندما سمعت

صوت والدها يناديها من بعيدٍ فمشت إليه فاستقبلها بابتسامةٍ واسعةٍ وأحاط كتِفَيْها بذراعه وهو يقول: "سأضطر إلى العمل وحدي قريباً يا ابنتي ولكنَّ عزائي أنّك ستتزوَّجين رجلاً ممتازاً." قطَّبت هند حاجبيها لعِلمِها بمقاييس والدها للرجل الممتاز، فبيْن الفيْنة والفيْنة كان يأتي مُصطحباً أحد أولئك الخاطبين من دون أن ينظر إلى أعمارِهم أو أخلاقِهم أو أيِّ شيءٍ آخر، فيكون لها رأيٌ مُخالِفٌ تكون نتيجته غضبِه عليها الذي يذهب بعد يومٍ أو يومَيْن لتعود إلى عملها أمام زجاجات العطر. عرف والدها أنّها توقَّعت خاطِباً لا يُرضيها فقال على الفور: "هذا الرجل مختلفٌ يا هند، إنّه ابن أكبر التجّار في المنطقة، وهو وسيم الشكْل حسَنُ الأخلاق، وهو يبحث عن فتاةٍ طيِّبةٍ تعرف القراءة والكتابة..."

- وتُجيد الحساب ومزج العطور؟

- لا، إنّه لا يريد لزوجته أن تعمل معه فلديْه ولدى أبيه ما يكفي من العمّال، إنّه يريد زوجةً فقط... سيأتي غداً وسترَيْنه وتتحدثين معه، وحتماً ستجدين أنّه أفضل مَن جاءنا خاطِباً، وعندما ترَيْنه لن تستطيعي رفضه.

وفي اليوم التالي استدعى نعمان ابنته بعد أن ضَيَّف الخاطب. وما إن رأته حتّى أدركت أنّها حقاً لا تستطيع أن ترفضه وإنْ داخَلَها شعورٌ غريبٌ عندما قال إنّه سيسافر إلى بلادٍ متعدِّدةٍ من أجل التجارة، وسيؤجلُّ الزواج إلى أن يعود من السفر بعد عام. وامتعضت الأمُّ أيضاً وهمّت بالمُعارضة ولكنَّ الأب أرسل إليها نظرةً حازمةً محذِّرة، ثم قال له باحترامٍ إنَّ ذلك لا يهمّ وإنَّ بوسع ابنته أن تنتظر إلى تلك المدّة. ولم تستطع هند أن تعارض أباها لأنّها هي نفسها كانت حائرةً لا تدري ما تُقرّر. لقد كانت في السنين الخوالي تُقاوم والدها عندما كان يأتيها خاطبٌ يرتضيه ولا ترضى به بتذكيره بكلمته التي علَّمها إياها في مستهلِّ عهدِها بمساعدته؛ "إنَّ العطور الجيّدة لا تُصنع إلا

بمزج مركباتٍ مُتجانسة." وتقنعُه أنَّ زواجها لن يكون موفَّقاً إلّا إذا شعرت بذلك التجانس مع من يأتي لخطبتِها، أما في تلك المرّة فقد اختفت تلك الكلمة من ذهنِها، لم تَحضُرها أبداً لأنّها لم تر ما يوحي بعدم التجانس، وإن كانت لم تر ما يوحي به أيضاً، لذلك فقد قبلت الأمر وظلّت حائرة.

***

وبدأ تأثير قرارات الملك مختار التي وضعها لتحسين مدخول البلد يَظهر في أوضح صوره. وعلم الناس بأمر تسريح ثلث عمّال التنظيف. وبعد أن كانوا يتذمَّرون من إهمال عمّال التنظيف ويطالبون بالمحافظة على نظافة المدينة قبل أن يعلموا بذلك القرار، ألِفوا رؤية الطرق المهمَلة شيئاً فشيئاً، وإنْ ظلَّ أكثرهم كارهين لرؤية المتسكِّعين الذين أصبحوا يُروْن بكَثرةٍ في الطرقات والأسواق. وكان الجميع يترقَّبون عودة الأطبّاء المزعومة بعد أن كان قد انقضى عامان على إيفادهم المزعوم ولكنْ لم يعد أحد.

ومضى العام واحتفل نعمان وزينب بزواج هند بابن التاجر الذي عاد بعد تلك الغيْبة ليترك نعمان وزوجته وحيدين يفتقِدان أشياء كثيرة غادرت البيت مع ابنتهما.

وجاء موعد الاجتماع الخامس واصطف الملك ومستشاروه في غرفة الاجتماعات بمركز قيادة المؤامرة العليا ولم يجرؤ أحدٌ منهم على لوْم الملك على إسرافه وتبذيرِه وترك الخزينة عاجزةً عن الإنفاق على مرافق كبيرةٍ كالمستشفيات، فما كان من المستشار سفيان إلّا أن اقترح قطع جِرايات العجَزة والأرامِل فنكس هيثم رأسه خِزْياً بينما أخذ المستشار يكتب صيغة القرار. وبعد أن خرج الملك والمستشار بقيَ هيثم وآدم وحدهما. نظر هيثم إلى آدم وقال:

- هل ترانا فعلنا الصواب يا آدم؟
- وما دخْلنا نحن، أنت تعلم أنّه لا يهمّه رأينا بتاتاً، لا يهمّه إلا رأي المستشار سفيان.
- لم أعنِ ذلك، عنيْت المؤامرة.

فنهض آدم وهو يقول:

- لماذا لا تستطيع أن تنسى؟ ألا تعلم أنّ لدينا هُموماً أكبر.
- ما هي؟
- المستشار سفيان مثلاً، كيف نتخلَّص من سيطرته؟

نهض هيثم واتّجه إلى الباب وهو يقول: "ليْت المشكلة انحصرت في المستشار سفيان." فنظر إليه آدم متسائلاً ولكنَّ هيْثماً لم يُجب نظراتِه المتسائلة، بل فتح الباب وهزَّ رأسه وهو يقول: "لا فائدة... لا فائدة يا آدم." ثم خرج، وخرج خلفه آدم وهو يشعر أنَّ سُدوداً عاليةً أقيمت بينه وبين أصدقائه واحداً واحداً كان أسهلُها هو سدُّ الموت الذي أقيم بينه وبين دُريد.

***

في الأيام التالية ألقى مختار خطبةً كتبها المستشار سفيان في فضْل صلة الرّحم والتآزر وتقديم المعونة لمن يحتاجها من كبار السنِّ في العائلة، ثم فرض قانون إيواء الأُسر لآبائهم وأمهاتهم وأقاربِهم من المسنين وفرض غرامةً على من يُخالف ذلك، وبعدها بمدةٍ أُعلِن عن قطع الجرايات عن أصحابها. واضطر كثيرٌ من المسنّين إلى اللجوء إلى أبنائهم بعد أن كان يُسعدهم الشعور بأنّهم ليسوا عالةً عليهم. أمّا من لم يكن لديهم أبناء يمكنهم استضافتهم فقد حاولوا الاحتجاج في مركز قيادة المؤامرة العُليا غير أنَّ

الحرّاس نظروا إليهم بتعالٍ وملل ولم يدخلوهم، فخرجوا مهمومين يفكّرون كيف يحصلون على قوتِهم غداً.

وفي بيت السمّاك القديم جلست هاجر مهمومةً تشكو إلى صديقتِها قسوة القرار ثم قالت: "لو لم يقتُل أمّي البرد ذلك العام لقتلها انقطاع الجرايات." فأيّدتها صديقتها قائلةً: "نعم، فالجوع يقتل أيضاً، إلا إذا عمِلنا... وبما أنّنا أشرفنا على السبعين، فالعمل أيضاً سيقتلنا." فابتسمت هاجر وأضافت: "هذا إذا وجدنا عملاً!" ثم أخذتا تفكّران في وسيلةٍ تجلِبان بها ما يكفيهما من المال.

وبعدها بأشهرٍ انتشر كثيرٌ من أصحاب الجرايات المقطوعة في الطُرق والأسواق وجلسوا يستجْدون الناس فتغيَّر منظر طرُقات السديمة بعد أن زاد فيها المستجدُون بشكلٍ لافتٍ للنظر.

وفي نهاية ذلك العام تركت هند بيتها الجديد وذهبت إلى بيت أبيها إذ سافر زوجها مرَّةً أخرى بعد سنةٍ من زواجهما ليواصل رحلاته التجارية ويجوب بلاداً كثيرةً رفض أن يصطحب هند معه إليها لمشقَّة السفر عليها كما أخبرها، ولكنّه وعد بالعودة قبل انقضاء العام. وفرح والدا هند بعودتها ولكنّها لم تكن هند القديمة. كانت تبدو مهمومةً وكانت ينتابها شعورٌ حائر. وعندما وجدت نفسها أمام حسابات البضائع وزجاجات العطر في مخزن أبيها غير قادرةٍ على إيلامه برفض مُساعدته شعرت بالحُنْق على زوجها.

وفي العام السادس فرح مختار بأخبار زيادةٍ طفيفةٍ في الخزينة، ولكنَّ أمين الخزينة أنبأه أنَّ تلك الأموال ينبغي توفيرها عامين أو ثلاثة لتكتمِل بها تكاليف بناء المستشفيات دون أن تتخلْخل الخزينة وتفقد توازُنَها مرّةً أخرى، فاستاء من ذلك وسأل مستشاريه في اجتماعهم التالي: "ألا توجد وسيلةٌ أخرى لجمع أموالٍ أكثر تمكِّنُنا من بناء المستشفيات في موعدٍ أقرب؟" فأطرق

المستشارون يفكّرون واستعرض هيثم في مخيّلته حلولاً مختلفةً ثم تذكَّر عَمْراً القابع في سجنه لعامه السادس فقال فجأةً وهو يأمَل أن يُطلَق سراحه: "إنَّ السجون ملأى بالمساجين، خاصةً بعد أن أضيف إليهم الجنود المُوالين للملك السابق، وكلّهم بحاجةٍ إلى طعامٍ ثلاث مراتٍ يومياً وزيتٍ لمصابيحهم ومياهٍ وأشياء كثيرة، وذلك يُرهِق الخزينة، فلماذا لا نُطلِق سراح من خفَّ جُرمُه منهم." فقال مختار بسرور: "حلٌّ رائع! فلنُبق أتباع الملك السابق لخطرِهم على الأمن ولنطلق ما عداهم من السجناء." فسأل هيثم بقلق: "وعمرو؟" فقال مختار بهدوء: "إنَّ عَمْراً أخطرُهم يا هيثم، لأنّه سيصبح مُعلِّماً، ولا نستطيع أن نطلق سراح معلّمٍ له آراء مضادَّةٍ لنظام الحكم." فردَّ هيْثم وقد علا وجهه إحباطٌ شديد: "إذن إنس فكرةَ إطلاق المساجين لأنَّكم لن تُطلقوا إلا المجرمين الّذين سيكونون خطراً على البلاد." فأجاب المستشار قبل أن ينطق الملك: "لا تقلق بسبب ذلك أيّها المستشار هيثم، فنحن سنُعيد القبض عليْهم متى ما صدر منهم شيءٌ إجراميّ." فحاول هيثم استبعاد ذلك الحلّ ولكنَّ مختاراً أصرَّ على تنفيذ الفكرة، ثم قال لهم محذراً: "لا تنسوا أنّ هذا القرار سريٌّ للغاية، فالناس إذا علِموا بإطلاق سراح المساجين فإنَّهم سيُصابون بالهَلَع بلا مبرر." فوعد الجميع بكتمان السرِّ بينما أخذ المستشار سفيان يقرِض أظفاره بشكلٍ عصبيّ.

وفي المساء تنكَّر هيثم في شكل صالح الحدّاد وذهب لزيارة عمرو في السجن يشكو له همومه وقلقه الذي نتج عن اقتراحه الأخير، الذي كان يظنُّ أنّه سيُخلي به سبيل صديقه فلم يؤدِّ إلّا إلى التسبُّب في إطلاق سراح المجرمين الوشيك. قال هيثم بعد هُنيْهةٍ بعد أن أطلق زفرةً حَرّى:

- تخيّلْ بلادَنا والقتلة واللصوص يسرحون فيها ويمرحون.

- بئسَ القرار ذاك.

- كلُّ ذلك بسببه وبسبب من أحاط بهم نفسه... عاد لا يهمّهُ شيءٌ ما دام من يخاف على نفسه منهم بالسجن.
- لقد تغيَّر كثيراً، بدأت أشعر أنَّ ملامحه أصبحت شرِّيرة... اختفى كلُّ أثرٍ للطيبة منها.
- يبدو أنَّك مستاءٌ جداً منه.
- نعم، لأنّه تغيَّر كثيراً... أصبح يظنُّ أنّ الاختلاف معه في الرأي محاولةً للإطاحة به، ومن ثَمَّ فقد أصبح من الصعب أن تنصحه أو تُطلِعه على ما في داخلك. لم يعد صديقاً بل طاغيةً متعالٍ على كلِّ الآراء إلا...
- إلا ماذا؟
- إلا آراء المستشار سُفيان التي تصادف لديْه قبولاً غريباً مع ما فيها من خبثٍ وخداع.
- المستشار سفيان! لقد كرهته مُذ بدأ مختار يُخبرني عن مكره في قبو منزله، وأشْعُرُ أنّ المسألة ستنتهي يوماً بغدرِه بمختار نفسه.
- محتمل، ولكنْ من الغريب حقّاً أنَّ هذا المَسلَك هو المسلك الّذي يجعل لك حَظوةً عند الآخرين.
- ليس كل الآخرين، المخادعين فقط ومُحبِّي الطرق الملتوية.
- صدَقْت... لم أكن أظنُّ أبداً أنّ مختاراً من الممكن أن يُصبِحَ منهم عندما جاء إلى هنا أوَّل مرّة.

كان هيثم قابِضاً على قضيبَيْن من قضبان النافذة بيديْه المُتوتِّرتيْن وهو يتحدّث بينما أخذ عمرو ينظر إليْه مَليّاً. لاحظ علاماتٍ داكِنةٍ حوْل عيْنيْه وخطوطاً بدأت تتكوَّن مُبكراً على جبهته تتلاءم مع نظرتِه التي يَظهَر فيها شُرودٌ وعدم ارتياح، وشعر بالشفقة عليه إذ بدا له أنّه كان يتجرَّع الحياة كمستشارٍ لمختار تَجرُّعاً ولا يكاد يُسيغ طعمَها المرّ. كان يحلم بيومٍ يواجه فيه

مختاراً فيقذِف بالمنصب الإسميّ الذي قدمه إليه في وجهه مع القصر الذي ابتناه له، ويعود إلى مدينته ليعيش في سلامٍ مع أسرته الصغيرة التي يعشقُها، ولكنّه كان يخشى عواقب أيِّ خُطوةٍ يخطوها، ومن ثم فقد كان دائماً يؤجِّل تنفيذ حلمه ذاك حالما تقع عيْناه على مختارٍ وبقيّة أفراد قيادة المؤامرة.

***

أصبح المستشار يعاني من الاحتفاظ بسرِّ قرار إطلاق سراح المجرمين، فأخذ يفكِّر بعمقٍ في وسيلةٍ لإراحة نفسه، فإذا بزوجته تأتي مسرعةً لتكلِّمه في أمرٍ فتقع ويصطدم رأسُها بحافَّة السرير الحديدية، فنظر إليها فزعاً وناداها: "سُعدى، سُعدى... سُعدى!" فلم تُجب، فأدرك أنّه قد أُغمي عليها، فانتهز الفرصة وقال لها: "لقد أمر الملك بإطلاق سراح المساجين، وسيتمُّ ذلك قريباً جداً!" ثم ركض إلى الممرّ منادياً إحدى الخادمات وأمرها بالإسراع بإحضار إناءٍ به ماءٍ تناوَلَه بسرعةٍ من يدها ورشَّه على وجه سُعدى، فأفاقت وبدأت تشكو من الصداع.

بعدها بأيامٍ أُطلِق سراح جميع المساجين ما عدا من سماهم مختار البائديين، عمّرو وأتباع الملك السابق. وبدأ بعض اللصوص يستأنِفون ممارسة نشاطِهم القديم. وفي إحدى الليالي المظلمة مشى لصٌ في شارع السدر بحذرٍ وصمتٍ كالقِطط فسمع صوت ديكٍ يأتي من منزل هاجر. فتسلَّق جدار المنزل ثم نزل في فنائه والْتمَس مكان الدجاج، فرأى مجموعةً منه مُصطفةً على لوحِ خشبٍ فاصطاد دجاجةً بينما هرب باقي الدجاج مُحدِثاً ضوضاءَ جعلت الباب ينفتح وتخرج منه المرأة الضريرة التي سألت بحذر: "من هناك؟" فوقف اللص صامتاً يريدُها أن تطمئِن فتدخل، ولكنَّ الدجاجة أخذت تصيح في يده فخرجت هاجر ومعها امرأةٌ أخرى فرأيتاه فقالت له

هاجر: "ماذا تريد؟" فقال: "وهل ستترُكنَني أذهب إن أخبرتكن؟" فقالت: "نعم، لن نصرخ، ومن الواضح أنّنا لن نستطيع مطاردتك." فقال: "سمعت صوت ديكٍ فعلمت أنّ في هذا البيت دجاج فجئت آخذ دجاجة... لم أذق لحماً مُذ غادرت السجن." فسألته إن كان قد هرب من السجن فأخبرهن بقرار الإفراج عن المساجين، فشهقن جميعاً. وقبل أن تفتح هاجر فمها بكلِمةٍ قالت لها صديقتُها الضريرة: "لو لم يقتل أمّك البرد ذلك العام لقتلها الخوف الآن." فهزّت هاجر رأسَها مؤيِّدةً بينما ظلَّ اللص واقفاً بينهن حائراً، فقالت له إحداهن وقد لاحظت حيرته: "إذا أردت أن تسرق فدونك منازل الأثرياء، إسرق منها ما تشاء، أما نحن ففقراء من الأرامل والعجزة والأيتام الذين انقطعت عنهم الجرايات. اجتمعنا توفيراً لأجرة المسكن واتّخذنا هذه الدجاجات لنبيع بيضها ونتمكن من أكل وجبتين خفيفتين في اليوم." فأكملت أرملةٌ أخرى: "وبإيقاظك لنا أيقظت جوعَنا وليس في بيتنا طعام، ولن تبيض الدجاجات قبل الصباح." عندئذٍ رمى اللص الدجاجة ثم فتح خِرجه وقدَّم لهنَّ رغيفيْ خبزٍ وقال: "خذن هذا الخبز، لقد اشتريته اليوم." فقالت هاجر: "أعد خبزك إلى خرجك، فنحن لا نأكل خبزاً اشتُرِيَ بنقودٍ مسروقة." فقالت الأرملة الأخرى وهي تسحب الخبز من يده: "لا بأس في أن نأكل هذا الخبز، فقد دفعنا من الضرائِب ما يكفي لجعله حلالاً لنا." وأخذن يتقاسمن الخبز فانسلَّ اللص بهدوءٍ إلى الباب وخطا خارج المنزل، فتبعته هاجر وقالت له: "إذهب إلى قصر المستشار سُفيان، فبحوزتِه كلَّ شيءٍ... وهو ليس بأشرف منك." وقبل أن ينطق بحرفٍ انضمَّت إلى الأخريات محاوِلةً أن تحظى بقطعةٍ من الخبز. فأخذ يمشي في الطرقات المظلمة يلتمس منزِلاً آخر.

في تلك الأثناء اجتمع عددٌ من الشباب في قبوِ منزل المستشار سفيان القديم بشارع السدْر وأخذوا يستعرضون تاريخ حكم مختار من بداية تخطيطه

للمؤامرة وما ارتكب من أخطاء خلال حكمه. وكان لصالح ما يسعده في ذلك العام رغم ما حمل من مضايقاتٍ للبلاد، فقد وضعت أمامةُ مولودها الأوَّل الذي حمله بين ذراعيه في أسابيعه الأولى وابتسم من قلبه وهو يرى الطّفل ويشعر براحَتَيْه الناعِمتيْن على وجهه المكدود.

ومرّت الأيام على الناس في السديمة وانطلقت أخبارٌ عن سرِقاتٍ متعدّدةٍ، ثم أبُلغ الشرطة عن حوادث قتلٍ قليلةٍ في مناطق مختلفةٍ من البلاد. وفشا خبر إطلاق المساجين إلى أن علِم به كلُّ الناس فاستاؤوا وبدأوا يتذمرون.

قال هيثم لمختار في مركز قيادة المؤامرة:

- هذه حالةٌ لا يُسكت عليها، لقد حذَّرتكم من ذلك.
- ومن الذي اقترح الفكرة أساساً؟
- كنت أريد إطلاق سراح عمرو.
- لا عواطفَ في عملنا، ولا مكان لعمرو أو غيرِه في قراراتِنا! ما يهمُّ هو المصلحة العُليا، ما يهمُّ هو أن نحافظ على مبادىء المؤامرة الشريفة التي قصدنا بها مصلحة البلاد.

أشاح هيثم بوجهه عن المجموعة وهو يقول لمختار في سرّه: "ما أوقحك!"

***

كان الشباب المجتمعون في منزل المستشار سفيان السابق قد ألّبوا سراً عدداً من الجنود وضموهم إليهم، وأعدّوا عدّتهم للإطاحة بالملك مختار، وجاءت ليلة التنفيذ ففوجئوا بردعٍ قويٍّ قتل عدداً غير قليلٍ منهم أثناء العراك. وألقِيَ بمعظمهم في السجون وأعدم قادتهم، وأُغلق باب ذلك المنزل وصادَرته الحكومة. وأثَّر ذلك الحدث أكثر ما أثّر في اثنين؛ أمين الخزينة الذي أصابه امتلاء السجون مرّةً ثانيةً بإحباطٍ شديد، والملك مختار الذي أصيب بقلقٍ شديدٍ

إذ اعتبر تلك بداية القِلاقل القويَّة التي قد تُسقطه في أحد الأيام، فزاد من عدد الشرطة والحرس، ونشر عيوناً في كل منطقةٍ ثم مضى إلى عمرو يشكو له همومه ولا يتلقّى منه إلا الصمت وكأنّه مذنبٌ يعترف بذنوبه أمام كاهن، ثم غادره بهدوء.

بعد أن حدث الانقلاب الفاشل في أواخر العام السادس لحكم مختار أخذ مختار يلوم هيْثماً لوْماً شديداً في كلِّ مناسبةٍ على فكرة إطلاق المساجين، فاستاء منه للوْمه على شيءٍ صمَّم هو على تنفيذه بعد أن حاول أن يُثنيه عنه، في الوقت الذي تحظى فيه أفكار المستشار سفيان التي ألّبت الشعب عليْه بكلِّ قبول، ولا يُصيب المستشار أدنى لومٍ عليها، واصبحت الفجوة بين الصديقين تكبر مع كلِّ مناسبة.

وفي تلك الأيام اجتمع أصحاب الجِرايات المقطوعة الذين لم يكن لديهم أقارب يمكن اللجوء إليهم بعد أن زادت وطأة الفاقة عليهم فكتبوا شكوى إلى الملك وقَّعوها باسم: جماعة المُعدمين. واجتمع أقارب أصحاب الجِرايات المقطوعة – الذين اضطروا إلى استضافة العجزة والمحتاجين من أقاربهم ثم ضاقوا ذرعاً بعبء استضافتهم – فكتبوا شكوى إلى الملك وقّعوها باسم: جماعة المهمومين، على غرار جماعة المعدمين. ثم اجتمع اللصوص الذين أصيبوا بإحباطٍ عندما حاولوا استئناف ممارسة السرقة فلم يستطيعوا، ولم تُجر لهم جرايةٌ ولم يجدوا عملاً يتعيَّشون منه فكتبوا شكوى إلى الملك وقعوها باسم: جماعة الحائرين. ووصلت تلك الشكاوى الثلاث إلى المستشارين فرأى المستشار سُفيان أنّها أقلَّ من أن يطَّلعَ عليها الملك، ولكن هيثماً صمَّم على

ذلك. وعندما اجتمعوا بالملك وضعها هيْثم أمامه فقال المستشار سفيان: "أرى ألّا يُقلِق سيّدي الملك المعظم نفسه بقراءة تلك الرِّقاع." فقال هيثم: "بل يجب أن يفعل أيّها المستشار سفيان." فرد الملك محاولاً إرضاء الطرفين: "قل لي ما فيها يا هيثم." فقال هيثم: "إنّها شكاوى بسبب قطع الجرايات عن المسنّين والمستحقّين لها... واحدةٌ منهم شخصيّاً باسم جماعة المُعدمين، والثانية من أقارب بعضهم الذين ضاقوا ذرعاً باستضافتهم، باسم جماعة المهمومين، والثالثة من اللصوص الذين أطُلق سراحهم ولم تُوفَّر لهم نفقات أو أعمال، باسم جماعة الحائرين." فضحك الملك وضحك المستشار سفيان انتشاءً بضحك الملك بينما نظر آدم وهيثم إلى بعضِهما بعضاً في صمتٍ ثم نظرا إلى الملك الضاحك وقال هيثم: "ولكنْ لا بدَّ من عمل شيءٍ بهذا الخصوص، لماذا لا..." وهمَّ المستشار سفيان بالكلام فأشار الملك لهيْثم بالتوقّف عن الكلام قائلاً: "لنسمع ما سيقوله المستشار سُفيان يا هيثم، يبدو أنَّ لديْه حلّاً جيِّداً كعادته." فتنحنح المستشار سفيان نَحنحةً تشويقيّةً وقال: "أشكركم يا سيِّدي الملك المعظم، كنت أريد أن أقول إنّنا إذا استجبنا اليوم لمطالبهم فسنتلقّى غداً شكاوى باسم جماعة المُعذّبين ثم المطحونين ولن تنتهي الأسماء ولن تُحسم المسألة أبداً." فقال هيثم: "بل ستُحسم إذا لبَّيْنا مطالب أولئك المساكين." فقال الملك ضاحكاً: "أرأيْتَ يا هيثم، ها أنت قد أوجدت جماعةً جديدةً قبل أن نحلّ مشكلة الجماعات الأخرى." ثم ضحك ثانيةً وضحك لضحِكِه المستشار سفيان، فقال آدم وقد اتّخذت ملامحه جدِّية شديدة: "أحذِّرك يا مختار من مغبَّة تجاهُل حاجات الشعب.. لا تُغضب الناس عليك أيّها الملك." فقال المستشار سفيان: "ومن يتجرَّأ بالغضب على سيِّدنا المـ..." فقاطعه الملك هو هذه المرّة قائلاً: "قد لا يجترِئون ولكنْ يهمّني ألّا يتضايق الناس أو يتضرروا من القوانين التي نضعها لمصلحة البلاد العليا." فرد المستشار في خنوع: "تلك

نظرةٌ صائبةٌ يا سيِّدي الملك المعظم." فتجاهل الملك كلامه والتفت إلى آدم وسأله: "ماذا ترى يا آدم؟" فقال: "أرى أن نحاول إعادة الجِراية أو جزءٍ من قيمتها إلى كلٍّ مستحقٍّ لها بما في ذلك العاطلين عن العمل، وتشغيل اللصوص التائبين في أعمالٍ صغيرة." علم المستشار أن مختاراً قد اقتنع برأي آدم وساءه أن يأخذ الملك برأي هيثم وآدم مما يعني فقدانه لجزءٍ من ثقته التي كان يُريدها أن تكون خالصةً له دون باقي المستشارين، فطرأت عليه فكرةٌ كان ضامِناً لنجاحِها فتنحنَح نَحنَحةً تشويقيةً أخرى لجذب الانتباه وقال: "إذا سمح لي سيِّدي الملك المعظَّم بالكلام فإنّي أحبُّ أن أقول: قبل كلِّ شيءٍ لا بدَّ أن نرى قدرة الخزينة على توفير هذه المبالغ، وأقترح استدعاء أمين الخزينة من أجل ذلك، فلن يُعلمنا أحدٌ بأحوالها غيره." فوافق الجميع.

وفي اليوم التالي استُدعِيَ أمين الخزينة وسُئل أمام الجميع عن إمكان صرف تلك المبالغ فأخبرهم أنّ تلك المبالغ لن تغطّى من عائدات الأموال سريعاً وأنّه يجب الانتظار أشهراً قبل صرفها باطمئنان، فقال هيثم: "ولكنّ هذه الأموال يجب أن تُصرف على أولئك المحتاجين المستحقِّين لها." فقال أمين الخزينة: "أما والحالة هذه فلا بدَّ من حسم المبالغ التي يستحقّونها من مرتّبات أصحاب المرتبات الكبيرة مثل الجنود." فردَّ مختار في الحال قائلاً بشكلٍ هجوميّ: "ابتعد عن الجنود باقتراحاتك!" ثم شعر بالحرج فقال مبرِّراً: "إنّهم... إنّهم حُماة الوطن، ويستحقّون كلّ ما يأخذونه." فتراجع الأمين من أمام الملك وقال: "لقد كان اقتراحاً ليس إلّا أيّها الملك المعظم". فقال هيثم: "هل لديك اقتراحٌ آخر؟" فهزَّ رأسه نفياً، فقال المستشار سفيان: "أخبِرنا بكلمةٍ واحدة، هل تحتَمِل الخزينة النفقات الّتي ستُنفقها على الجِرايات والرواتب الجديدة؟" فقال على الفور: "لن تكون الخزينة مستعدةً لذلك قبل..." فقاطعه المستشار قائلاً: "في كلمةٍ واحدةٍ أيّها الأمين، نعم أو لا!" فقال الأمين: "الآن؟

لا." فقال المستشار وهو يحاول إخفاء فرحته بتلك الإجابة التي أعادت زِمام الأمور إلى يده: "أرى أنّ هذا يحسِم الأمر في مسألة تلك الشكاوى، فماذا ترَوْن يا سيِّدي الملك المعظم؟" فحاول هيثم أن يقدِّم اقتراحاً جديداً إلّا أنّ الملك قاطعه قائلاً:

- لقد انتهى الأمر يا هيثم. لن يُصرف لهم شيئاً قبل مدّةٍ لا نعلم طولها بالتحديد الآن.

- ونتجاهلهم يا مختار؟

- مُؤقَّتاً يا هيْثم.

وانتهى الاجتماع وخرج هيْثم ساخطاً على مختار ومستشاره الأثير ومُشفِقاً على تلك الجماعات التي علِم أنَّ ذِكرها لن يرِد في الديوان ثانيةً.

عندما خرج الجميع خلا المستشار سُفيان بالملك وقال له: "أرأيْتُم يا سيّدي الملك المعظّم كيْف أنقذنا الخزينة من تلك النفقات باستدعاء أمينِها؟" فابتسم الملك قائلاً: "نعم، لطالما عجبت لأمر هذا الرجل الذي لن يأتي من يهتمّ بالخزينة أكثر منه... إنّه رجلٌ شديد الأمانة والإخلاص." فشعر المُستشار بالضيق لأنّه كان يريد لفت نظر الملك لخدماته هُوَ فتحوَّل نظره إلى خدمات أمين الخزينة، فسرح يُفكِّر كيف يحوِّل نظر الملك إليه فإذا به يسمعه يقول: "إنّه يستحقُّ المكافأة، ألا ترى ذلك أيّها المستشار سفيان." فلم يملك سفيان إلّا أن يقول: "بلى، إنّه يستحقُّ المكافأة حقّاً أيّها الملك المعظّم."

وفي اليوم التالي استدعى المِلك الأمين الّذي مثل أمامه بأدبٍ في قاعة الاجتماعات بالقصر الملكيِّ ينتظر ما سيهبِط على رأسه من مصائِب ملكيّةٍ، ولكنَّ الملك طمأنه بابتسامةٍ ودودةٍ وقال له:

- إنّك من رُعاة دولتنا الأمناء.

- أشكركم يا سيدي الملك المعظم.

قالها ثم انتظر ما يأتي خلفها بقلقٍ، فتَنَحْنَح الملك وابتسم ثانيةً ثم قال: "لذلك، فقد ارتأينا أن نكافِئك أيّها الأمين". أخذ قلب الأمين يدُقّ ورفع رأسه إلى الملك وقال:

- أشكر لكم كرمَكم يا سيّدي الملك المعظم.

- ... لذلك نأمرك أن تصرف لنفسك مائة ألف دينارٍ من الخزينة.

ازدادت سرعة خَفَقان قلب الأمين وظهر الهَلع على وجهه وقال:

- أشكر لسيّدي الملك المعظّم كرمه... ولكنّي... إنْ أذن لي سيّدي الملك.. المعظّم، أعتذِر عن صرف هذا المبلغ لنفسي منعاً لزيادة عجْز الخزينة... إنّها بحاجةٍ إلى كلِّ درهمٍ فيها يا سيّدي الملك...

ظهر الاستياء الشديد على وجه الملك وقال:

- هل تردّ هِبَتي أيّها الأَمين؟

- لا، لا يا سيِّدي الملك المعظَّم، ولكنَّ الخزينة...

- لا شأن لك بالخزينة!

- أتوسَّل إلَيْكم أن تُعفونَني يا سيِّدي الملك من قبول هذه المكافأة.

- هل ستأخذ المكافأة أم تُعلن حَرْباً بيني وبينك؟

ارتعدت فرائِص الأمين عندما سمع ردّ الملك الذي حمله صوتٌ ظهرت فيه بوادر غضبٍ ملكيٍّ فقال بتردّد: "بل... آ..." وتوقَّف عن الكلام مُضطراً وحاول ابتلاع ريقه ثم أخرج مِنديلاً هائلَ الحجم من جيْبه ومسح به وجهَه ثم أكمل: "... خُذُها... يا سيّدي الملك المعظّم." فتنفَّس الملك الصعداء وأمر أحد حجبَته أن يذهب مع الأمين إلى الخزينة ويُشرف على استلامه المكافأة بنفسه. فخرج الأمين من القصر وبكى في الطريق إلى أن وصلا إلى الخزينة.

وهناك أخذ الأمين يستخرج المال من إحدى الخزائن ويعُدّه وهو يهزُّ رأسه ضيقاً بين الفينة والفينة، ثم قال لحاجب الملك: "ها قد رأيتني آخذ المال أمامك وأمام زميلي فأرجو أن تخبر الملك بذلك." فنظر إليه الحاجب نظرةً متشكِّكةً ثم أخذ النقود منه وأخذ يُحصيها بنفسه بينما أخرج الأمين منديله الكبير ثانيةً وأخذ يمسح به وجهه. وبعد قليلٍ ألقاها الحاجب في حِجر الأمين وهو يقول: "غِشّ! استغلال! كيْف تخون ثِقة الملك المعظّم، وتستغلّ طيبته؟" فمسح الأمين رقبته بالمنديل بينما نظر مساعده إلى الحاجب مُتسائلاً فقال الحاجب وعلى وجهه نظرةٌ ساخطةٌ موجَّهةٌ إلى أمين الخزينة:

- لقد أمرك الملك المعظّم أن تأخذ مائة ألفٍ فكيْف تأخذ سبعينَ ألفاً؟

- هل... هل أخذت سبعين ألفاً فقط؟ كيف حدث هذا الخطأ؟

فتجاهله الحاجب ونظر إلى مساعدِه وأمره أن يُقدِّم له الثلاثين ألفاً الأخرى ففعل، فأخذها الأمين وهو يرجو الحاجِب ألّا يخبر الملك بذلك.

وفي اللّيل تسلل الأمين إلى الخزينة وفتح إحدى خزائنها ولكنَّ مساعده جُريْج المتربِّص به دخل فجأةً ورآه مُتلبّساً بمحاولة إعادة ذلك المبلغ إليها، فرشاه الأمين بمبلغٍ من المال ليسمح له بإعادة المكافأة فوافق، فوضع المبلغ في الخزانة ثم تسلّل خارجاً منها بخطواتٍ قلقة.

في أحد الأيّام دخل نعمان البيت يظهر عليه الحَرج، ثم قال لابنته وزوجته أنّ زوج هند أرسل كتاباً يعتذر فيه عن العودة في ذلك العام لانشغاله بكثيرٍ من الأمور ويؤجِّل العودة إلى العام المقبل، فثارت الأم وأخذت تلوم زوجها على قبول تلك الزيجة رغم رفضها لها، فحاول تهدئتها قائلاً إنّ ذلك العام سيمضي كما مضى العام السابق، وإنّ تلك المضايقات تساوي ما لزوجها من شأنٍ وما سيعود عليها الزواج به من مكاسب. وأخذا يتجادلان

طويلاً واكتفت هند بأن تلتفِت إلى من يتناول الحديث منهما وتحاول تفهّم حجّته حتى ملّت فقامت من بينهما بهدوءٍ فتبعتها والدتها، ثم أخذت تحاول التسرية عنها بإخبارها أنّ والدها كان يفعل ذلك في شبابه ولم يستقِّر إلا بعد إنجابها بسنواتٍ وبعد أن استغنى عن السفر للتسوّق، ولكنّها ظلّت صامتةً تبدو عليها الحيرة.

***

بمرور الأيّام زاد استياء هيْثم من مختار وأصبح يجِدُ في نفسه نُفوراً منه لم يكن ليخفى على الملك الذي بدأ يكنُّ له هو الآخر نفوراً يباركه المستشار سفيان سراً ويحاول إذكاءه كما تُذكى النار. وشيئاً فشيئاً زادت العلاقة بين مختار وهيثم تدهْوُراً وأخذ شعور مختار بميول هيثم المعاكسة لميوله يزداد وضوحاً لديْه حتى أصبح حائراً في أمره، يَشقُّ عليه استبعاده تماماً من مركز قيادة المؤامرة كما يحاول المستشار سفيان أن يوعِز له، ويَشقُّ عليه وضعه في السجن مع عمرو. وفي الوقت نفسه ضاق ذرعاً بما كان وزراؤه ومستشاروه ينقلون إليه من تذمِّر الشعب من عجز الحكومة عن حمايته من اللصوص والمجرمين والمتسكّعين، فتنكر في شكل أبي عمرو وذهب إلى السجن. وهناك أخذ يشكو لعمرو همومه الكثيرة وحيرته من أمره وموقفه الغامض من هيثم. وكان عمرو يستمع إليه دون أن يتفوَّه بكلمةٍ إذ كان حانقاً عليه لاستمراره في حبسه، وللجوئه إلى تلك الأساليب المُلتوية في إدارة شؤون البلاد. وكان مختار يعلم بموقف عمرو منه ويعذِره أنْ حنَق عليه، ولكنّه يعلم أنّه يستمع إليه، وكان يُريحه أن يعلمَ عمرو ما يشعر به، وأن يستمع إليه وإن كان يحرِمُه الإجابة. وفي نهاية حديثه قال قبل أن يذهب: "إنّ حُجرتك كئيبةً يا عمرو، سآمر بنافذتك أن توسَّع." ثم غادر السجن إلى قصره

وجاء عمّالٌ إلى السجن وخلعوا نافذته ووضعوا له نافذةً أكبر أدخلت على حُجرته مقداراً أكبر من النور والهواء.

بعد ذلك جلس مختار إلى سلمى يشكو إليها شعوره برفض هيثم لكثيرٍ مما يفعل، وشعوره بكراهيّته الخفِّية له، فاقترحت عليه أن يُجدِّد مشاعر الصداقة القديمة، وأن ينفرد به ويتحدّث إليه في أمورٍ خارج العمل ليُحيِي ما مات من تلك الصُحبة القديمة، فاستحسن الفكرة وقرَّر تنفيذها في أقرب فرصة. ثم تنهَّد وصمت فقالت له:

- ما بِك؟ مم تشكُو أيضاً؟

- إنِّني حائرٌ جداً، لقد تسلَّمت البلاد وهي على وشك الإفلاس وأصبحت عاجزاً عن التصرُّف، كلّما فكّرنا في وسيلةٍ لسداد عجز الخزينة بَرَز لنا فشلُها... أظنُّ أنّني لا أصلح أن أكون ملكاً.

- لا تقل ذلك. إنِّك ملك. ألم تظهِرك البحيرة ملِكاً؟ قد ينقُصك شيءٌ من الخبرة ولكنِّك تَظلُّ ملِكاً. فكّر بهدوءٍ أكثر وستصل إلى حلولٍ أفضل.

- لا حُلول يا سلمى. كلُّ الطرُق أُغلِقت في وجهي... عدت غيرَ قادرٍ على هذه الأعباء.

- لديَّ فكرةٌ عظيمةٌ يا مختار... ما تحتاجه الآن هو شيءٌ يشدُّ من أزْرِك ويُعيد إليك الثقة بنفسك. ولن يفعل ذلك إلّا رؤية نفسك مرةً أخرى في تلك البحيرة... يجب أن ترى نفسك أسداً مرّةً أخرى ليتدفق الحماس في نفسك ثانيةً.

- فكرةٌ رائعة! إنَّني بحاجةٍ إلى ذلك حقاً، سأذهب غداً إلى البحيرة.

ثم استلقى على ظهره ومدَّ ساقيه واضعاً كفّيْه تحت رأسه وهو يبتسم بارتياحٍ وقال: "سأفعل شيْئَيْن في وقتٍ واحد، سأرى نفسي في البحيرةِ وأُجدِّد صداقتي بهيْثمٍ في هذه الأثناء؛ سآخذه معي إلى هناك."

وفي اليوم التالي ركب مختار وهيْثم حصانين جميلين يتقدَّمهما سائِسٍ على حصانٍ ثالثٍ، وتوجَّها إلى البحيرة ببطءٍ وقد حاذى حصان الملك حصان هيثم. وأخذ الصديقان يتحدّثان طوال الوقت ويتذكّران الأحداث القديمة ويتضاحكان إلى أن وصلا إلى البحيرة، فترجَّلا تاركيْن الحصانين مع السائس الذي وقف على مقربةٍ من البحيرة، ومشيا إليها ووقفا أمام حافتها.

لم يكن مختار قد أدرك أنّه أثناء محاولته إقناع الشعب بصلاحيَّته وتفوُّقه على الملك السابق ومحاولته تحقيق ما يصبو إليه قد لجأ إلى أساليب خبيثةٍ وخِدعٍ تّخفى على كثيرٍ من الناس ولكنّها لا تَخفى على تلك المرآة. لذلك فقد رأى انعكاسه على سطح البحيرة على هيئة حيّة. صُعِق لتلك الصورة وحاول أن يُعدِّل من وضعه ليُخرج صورة الأسد ثانيةً، ولكنَّ الحيَّة ظلَّت حيّةً، لم تنجح حركاته إلا في جعلها تتلوّى في المياه الصافية. عندها انتاب الملك حرجٌ شديدٌ إحمَّر له وجهه وأحسَّ بعرَقٍ ساخنٍ ينبعث من جبهته ويسيل على صِدغيه. ولكنّه لم يكن الوحيد الذي انتابه ذلك الحرج، فقد كان هيْثم والسائس يُعانيان من كمِّيةٍ من الحرج تكاد تُعادل حرجه إذ يريان الملك حيّةً تتلوّى في مياه البحيرة. وبطريقةٍ ذكيّةٍ وبسرعةِ بديهةٍ تكلَّف مختار ابتسامةً مرحةً وهو يقول: "لقد حان وقت العودة."

كانت رحلة العودة مختلفةً جداً عن الرحلة الأولى. كان الصمت يشغَل مُعظم الوقت الذي استغرقته، وكان السائس جامِداً على حصانه في المقدمة كالتمثالِ تكاد مظاهر الحياة تختفي منه لولا السوط الذي يهوي به على الفرس بين الفيْنة والفيْنة. أما خلفه فقد كانت تنتاب هيْثم هواجس شتّى بشأن ما سيفعله به مختار بعد أن عرف حقيقته الجديدة بينما كان مختار يضع خطةً صغيرةً للخروج من ذلك الموقف السخيف.

وصل الركب الصغير إلى القصر واتجه السائس بالخيول إلى مَربطِها بعد أن نزل الملك ومستشاره هيْثم، ووضعها في أماكنها، وقبل أن يخرج من المربط جاءه أحد الحرس يأمره بالذهاب فوراً إلى القصر لرؤية الملك، ولم يكَد يجتاز مدخل القصر حتى أمسك به الحارس وزجَّ به في حُجرةٍ صغيرةٍ في مخازن القصر وأغلق عليه الباب. أمّا في الطابق العلوي فقد كان هيْثم يحاول الإستئذان من الملك للإنصراف بلا جدوى إذ أصرَّ على استبقائِه. ثم أمر الحارس الذي حبَس السائس فأقفل عليه الباب في تلك القاعة ووقف أمامه يحرسه. ودخل مختار مخدعه وهو يلعَن لزوجته رأيها الذي جنى عليه، ثم لم يجِد بُدّاً من إخبارها بما حدث. وبعد ذلك أخذ يسير جِيئةً وذهاباً وهو يفكِّر في وسيلةٍ لمنع هيثم والسائس من الكلام. أخذ يستعرض في ذهنه الأقبية السرِّية في قصره ليحبِسهما فيها. وفيما هو كذلك، كان هيثم يدور قلِقاً في القاعة بعد أن أدرك أنّه ممنوعٌ من الخروج. ثم انتابه هاجس الخوف بشكلٍ جعله على استعدادٍ لأن يقوم بأيِّ شيءٍ مهما كانت خطورته، فما كان منه إلّا أن قفز من النافذة إلى سطح حجرةٍ سُفلى ثم منه إلى حدِّ نافذتها ثم إلى الأرض، فانتبه له الحارس الموكل بِحفظِه فقفز خلفه وطارده. وبالخوف المجنون نفسه أخرج هيْثم خِنجراً من غمدٍ كان في جيبه، ولكنْ قبل أن يصل به إلى صدر الحارس كان خِنجر الحارس قد سبقه إلى صدره.

في تلك الأثناء كان مختار قد أُخطِر بهرب هيْثم فنزل وذهب إلى حيث العراك بين الحارس وهيثم ورأى مشهد طعن هيثم من بعيدٍ فصرخ بالحرّاس أن يقبِضوا على الحارس وصرخ فيه: "لماذا طعنته أيّها المجنون؟" فقال الحارس: "لقد كان يريد قتلي يا سيِّدي الملك ولو لم أقتله لقتلني." فصرخ بالحرّاس أن يذهبوا به بعيداً عنه ويحتجِزوه، ثم جثا على ركبتيْه وأسند رأس هيْثم كما فعل بدريد وقال له: "هيثم، لا تمت أرجوك." فقال هيثم وهو ينازع:

"بل سأموت، لقد حانت ساعتي." فدمعت عيْنا مختار وقال له: "أعِدُك أن أقتل من قتلك." فقال له هيثم: "إذا كنت تريد أن تقتل من قتلني فاقتل نفسك." ثم مات على ذراع مختار الذي أضجعه على الأرض ثم دخل وأمر الحارس القاتل سراً بقتل السائِس، ثم أمر حارِساً آخر بقتل الحارس محتجَّاً بأنّه قتل المستشار هيثم. وعندما عاد إلى غرفته كان يشعر بجُهدٍ كبير.

وعلمت زوجته بمقتل هيْثم والحارس والسائس فاستنكرت ذلك منه فلامَها لوْماً شديداً على رأيها الذي كان سبباً في كلِّ شيءٍ فلم تَحر جواباً؛ لم تستطع أن تبرِّر له صورة الحيَّة، ولم تستطع لوْمه على قتل من قتل إذ كانت تلك السنون قد غيّرتها وجعلتها ترى الأمور بعيْنيْ زوجها بعد أن سيطر عليها ما سيطر عليه من حبِّ السُلطة والجاه، وإن كان بداخلها كما كان بداخله شعورٌ يصرخ لائِماً ومُحذّراً، ولكنّه لا يستطيع شيْئاً غير الصراخ. ثم زاد شعور مختار بالحزن والألم إلى حدٍّ كبيرٍ لم يدْرِ كيْف يخفِّف منه، فاستلقى على سريره لا يهمّه أن يستيقظ بعد نوْمتِه تلك أم لا. ولكنّه استيْقظ في الصباح وكان من أصعب الأشياء عليه أن يفسِّر سبب موت هيْثم لآدم وغيره من كبار العاملين معه.

وفي المساء ذهب متنكِّراً إلى السجن وأخبر عَمراً عن موت هيْثم وما قاله له قبل أن يموت، فأطرق عمرو قليلاً وقد ظهر عليه الحزن والألم ثم تنهّد ولم يدرِ ما يقول، فقال له مختار: "لا أدري ما أفعل، لقد كرهت الموت، كرهت مرْأى الدم، وكرهت كلَّ شيء. لقد أصبح القتل يُطاردُني ولا أستطيع منه خلاصاً... عمرو، قل لي ما الحل؟" فتنهَّد عمرو ثانيةً ولم يعرف ما يقول فقال مختار:

- عمرو، عمرو، لن تستطيع أن تتخيَّل ما أعانيه.

- وهل تستطيع أنت أن تتخيّل ما أعانيه؟
- عمرو، إنّ حالِك في سجنك خيرٌ من حالي في قصري.
- ومن الذي وضعك في ذلك القصر؟

تنهّد مختار وقال: "إنّك لا تفهم شيئاً يا عمرو... لا تفهم."

- ما الذي لا أفهمه.
- لم تفهم ما فهمه دُريد. ألا تذكر كلمته الأخيرة التي قالها وهو يحتضر؟ لقد هان شأن موْتِه في نظرِه مقابلَ أن يتولّى أحدنا المُلْك.
- وأنت، ألا تذكر كلمة هيْثم الأخيرة التي قالها وهو يحتضر؟
- ولكنّه هو الذي تسبَّب في قتل نفسه. لماذا حاول الهرب من قصري؟
- لقد شعر أنّك تُبيِّت له أمراً وإلّا لما حاول الهرب... ربما أراد أن يتجنَّب مصيري.
- حسناً، ولكن لماذا حاول طعْنَ الحارس، ولماذا كان يحمِل خنجراً؟
- أنت تعلم أنّه... كان يخشى على أسرته وعلى نفسه من كلِّ شيء، وقد حولت أنت حياته إلى سلسلةٍ من المخاوِف.

تنهَّد مختار ثانيةً وهو يشعر أنَّ عَمراً لن يوافِقه على شيءٍ أبداً ولن يكفَّ عن لومه، فصرَف فِكره عن محاولة إقناعه، ثم نظر بتمعُّنٍ إلى الحجرة من وراء قضبان نافذتها وقال له:

- إنّ هذه الحجرة يكاد ينعدِم فيها الأثاث، سآمر بفرشِها لك ووضع سريرٍ أكبر وألْيَن لتشعر بالراحة في سجنك.
- وهل ستفعل ذلك لكل السجناء؟
- لا سأفعله لك فقط.
- إذن دعني وشأني.

- لا لن أدعك وشأنك، يجب أن تكون مستريحاً هنا، الآخرون مُجرِمون ولا يستحقّون الرحمة.
- المجرمون أطلقت سراحهم يا مختار، لم يعد هنا مجرمون.
- ولكنَّهم كانوا يُريدون قتلي وأتباعي.
- وهل كنت أنا أريد قتلَك؟
- عمرو، عمرو... كفَّ عن ذلك يا عمرو، إنّ حالي لا يسمح باللوم المتواصل.

عرف عمرو أنَّ مختاراً كان يقاسي سياط الضمير، ولكنَّه لا يريد الاعتراف بذنبه، وعلم من كثرَة ترديدِه لإسمه بضعفِه وحاجتِه الشديدةِ إلى نصحه وطمأنته، ولكنّه كان ما يزال حانِقاً عليه لسجنه إيّاه بدون ذنبٍ ولإطاحته بالملِك السابق، وقتلِه من قتل في سبيل ذلك ووضعِه الجنود في السجون، ولتبديدِه أموال الدولة وإشاعةِ الفوضى بها و... شعر عمرو بالغَثَيَان وهو يستعرض لنفسه الذنوب التي ارتكبها مختار. فكفَّ عن ذلك واستلقى في فراشه ونام مُبكراً بعد مغادرة مختار، ولكنّه استيقظ في منتصف اللّيل وكانت تُسيْطر على عقله فكرةٌ واحدةٌ شديدةُ الوضوح؛ لقد مات هيْثم. مات في ظرفٍ غامضٍ وهو في قمّة معاناته في شَغْلِ مَنصبٍ لا يريده وسُكنى قصرٍ لا يريده ورؤيةِ وجوهٍ لا يريد رؤيتَها... عاش بائِساً بسبب مختار ومات بائِساً بسبب مختار... شعر عمرو بحزنٍ عميقٍ وألمٍ ثقيلِ الوطأةِ يملأ صدرَه فبكى حتّى احمرّت عيْناه. وتذكّر دُريداً الذي لا يذكر أنّ موْته أحزنه بتلك الصورة... لقد بدَّد حزنَه على دُريدٍ انشغاله بمشكلتِه الخاصّة ومفاجأته بالأحداث التي قتلت كثيراً من الناس في ذلك اليوم، أما هيثم فقد مات في ظروفٍ مواتِيةٍ يستطيع الإنسان فيها أن يحزن كما يشاء.

في اليوم التالي وقف آدمُ أمام قصر هيْثم ينتظر زوْجته وأطفاله بينما كان الخدم والوصائف يحمِّلون الرواحل ببعض متاعهم إذ قرّرت زوجة هيْثم العودةَ إلى مدينتِها الصغيرةِ فور سماعها بخبر قتل زوجها. وجاء الملِك والملِكة يُعزّيانها ويُودِّعانها وأطفالها، ثم غادرا القصر سريعاً. بعدها ودَّع آدم وزوجته زوجة هيْثم وأطفاله. وقد كان منظر أسرة هيْثم وهي تخرج من بيتها مؤلِماً لآدم، خاصةً عندما جد نفسه مُضطراً لأن يقول للزوجة قبل أن تدخل هودَجها بلحظات: "لقد وضعنا لك جُثمان هيْثم على إحدى الدوابّ التي ترافقكم كيْ تدفنيه في مدينته". وكان الألم على تلك الوجوه المغادِرة لا ينسى. وتحركت القافلة التي تُقلُّ أسرة الفقيد وخدمِه. فأخذ آدم يُراقِبها وهي تبتعد شيئاً فشيئاً وفي قلبِه كمٌ هائلٌ من الألم على هيثم الذي احتمل ذلّ سبعة أعوامٍ لتَجنيب أسرته ذلك المصير، فلم ينجح.

***

قرَّر مختار أن يُغيِّر أُسلوبه في التعامل مع الشعب وفي إدارة شؤون البلاد محاوِلاً التخلِّص من المكر والخداع لكُرهِه لصورة الحيّة التي تسبَّبت في قتل هيْثم والسائس والحارس في يومٍ واحد، فألزم المستشار بالابتعاد عن هذه الأساليب واختيار طرقٍ أكثر مشروعيةً لحلِّ المشاكل. كان يحاول جاهداً أن يثبت وإن كان لنفسه فقط أنّه ليس بِحيّة، فحرص على ألّا يحاول خداع الناس بأيِّ شكلٍ من الأشكال، وأخلص النيّة في أن يوفر من نفقات القصر، فنقل بعض العاملين فيه إلى المزارع التي تمتلكُها الدولة للعمل بها لزيادة الإنتاج من ناحيةٍ ولتوفير بعض نفقات القصر من ناحيةٍ أخرى. وقرَّر استغلال موارد البلاد بشكلٍ أفضل وتشغيل بعض السجناء المُطلَقين فيها.

فرحَّب الناس بالفكرة وإنْ ظلَّ كثيرٌ منهم مستاءً لانتشار المجرمين والمتسكِّعين في البلاد ولاستمرار قطع الإعانات عن مستحقِّيها.

وفي إحدى زيارات أُمامة لأبيها في تلك الأيام رأته مُستلقِياً على بطنه في بهو المنزل ومسعود يكبِس ظهره، فحيَّتهما وجلست تنظر إلى أبيها بإشفاقٍ شديدٍ فقال صالح لمسعود: "ذلك يكفي يا مسعود." فتوقَّف مسعود ثم حيّاهما وذهب، فنظرت أمامة إلى أبيها وقالت له: "ألا يكفي ذلك يا أبي؟ لقد عرضنا عليك أن تبيع الدكان وتأتي لتعيش معنا مِراراً وتِكراراً، لماذا تُرهق نفسك في هذا العمل وقد وصلت إلى السبعين؟" فقال لها وهو يحاول الجلوس بصعوبة:

- لا أستطيع بيْع الدكان الآن يا أمامة.
- إذن دعْ مسعود يعمل واسترِح أنت في البيت.
- إنّني أتركه يقوم بمعظم الأعمال، ولكنْ يجب أن أعمل أنا أيضاً.
- لا ينبغي عليك أن ترى غضاضةً في أن تعيش في بيت ابنتك يا أبي ولا تظنَّ أنَّ...
- أعلم يا ابنتي، ولكنّي يجب أن أذهب إلى السوق دائماً ويجب أن يراني الناس وأنا أعمل.
- لماذا يا أبي؟

تنهّد صالح ووجد أنّه لا بدَّ من أن يبوح لها ببعض سرِّه لتتوقف عن ذلك الإلحاح فقال لها بصوتٍ منخفض:

- إنني أجِد أنَّ البقاء في عملي قد يُساعد في إخراج عمرو من السجن... إنِّني أستغِلُّ وجودي في السوق - حيث أرى أكبر عددٍ من الناس- في محاولة إثارة استهجان الناس لما يفعله الملك مختار، وأظنُّ أن ذلك قد يؤثِّر يوْماً ويدعوه إلى تحسين سياسته ورفع الظلم عمِّن ظلمهم من أمثال أخيك.
- ولكنْ ألا تستطيع أن تفعل ذلك من دون مواصلة العمل؟

- لا، ألم تسمعي بالعيون التي نشرَها الملك في أرجاء البلاد؟
- بلى.
- سيرتابون بي إذا تسكّعت في الأسواق بلا عملٍ وإذا جمعت أناساً في بيتي، أما هناك فإنّني أتنقّل من مكانٍ إلى آخر فلا يُثير منظري ريبة.
- ولكنْ كيف تقوم بهذا العمل الشاق من أجل هدفٍ لا تعلم إنْ كان سيتحقَّق أم لا.
- ما دام احتمال تحقُّقِه موجوداً فلا ينبغي أن أتقاعس عن المحاولة، وتذكَّري أنّني بعد هذا الجهد اليوميِّ أستريحُ وأفعلُ ما أشاء، وأذهب إلى حيث أشاء، أما عمرو المسكين فلا أحد يعلم ما يُقاسيه في سجنه.

شعرت أمامة بالحرج إذ تحاول أن تُثني والدها عن محاولة إخراج أخيها الذي كادت تنساه وكادت تتقبَّل سجنه أمراً واقعاً لا ينبغي مقاومته، وشعرت بالعطف الشديد عليهما معاً، وبِعَبرَةٍ تخنقها، ولكنّها تماسكت ودخلت إلى المطبخ لتُعدَّ عشاءً لوالدها.

ومرَّت على أمامة أيّامٌ وهي لا تستطيع التوقُّف عن التفكير في أبيها وما يفعله من أجل عمرو. وشعرت بالتقصير في حقّ أخيها مقارنةً بما يُقاسيه والدُها العجوز في سبيل إخراجه من السجن. وقرَّرت أن تفعل هي أيْضاً شيئاً من أجله. وفكَّرت طويلاً إلى أن اهتدت إلى فكرةِ اللجوء إلى هند التي كانت صديقةً حميمةً للملكة. فذهبت إليها وسألتها إن كانت ما تزال تزور صديقَتها القديمة، فتحرَّجت هند من الإجابة قليلاً ثم أخبرتها بأن العلاقة منقطعة، فبدت خيْبة الرجاء على وجْه أمامة، فسألتها هند عن سبب ذلك السؤال فأخبرتها أنّها تريدها أن تتحدَّث إلى الملكة لتتحدّث إلى الملك في شأن الإفراج عن عمرو الذي سُجن بلا ذنب. فتذكرت هند قرارها ألّا تذهب إلى قصر سلمى ثانيةً، ولكنَّ نظرةً أخرى إلى وجه أُمامة الحزين جعلتها تتراجع فقالت لها:

"لقد كنت أزمعت عدم الذهاب إلى هناك، أما الآن فسأذهب من أجلك، ولكنّي أُحب أن تأتي معي إلى هناك." فأشرق وجه أُمامة ووافقت في الحال. ولم تُخبر أحداً بذلك لأنّها كانت تعقِد آمالاً كبيرةً على تلك الزيارة وتتمنى أن تفاجيء والدها بأمر الإفراج عن أخيها.

وفي يوم الزيارة ارتدت أجمل ما لديها من ملابس كما أوصتها هند ثم مرَّت عليها وسارتا إلى قصر الملك الجديد. هناك تعرفت هند على بعض الحراس وتعرّفوا هم عليها فذكّرتهم بأمر الملِكة أن يُدخِلوها في الحال إذا أتت مرَّةً أخرى، فقال لها أحدهم: "ولكنّك أتيت برفقة سيِّدة أخرى لم تأذن لها الملكة بما أذِنت لك. لذلك فيجب أن تنتظرا إذنها في القاعة السفلى، ويمكنك أن تتركي صاحِبتك تنتظر في القاعة السفلى وحدها وتسبِقيها إلى القاعة العليا." فكظمت هند غيْظها وأخبرتهم أنّها ستنتظر مع صديقتها، وبعد الانتظار الطويل في القاعتيْن أتت سلمى ورحبَّت بهند ثم مدَّت يدها بتردُّد إلى أمامة فصافحتها بينما كانت هند تذكِّرها بها وبأنّها رأتْها غيرَ مرةٍ في بيتها. وبعد أن جلسن مرَّت فترةُ صمتٍ تردَّدت خلالها أمامة في الكلام. لقد شعرت فجأةً أنّها قد تُهين أخاها بسؤال إطلاق سراحه من رجُلٍ يراه والدها مُجرماً، فرأت هند أن تبدأ الكلام في تلك المسألة فقالت: "لقد جِئنا من أجل أن نتحدث في موضوع عمرو أخي أمامة. تعلمين أنّه مسجونٌ منذ ثمانية أعوامٍ لم تره أمامة خلالها، وهي ترجو أن تكلِّمي الملِك المعظّم في مسألة الإفراج عنه."

شعرت سلمى بالحرج لأنّها تعرِف حِرص زوجِها على إبقائه في السجن، فلم تر لها مخرَجاً غير أن تفتعِل ضحكةً صغيرةً ثم تقول: "لا أعلمُ لماذا يعتقد الناس أنَّني قادرةٌ على التدخّل في سياسة الملِك. كثيرٌ من أفراد الشعب يأتونني راجين أن أتوسَّط لهم عند الملِك في مسائل متعددةٍ ولكنَّني لا أستطيع

ذلك. ليْت الشعب يعلم أنَّني لا أتدخَّل في حُكمه." امتلأت هند حَرجاً وغضَباً وهبَّت واقفةً في الحال، فوقفت معها أمامة ودُهشت الملِكة من تصرُّف صديقتها واعتبرته سوء أدبٍ ولكنَّ هند لم تُبالي، ثم ودَّعت الملكة في الحال وخرجت قبل أن تأتي الوصيفة لتقودهما إلى الخارج.

لقد شعرت هند أنّها عندما زارت سلمى الزيارة الأولى لم يكن الغرور قد تأصَّل فيها، أما عندما سَكنت قصرها الجديد فقد أرْخت له الحبلَ على الغارب. وفي الطريق من القصر إلى البيت كانت هند وأمامة تعبِّران عن استهجانِهما لسوء خُلُق سلمى التي تعالت على صديقتها القديمة وأظهرت لها بوضوحٍ أنّها لا تمتاز عن باقي الشعب الذي أذلَّه زوجُها حتى ببقايا الصداقة القديمة. وندِمت أمامة أشدَّ الندم على القيام بذلك العمل ورجَت هند ألّا تخبر أحداً لكيْ لا يعلم أبوها أو عمرو فيؤذيهما ذلك الأمر.

أما سلمى فقد تحدَّثت مع مختار عن حقد الناس وغيرتهم العمياء منها، وأخبرته بسلوك هند الذي لم يدلّ في نظرها على شيءٍ غيرِ حقدِها عليْها لما وصلت إليه من مكانة. فسألها عن سبب زيارة هند فاخبرته عن أمامة وطلبِها الإفراج عن عمرو. فأخذ مختار يفكِّر ثم قال: "رُبّما دفعها إلى ذلك شوقُها إليه... أعتقد أنّه يُستحسن أن نُصدر أمراً بالسماح لها بزيارته." ففوجئت بقراره بعد أن أساءت علاقتَها بصديقتها ظنّاً منها أنّه لن يعبأ بطلبِها، وعاتبته فأخبرها أنّه يحاول تحسين علاقته بالشعب لاستعادة صورته القديمة، فطلبت إليه أن يترُكها ترسل تصريح أمامة إلى هند مع مُراسلها الخاصّ لتُصلح ما فسد بسببه فوافق. وصمت الاثنان قليلاً ثم سألت سلمى فجأة: "لماذا لا تطلِق سراحه؟" فتنهَّد مختار ثم قال وهو يهزُّ رأسه نفياً:

- لا أعلم.

- وأنا لا أعلم لماذا يتوجَّب عليك سجنُه... لقد سجنته في قبوِك لكيْ لا يعرقل الخطّة، ولكنّ الخطّة نجحت وأصبحتَ ملِكاً فما الذي يستطيع أن يفعله ضدك؟

- لا أعلم.

- لماذا لا تطلق سراحه وتراقبه؟

- فكّرت مِراراً في إطلاق سراحه، ولكنّي كلَّما هممت بإصدار قرارٍ بذلك شعرت بقلقٍ يجعلني أتلكَّأ وأؤجل ذلك...

- لماذا؟

- لا أعلم! لا أعلم! وكفّي عن هذه الأسئلة لأنّي لا أعلم لها إجابة. كلُّ ما أعلمه هو أنّي أشعر بالقلق عندما أفكِّر في إطلاق سراحه وأنَّ وجودَه في السجن... يُزيل ذلك القلق... ولا أعلم لماذا.

وبعد عدّة أيّامٍ طرق باب هند أحد مراسلي الملكة وسلَّمها تصريح أمامة، فأخذته فرِحةً وذهبت به إليها في الحال. بعدها بقليلٍ ذهبت أمامة تزور أخاها في السجن. وقفت تتأمّله من بين قضيبيْن من قضبان نافذته فأشفقت عليه؛ لقد أصبح يميل إلى البدانة لقلّة الحركة وشحُب لونُه وشابت شعراتٌ من رأسه تناثرت في أماكن مختلفة، ولكنَّه كان سعيداً برؤية أخته التي تركها حَدَثةً لم تغادر الملامح الطفوليّة وجهها بعد وجاءته بعد تلك السنين امرأةً كاملةً تطلُّ الأمومة من عيْنيْها. سألها كيْف حصلت على الإذن بالزيارة فقالت له: "لم أكن أعلم أنَّ الملكة بهذه الطيبة." فابتسم قائلاً:

- من، سلمى الرعناء؟

- إنها طيبة فعلاً فقد ذهبت إليها مع هند لتُكلّم الملك في شأن الإفراج عنك، وظننّا من كلامها أنّها لا تنوي فعل شيءٍ بهذا الخصوص ولكنّها كلّمته، وكان هو أيضاً طيّباً إذ أصدر لي هذا الأمر بعدها بأيامٍ قليلة.

- أمامة، لا تكوني بهذه السذاجة، كيْف يكون طيِّباً وهو لم يمنحْك إلّا شيئاً من حقِّك الّذي هضمه ثمانية أعوام، ثم كيْف يكون طيّباً وقد سألتِه الإفراج عنّي وهو حقِّي منذ ثمانية أعوامٍ أيضاً فلم يُقدِّم لي غير حقِّي في أن أراك.

شعرت أمامة بالحرج لانطلاء خدعة الملِك عليها وأطرقت قليلاً، ثم رجاها عمرو ألّا تذهب إلى القصر ثانيةً فوعدته، ثم ودَّعته وغادرت السجن.

***

كان صالح يعمل صامِتاً في دكّانه ساعاتٍ طويلةٍ ولكنَّه يسمع كلَّ الأخبار التي تجري في البلاد وفي الديوان، ويتابع كلَّ الأحداث وهو يدقُّ بمطرقته على الحديد. نادى صالح مسعوداً في أحد الأيام وأراه مقبض بابٍ جديدٍ انتهى لتوِّه من زخرفته بأسلاكٍ دقيقةٍ من الحديد المُحمّى والنحاس التي يلويها ويبرمها ويصنع منها أشكالاً كثيرةً دقيقةً تقابِلُها خطوطٌ زخرفيةٌ عميقةٌ يرسمها على المقبض قبل تركيب تلك الأسلاك، وقال وهو ينظر إليه بفخر:

- أنظر إلى هذا المقبض يا مسعود؟ ما رأيك فيه.
- إنه جميل حقاً يا سيّدي، يقول الناس إنّ الصانع في السبعين لا يعمل بالجودة التي يعمل بها وهو شاب، ولكنّي أرى صنعك في السبعين يزداد جمالاً وإتقاناً.

ضحك صالح بمرحٍ وأخذ يتأمل المقبض ثانيةً، ثم رفع رأسه وقال:

- لا تترك الحِدادَة يا مسعود. إنّها عملٌ عظيمٌ يُشعِرك بالبأس والقوّة. أنظر كيْف تحوّلت كتلةٌ من الحديد الصَّلْب إلى هذا المقبض المُزخرف على يدَيْ حدّادٍ عجوز... إنّه إخضاعٌ للحديد القوِّي الصلب، ومتى أخضعت الحديد أخضعت ما هو دونَه من العناصر... لا تترك الحِدادة أبداً يا مسعود.

ثم وضع المقبض جانِباً وأخذ يُزخرِف مقبضاً آخر بفخرٍ وسرورٍ ويُغالي في زخرفتِه على غير عادةٍ مُستمتِعاً بإخضاع الحديد، سعيداً بزخرفتِه، بإذلاله.

٩

بعد تلك الإجراءات التي اتّخذها مختار للتخلُّص مما كان يشوِّه صورته الداخلية طوال العام الأخير ذهب مُتنكِّراً إلى البحيرة في الصباح الباكر ووقف أمامها وهو يأْمل أن تعود إليه صورة الأسد. ولكنَّه لم ير أسداً بل هِرّاً. شعر بخيبة الأمل وغضِب كثيراً وانتابه مقتٌ للبحيرة فركب حصانه وعاد وهو يتفكَّر في سبب ظهور تلك الصورة، فوجد أنّ أهمّ ما يُميِّز الهرّة هو حُبّها لنفسها واهتمامها الشديد بنفسها، فأدرك أنّ ما كان يفعله للتخلّص من صورة الحيّة ما كان إلا إكراماً لنفسه. ثم عاد إلى القصر بعد أن أبدل ملابس التنكّر واتجه إلى مركز قيادة المؤامرة العُليا وباشر عمله وصورة القطّ لا تفارقه لحظةً، بل أنّها أخذت تتّضح في ذهنه وتتعاظم حتّى ملأت كيانه فتمنّى أن يعود إلى القصر فينام وينساها تماماً. ولكنّه عندما عاد إلى القصر استقبلته هِرّة ابنته وأخذت تتمسح في قدميْه، فأبعدها عنه بقسوةٍ فأسرعت إليْها ابنته الأميرة ليلى وهي تؤنِّب أباها على فِعله، فتجاهلها وأخذ يصرُخ منادياً الخدم الذين تراكضوا نحوْه فأمرهم أن يتخلّصوا من القطّة في الحال، ولكنّ الأميرة ضمَّتها إلى صدرِها وأخذت تبكي فامتنع الخدم عن أخذ القطة فأمرهم ثانيةً أن يأخذوها ولكنَّ الأميرة هربت بها إلى أمِّها التي أحاطت

بها بذراعيْها وعاتبت مختاراً على قسوتِه، فاضطر أمام غضب الأم ودموع الابنة أن يتركها.

وما إن جاء الليل حتّى تسلَّل إلى غرفة ابنته بشمعةٍ في يده، وأخذ يبحث عن القطة التي قفزت إلى سرير الطفلة خوْفاً منه، فاستيقظت الطفلة وصرخت مناديةً أمّها فاختبأ مختار في صندوق لُعَبٍ كبيرٍ بالغرفة لكيْ لا تراه ابنته في ذلك الوضع وأطفأ شمعته، وجاءت سلمى وهدّأت ابنتها ثم أخذت تروي لها حكايةً طويلةً إلى أن نامت الطفلة ونام مختار في الصندوق. وعندما تأكَّدت سلمى من نوم ابنتها همَّت بالخروج فإذا بها تسمع شخيراً قادماً من الصندوق، فخافت وأسرعت إلى غرفة الوصيفة فأيقظتها وأمرتها أن تستدعيَ بعض الحرس، فجاءت ومعها كبير الطهاة وأحد الحرّاس وبيد كلٍّ منهما سيْفٌ ضخمٌ قد أمسك به في وضعٍ متأهّب، فأخبرتهم الملِكة أنّ بالصندوق لِصّاً، ففتح الحارس باب الصندوق بهدوءٍ بينما كان الطاهي جاهِزاً بسيفه ليطعنه لدى أيّة إشارة، ولكنْ ما إن رأى الطاهي وجه الملِك حتّى شهق وتراجع إلى الخلف بسرعةٍ ثم انحنى باحترامٍ أمام الملِك الذي أفاق على ضوء مصباحٍ تحمله الوصيفة، فهمست الملِكة للطاهي: "ما بك؟" فقال بصوتٍ مضطرب: "إنّه... سيّدي الملِك المعظّم..." فشعرت الملِكة بحرجٍ شديدٍ وأخبرتهم أنَّ الملِك كان يُلاعب الصغيرة فنام من الإجهاد، فهمُّوا بالانصراف إلّا أنّ الملِك استوقفهم وطلب إليهم الانتظار قليلاً في الممر، فوقفوا وهم يحاولون السيطرة على ما اعتراهم من رُعبٍ بعد أن أيْقنوا أن الملك لا بدَّ معاقِبهم عقاباً صارماً على رؤيتهم إيّاه في الصندوق وعلى مهاجمتهم إياه، وإنْ كان ذلك بأمر الملِكة. أما الملكة فقد ساءها أن يأمُرهم الملك بالانتظار لِعلْمها بنواياه وقسوته، وما إن دخلا مخدعهما حتى أخذت تلومه على ذلك فقال لها غاضباً:

- أنت من يلام وليس أنا، كيْف تعجزين بعد كلِّ هذه السنين عن تمييز شخيري؟
- ولكنّني أستطيع تمييز شخيرك في مكانه الطبيعيّ وليس عندما يأتي من داخل صندوقِ لُعبٍ في غرفة ابنتك.
- ثم لماذا لم تختاري حكايةً قصيرةً تكفي لتنويم طفلةٍ بدلاً من تلك الحكاية التي كان تأثيرها كافياً لتنويمي أنا!

ثم أضاف وهو يمشي إلى سريره: "أظنُّ أنَّ تلك الطفلة المسكينة ستنام أسبوعاً كاملاً!" فمشت خلفه حتى وصل إلى السرير وجلس عليه فقالت له:

- وهؤلاء المساكين، لماذا أمرتهم بالانتظار في الممرّ، إيّاك أن تعاقبهم فهم لم يرتكبوا ذنباً وإنما جاؤوا بأمري عندما ظننتك لِصّاً.
- ولكنّهم رأوني في ذلك الحال المزري، تخيّلي القصص التي سيرويها كلُّ الخدم - ومن بعدِهم كلُّ الناس- عنّي... لا، لا، لن أسمح بذلك. كيف يرى أحدٌ الملِك في هذه الصورة ويُترك حيّاً؟ لم أدخل هنا إلا لأفكر أين أحبسهم حتّى الغد.

شهقت سلمى رُعباً واستنكاراً وقالت غاضبةً: "ستقتلهم؟ لن أسمح بهذا أبداً..." فقال وهو يتثاءب: "وهل تظنّين أنّني سأنتظر إذنك يا حبيبتي؟" فتابعت في ضيق:

- لقد مللت ما تفعل... لن أسمح لك بأن تخبِّىء أحداً في أحد أقبيتِنا مرَّةً أخرى. في البداية وضعتني في قصرٍ كنت أشعر فيه أنّ أشباح من قُتلوا في حديقته ستظهر لي يوماً، والآن يكاد لا يمضي عامٌ دون أن تحبِس أحداً في الأقبية تحتنا...
- ولكنْ يجب أن تعترفي أنّني لا أبُقي من أحبسهم طويلاً تحتنا بل أقتلهم في يومٍ أو يومين...

- وهذا أسوأ يا مختار! ولكن دعنا من ذلك الآن... هل تعلم من ستقتل الآن؟ هل تعلم أهمية هؤلاء في القصر؟ سأخبرك! الذي كان متأهّباً لضربك بالسيف عند فتحِ باب الصندوق كان كبير الطهاة الذي لا أحد في البلد يُجيد فطائر التوت مثله...

- فطائر التوت؟ هل هو الذي يصنع تلك الفطائر اللذيذة؟

- نعم، أما تلك الوصيفة فهي...

فقال وهو يبتسم متخيّلاً طعم تلك الفطائر: "يكفي ذلك، لقد شفعت فطائر التوت للجميع." فابتسمت سلمى بارتياحٍ وقالت: "هل أخرُج لأخبرهم بعفوِك الملكيِّ عنهم؟" فأشار لها بيده أنْ تفعل وهو ما يزال مبتسماً لذكر الفطائر، فذهبت إليهم بينما انسلَّ هو تحت اللحاف، وتمنّى أن تنسى سلمى ذلك الحدث كيْلا يضطر إلى إخبارها بما رأى في البحيرة. لقد كانت الدائرة المحيطة بمختار من الناس الذين يثق بهم ويُسرُّ إليهم بخفاياه تضيق وتضيق حتّى أوشكت زوجته أن تخرج منها، وحتّى كادت تقتصر عليه. ولم يبال مختار بذلك كثيراً إذ كان حفظ صورته في نظر الآخرين أهمُّ عنده من حاجتِه للبوْح إليهم.

وفي اليوم التالي غافل الأميرة ووضع القطّة في خرجٍ وسلَّمها إلى أحد الحرس لإطلاقها. وفي المساء جاء المستشاران سفيان وآدم ليناقشا مع الملِك بعض المسائل فدخلت عليهم الأميرة في قاعة الاجتماعات وأخبرت أباها أنّها فقدت قطّتها، ثم انفضَّ الاجتماع. وفي اليوم التالي صعد مختار إلى الطابق العلوي لدى عودته من المركز فإذا به يرى والد سلمى مع الأميرة الصغيرة أمام الغرف الداخليّة فحيّاه تحيّةً سريعة، وقبل أن يدخل أخبرته ابنته أن جدّها أحضر لها قطّةً جديدة، فأظهر مختار غضباً شديداً ولام حماه على ذلك فقال

الشيخ: "ولكنّي سمعت أنَّ ليلى فقدت قِطّتها فأحضرت لها غيرها..." فسأله مختار غاضباً:

- من أين سمعت بذلك؟

- كلّ الناس يقولون ذلك، لم تتحدّث المدينة عن شيءٍ آخر اليوم.

- كلّ الناس! لا شأن للناس بي وبإبنتي!

استاء المعلِّم المُسنُّ من سلوك مختار غير المهذَّب وغضِبت ابنته ولحقت زوجها الذي دخل غرفته فرأى القطّة نائمةً في دعةٍ على سريره فحملها غاضباً وألقى بها من النافذة وأمر أحد الحرس من النافذة أن يصطادها ويقتلها. ودخلت زوجته وأخذت تلومه لوْماً شديداً على نهرِه والدها وعلى دمويَّته التي لم تسلم منها الهرة، فانهار وروى لها ما حدث في البحيرة، فقالت له محاولةً أن تسرّي عنه:

- وماذا في ذلك؟ إن الهرَّ حيوانٌ ظريف.

- لا، إنّه حيوانٌ يعيش لنفسه.

- ولكنّه ينتمي إلى السباع، وما دمت قد وصلت إليه فستصل إلى الأسد بعد مدّة.

- كفّي عن هذا السخف ولا تخلطي بين الأشياء. لا علاقة للهرِّ بالاسد، وأين هذا من ذاك!

ثم أخذ يدور في الغرفة بعصبيّةٍ ثم التفت إلى النافذة وقال غاضباً: "سآمر بكل القطط في البلاد أن تقتل... بل أن تُحرق! لا أريد أن أرى أثراً لقطّة!" فقالت له مستهجنةً ما يقول:

- إنّ ما تقوله هو السُّخف! كيف تتجبَّر على تلك المخلوقات الضعيفة؟ لماذا لم تتجبَّر على الأفاعي عندما صوَّرتك البحيرة أُفعواناً؟

- لأنّني لا أرى الأفاعي، أمّا القطط فأراها في كلّ مكان... على الجُدران وعلى النوافذ وعلى جوانب الطرق وحتّى هنا، على سريري!

- تخلَّص من القطط التي تراها في قصرك، ولكنْ ما ذنب القطط الأخرى؟

- ذنبها أنّني أكرهها، أكره منظرها، لا أطيق رؤيتها!

فقالت له بحزم: "أتعلم لماذا؟ لأنَّك تكره أن ترى نفسك! لا يُرضيك أن تعرف حقيقتك..." فالتفت إليها وقال: "لا، كنت أحبُّ حقيقتي عندما كنت أسداً... أنا أسد، تلك هي حقيقتي الدائمة، أما القطّ فهو صورةٌ مؤقتةٌ لأنّها ليست نفسي الحقيقيّة، لذلك أرفض أن أراها، أكره أن أكون قِطّاً طَرْفَةَ عيْن."

تنهَّدت سلمى وقالت:

- ولكنّك الآن كذلك ويجب أن ترضى بالأمر، ولن يغيّر قتل القطط شيئاً.

- سأقتلها!

- ألم ترتوِ من أنهار الدّم التي سكبتها حتّى تزيدها طولاً من دم تلك المخلوقات المِسكينة!

فامتقع وجهه غَضباً وقال: "لقد تطاولت عليَّ بما فيه الكفاية، كفِّي عن ذلك!" فأثار غضبه غضباً مُماثلاً فقالت له بلهجةٍ شديدةِ التحدِّي: "وإذا لم أكفّ؟" فتناول سيْفاً كان مُعلّقاً على الحائط ورفعه عليها وفي عيْنيْه تحدٍّ صارخ فصرخت مرعوبةً، فدخل الطفلان عليهما فأحاطتهُما بذراعيها وهي تلهثُ من الخوف، فأكَّد لهم مختار أنّه كان يمزح، وألقى بسيفه وأخذ يُداعب وجهَيْ الطفلين اللذين صدّقا تبريره في الحال. أمّا سلمى فأخذت تُحدِّق فيه وهيَ لا تصدِّق كلمةً مما يقول. ثم التفت مختار إلى زوجته وهو يتساءل: "ولكنْ من الذي نشر ذلك الخبر؟ لو علمتُ من هو لنَفيْته أو سجنته... أو قتلته!" ولم يتلقَّ إجابةً منها فترك الطفلين وخرج من الغرفة، واستدعى كلَّ العاملين بالقصر

وصفَّهم أمامه واستجوبَهم فأكَّدوا له أنّهم لم يفعلوا ذلك فاستغرب وقرَّر أن ينسى الأمر.

بعدها أصبحت سلمى تشعر أنّ فجوةً قد تكوَّنت بينها وبين زوجها، فهي وإن مالت إلى تصديق ما قاله على سبيل التبرير إلّا أنّها لم تستطع أن تُجزِم أنّه كان سيُبعد عنها السيْف لو لم يدخل الطفلان في تلك اللحظة. وفتحت السجلَّ القديم الّذي دوَّنت فيه سلوك مختار، وتذكَّرت أنَّ عُدولَه عن ابنة الوزير وزواجه بها كان ضِمْن خطةِ انتزاع المُلْك من المَلِك السابق فلِمَ لا يكون قتلها ضمن خطةٍ أخرى للاحتفاظ بالمُلك بعد أن كشف لها حقيقته التي تحولت من أسدٍ إلى حيّةٍ ومن حيّةٍ إلى هِرّ، ولكنّها وجدت أنّ المعلومات القديمة التي جمعتها لم تحمِها من سيْفه الذي شهَرَه أمامها في سَوْرةِ غضبه المفاجئة، ولا تضمَن لها مستقبلاً أنّها لن تكون في يومٍ من الأيام نزيلة أحد أقبِيَتِه. ورأت أنّه لا مفر من قبول حياتها معه كما هِيَ، فقرَّرت أن تمسح تلك المعلومات من عقلِها تماماً وتُغلق ذلك السجلَّ إلى الأبد.

أما هو فقد كان يُعاني من تدهور علاقته بزوجته ويتساءل عن سبب فعلِه في تلك اللحظة. وعفى عن الهرر على سبيل التكفير عن سيِّئته خاصةً وأنَّ القضاء عليها قد يجعل الناس يتساءلون إلى أن يصِلوا إلى السبب. ولكنّه في الوقت نفسه لم يستطع أن يتجاهل أنّ سلمى أصبحت تختزِن أسراراً كثيرةً عنه، ومن ثَمَّ يجب ألّا تغضب عليه وتمقته. فأصبح يبالغ في التودُّد إليها إلى أن عادت المياه بينهما إلى مجاريها وإن بقيَت في أعماق نفسِ كلٍّ منهما مُنحرفةً قليلاً عن مجاريها.

***

في تلك الأيّام التي سيطرت فيها القطط على نفس مختار وجَرى فيها ما جرى توجّه إلى السجن. ووقف تفصل القضبان بينه وبين صديقه وقال:

- عمرو، إنّني أكاد أفقد صوابي، لقد تعقّد كلُّ شيء.

- ماذا حدث؟

- أسأت معاملةَ حماي وابنتي وزوجتي وأصبحت لا أُطيق أحداً. لقد أثقلتني أعباء المُلك. أصبحت بحاجةٍ إلى مستشارٍ مثلك يا عمرو، فلا آدم ولا سفيان يستطيعان مُعاونتي على إدارة شؤون البلاد بأنفسهما الخبيثة.

- لم يكن هيْثم خبيثاً.

- كنت أعرف أنّك ستجد شيئاً تلومني عليه. أصبحت مملّاً يا عمرو، لا تُجيد إلا اللّوْم والتقريع.

- ولكنّك لا تأتي إلى هنا إلّا من أجل اللّوم والتقريع يا مختار، يُريحك أن تتلقّى عقابَك على يدِي.

- نعم، ربما كان لسانك المسموم يُريحني ولكنّي الآن حقّاً بحاجةٍ إليك، فهل ستتعاون معي وتنضم إلى مستشارَيّ؟

- لا، لن أتعاون مع طاغيةٍ مثلك.

- أيُّ مادةٍ قليلةِ الحسِّ تكوَّن منها عنصرك؟ ألا تتمنّى الخروج من هذا المكان القذِر؟

- إنَّ قصرك أقذر يا مختار.

- إخرس! يبدو أنّك ستظَلُّ في هذا السجن إلى الأبد!

وخرج مختار مُغاضِباً ولكنّه ما لبث أن عاد بعد يومَيْن. وأدرك عمرو مدى حاجة مختار إليْه ومدى حيرته من أمره، فأحسّ أن حُنقه عليْه خفَّ حتّى كاد أن يختفي بعد أن أدرك ماهيّته وضعفه أمام رغباته وعجزه عن مقاومتها، بل إنّه شعر بإشفاقٍ عليْه وهو يراه ينتقل من خطأٍ فادحٍ إلى خطأٍ

أفدح، إشفاقٍ يشبه حُنوِّ الأب على ابنه المُجرم وقبولِه إيّاه كما هُوَ، ولكنَّه كان ما يزال غيرَ قادرٍ على إشعار مختار أنّه يتقبَّلَه، لذلك فعندما استمع إليه يشكو همومَه لم يحاول التسريةَ عنه بإخباره أنَّ تلك من مصاعب القيادة المتوقَّعة ولكنّه بدلاً من ذلك وجد نفسه يقول:

- تنحَّ عن الحُكم يا مختار، ذلك هو الحلّ.
- ماذا تقول؟ لا بدَّ أنَّك جُننت!
- ولكنِّك تشكو ولست سعيداً به.
- فلأشكو! كلُّ الناس يشكون! ولكنّهم لا يهربون.
- ولكنَّ هذا العمل لا يناسبك لذا يجب أن تتنحّى عنه.
- وأسلّمه لمن؟ من غيري سينجح فيه إذا فشلت أنا في أدائه؟ ألا تذكر أنَّني كنت الوحيد الذي ظهر على شكل أسدٍ في البحيرة؟
- الأسد ثانية!
- نعم، ثم ألا تذكر ما فعلت في سبيل التمَّكن منه؟ لقد خطّطت وحرمت نفسي النوم لياليَ طويلةً ثم خُضت تلك المعركة التي قُتل فيها من قُتل بما في ذلك صديقٌ من أقرب الأصدقاء إليّ، وسَجنت في سبيل ذلك صديقاً من أقرب الاصدقاء إليّ، وتزوجت سلمى من أجل ذلك، وحتى طفليَّ لو لم أتزوج لذلك الغرض لما وُلدا. لقد سيَّر ذلك الهدف حياتي كل تلك السنين ثم تقول لي "تنحَّ عنه يا مختار"!
- وما الذي تجنيه منه الآن؟ ما الذي يجعلك تتمسَّك به كلّ هذا التمسّك وأنت تعاني ما تعانيه في سبيل الاحتفاظ به؟
- عندما تتولّى الحكم يا عمرو تشعر أنّه لا يوجد إنسانٌ غيرك يُمكِنه أن يفعل ما تستطيع أنت فعله، لا يوجد من يستطيع قيادة البلاد بالكفاءة التي تفعل بها ذلك. واحترام الناس، بل وتقديسهم لك يبعث فِيك قدراً من الاعتداد

بالنفس يجعلك تأبى أن تقبل المذلَّة مهما صغُرت. واستسلامك للظروف التي تضطرك إلى التنحِّي مُجبَراً فيه من المذلَّة ما لا تُطيقُه نفسٌ أَلِفَت الكرامة والاعتداد بالذات ورؤية إكبار الناس لها وخنوعِهم أمامها... ألا تذكر كيْف فضَّل الملك السابق الموت وتشريد أسرته على الاستسلام؟

- ولكنَّه وُلد ملِكاً ومن الطبيعيِّ أن يُفضّل الموت على الاستسلام.
- وأنا أيضاً وُلدتُ ملِكاً بدليل صورة الأسد، وقد استحققت صفات الملوك لأنّني استطعت أن أنتزع المُلك لنفسي انتزاعاً.
- ولكنَّك تعاني ولا تعلم إن كنت ستحافظ على مُلكك إلى آخر حياتك...
- سأعاني ما يفرض عليَّ واقعي أن أعانيه ولكنّي لن أتخلى عن المُلك وبيدي ألا أفعل.
- مثلُك يا مختار كمثل رجلٍ صارع ثوْراً غاضباً حتّى تمكَّن منه واعتلى ظهرَه فأخذ الثوْر الهائج يندفِع به في كلِّ اتّجاهٍ وهو على ظهره بلا حوْلٍ ولا قوَّة، لا يملِك توجيهه ولا يملِك النزول عنه.
- ما هذا الهراء.
- أحْسِن قيادته يا مختار أو انزل عن ظهره.
- سأُحسِن قيادته يا عمرو، وسترى.

وخرج يملؤه الحماس وكلُّه تصميمٌ على أن ينجح في قيادة البلاد.

***

ظلَّ موت هيْثم في حديقة قصر مختار مُسيْطراً على آدم. وزاد شعوره بمحاولة مختار إقصائه وإدناء المستشار سفيان، ويئِس من استعادة مكانته عنده. ولازمه شعورٌ قويٌّ بأنَّ المستشار سيحاول في قادم الأيّام القضاء على

البقيّة الباقية من ثقة الملك به، وبأنّه قد يرى نفسه ينازع الموت في حديقته كما حدث لهيْثم الذي ما تزال صورة زوجته وأطفاله وهم يغادرون المدينة يُخيِّم عليهم الحزن والهمّ واضحةً جليَّةً في ذهنه. وتخيَّل ما قد يحدث لزوجته وأطفاله فقرَّر الهرب من كلِّ ذلك قبل فوات الأوان. لقد فقد الثقة في مختار كليَّةً وعاد لا يستطيع أن يطمئِنَّ إليه إلّا كما يطمئِنّ لصٌّ إلى كبير اللصوص؛ اطمئناناً مرهوناً برضاه عنه، أما غضبه عليْه فحُكمٌ فوريٌّ بإعدامه أو إعدام حرِّيته، فلا ضمير يمنع ولا خُلق يشفع مع اللصوصيّة.

كانت الخطوة الأولى هي إبلاغ زوجته باضطرارهما إلى الهرب والبدء في إعداد العدّة للسفر سِراً وهما لا يعلمان إنْ كانا سيجدان لهما مُستقرّاً في إحدى البلاد المجاورة. ثم أَخطر مركز قيادة المؤامرة العُليا بحاجته إلى التغيُّب ثلاثة أيّام لكيْ لا يُبحَثُ عنه فيُكتشَف أمره قبل أن يتمكَّن من مغادرة البلاد. وفيما كان يحزِم بعض ما تبقى من أمتعته تذكَّر كذبته على هيثم التي أثنته عن الهرب في الوقت المناسب فشعر بندمٍ شديدٍ كاد يُبكيه. وقرَّر أن يزور عَمْراً في سجنه قبل أن يذهب فإنْ كان وقت الاعتذار لهيْثم قد فات فإنَّ وقت الاعتذار لعمرو لم يفُت بعد.

وفي الصباح الباكر نقل وزوجته أمتعتهم ثم جعل زوجته وأبناءه ينتظرون مع القوافل الأخرى المنتظرة وانطلَق سريعاً إلى السجن بعد أن لبس لِحية صالح الحداد وشاربيه. هناك وقف أمام القضبان حزيناً وهو يُخبر عَمْراً بهروبه من البلاد، ويسأله أن يغفر له ما فعل... قال عمرو ورنّة حزنٍ تكسو صوته:

- أنظر ما فعل بنا مختار، لقد فرَّقنا.

- في النهاية لم يستفد مما فعلنا جميعاً إلا هو.

- ولكنَّك ستنجو بنفسك.
- بل سأصبِح غريباً في بلادٍ غريبة.
- ذلك خيرٌ من الانغماس في ما يفعله مختار.
- ربما...

ثم بدا القلق على وجهه ونظر ثانيةً إلى عمرو وقال: "يجب أن أذهب الآن فالقوافل تتحرَّك مُبكراً، هل ستصفح عنّي وتُسلِّم عليَّ يا عمرو؟" فأطرق عمرو. لقد شعر أنّه لا يستطيع أن يصفح عن آدم تماماً وهو في سجنه فتجاهل يده الممدودة بيْن القضبان ورفع رأسه وقال: "هل كنت تصفح عنِّي لو كنت مكاني وكنت مكانك يا آدم؟" فتنهَّد آدم بألمٍ ولم يَحر جواباً. لقد أدرك أنَّ ما فعله لا يُغتفر بسهولةٍ، وأنَّ القضبان غير المرئية التي صنعتها خيانته لعمرو بين نفسيهما أقوى بكثيرٍ من تلك القضبان المعدنية التي تفصلهما. لذلك فقد يئِس وهمَّ بمغادرة المكان بعد أن تساقطت ذراعه الممدودة شيْئاً فشيْئاً حتى أصبحت خارج القضبان. ولكنْ قبل أن يخطو الخطوة الثانية مُبتعِداً عن النافذة ناداه عمرو وهو يمدُّ له يده. وما إن رأى آدم يده الممدودة خارج القضبان حتّى قبض عليها بيْن كفَّيْه وقبّلها، ودمعت عيْناه فقال له عمرو: "توخَّ الحذر يا آدم.... أرجو لك التوفيق." ثم خرج آدم وهو يشعر أنَّ جزءاً من همومه قد تبدَّد بصفح عمرو عنه، وانطلق صوْب أطراف المدينة حيث القوافل تنتظره لتبدأ المسير.

***

بعدها بأسبوعٍ أخذ أقطاب القيادة في مركز المؤامرة يتساءلون عن تغيُّب آدم فعلموا بعد مدةٍ بمغادرته البلاد. فهنّأ المستشار نفسه بذلك، وأخذ يُهوِّن الأمر على المَلِك مختار الذي وقف قبالة خزانةٍ مفتوحةٍ مستنداً على رفٍّ من

أرفُفِها ورأسه يكاد يندسُّ داخلها، وأخذ يحدِّق فيها وكأنّه يرقُب نملةً بداخلها.
هزَّ رأسه مُتحسِّراً فاقترب منه المستشار سفيان ووقف أمامه بأدبٍ وقال:

- هوِّن عليْك يا سيِّدي الملك المعظّم، لا شيء يستحقُّ قلق سيِّدي الملك...

- ولكنَّ هذا الأمر يستحقُّ القلق أيّها المستشار سفيان... لو كنت أعلم اتّجاهه لأرسلت من يتعقَّبه ويعود به ليواصل عمله معي.

- ولكنْ يا سيّدي الملِك المعظّم، قد يكون الرحيل في صالحه.

- لا، لقد كان يريد أن يحيا بقيَّة عُمره مُعزَّزاً مكرَّماً هنا، في هذه المدينة التي... ليْتني أعلم كيْف أُعيده.

ثم أطلق زفْرةً عميقةً وقال بصوتٍ منفعلٍ يعلوه الألم: "إنِّني أشعر أنَّ أصدقائي يتسرّبون من يدي واحداً بعد الآخر... لقد أسأت إليهم جميعاً." فقال له سفيان محاوِلاً مقاومة عاطفة الملِك تجاه أصدقائه: "ولكنَّ سيِّدي الملِك المعظَّم لم يفعل شيْئاً يُسيء إليهم. هم الذين أساؤوا إلى أنفسهم وإلى سيِّدي الملِك المعظَّم بالتخلّي عنه... نصيحتي يا سيدي..." وقبل أن يتمكَّن من إسداء نصيحتِه التفت إليْه مختار يعلو ملامحه الغضب الشديد رغم الحزن والحسرة في عيْنيْه الدامعتين ووجهه المحمرّ وقال له: "أيّها المستشار سفيان، لا تقدِّم لي المشورة إلّا إذا طلبتها منك بنفسي، هل فهمت؟" فتراجع المستشار سفيان وقد أرعبته نظرة مختار وحالته التي لم يره فيها قط وقال: "فهمت، فهمت يا سيِّدي الملِك المعظّم". ثم استأذنه في الانصراف ومشى بانكسارٍ إلى الباب.
وعندما خلا مختار إلى نفسه أخذ يفكِّر، شعر بأنَّه أجرم في حقِّ أصدقائه واحداً واحداً إذ قتل منهم من قتل وسجن من سجن وشرَّد من شرَّد فآن أوان زيارة عمرو.

عندما ذهب مختار يزور عَمْراً في السجن، دخل بعد أن تأكَّد من تثبيت اللحية المستعارة والشاربين ومشى إلى آخر الدهليز وقد ظنَّ أنَّ الحارسين سيومِئان له بالدخول بلا تردُّد كالمعتاد، ولكنَّ ميْسرة استوقفه فجأةً فوقف مضطرباً فقال له: "تلك ليْست لِحية صالح الحدّاد." فشعر زرياب بالحرج وحاول أن يُدخل الرجل ولكنَّ ميسرة منعه من الدخول قائلاً: "لقد ازدادت الشعرات البيض في لحية صالح الحداد. وهذه اللحية تشبه لحيته في العام قبل الماضي." فقال زرياب: "وهذه اللِّحية أيضاً بها كثيرٌ من الشعر الأبيض... ربَّما خُيِّل إلَيْك أنَّ شعراتها البيض أقلُّ عدداً اليوم." فقال ميسرة بلهجةٍ شديدةِ الاحتجاج: "خُيِّل إليّ! إنِّني متأكِّدٌ مما أقول يا زرياب." ثم أشاح بوجهه شاعِراً بالإهانة وقال: "لا أحد يناقشني في لِحية صالح الحدّاد! وإن كان صالح الحدّاد نفسه! ولن أدخل أحداً بهذه اللحية، إنني رجل أعرف القانون!" فهَمَّ مختار بالانصراف ولكنَّ زرياب قال: "ربَّما صبغ الرجل بعضها يا ميْسرة، دعه يدخل." فقال ميسرة بحزم: "لو جاء صالح الحدّاد الحقيقيُّ بلحيته الحقيقيَّة وتحقَّقت منه بنفسي ثم صبغها أمامي أو حلقها لما أدخلته. لن يدخل رجلٌ إلى نافذة عمرو، سجين المِلك المعظّم إلا بلحية صالح الحدّاد التي أعرفها أكثر مما أعرف لحيتي." فهم مختار بالهرب من ذلك الموقف ثانيةً إلّا إنّ ميسرة قال: "إنّنا نحتفظ بنموذجٍ للحية الحداد، أرِه لحية هذا العام يا زرياب." فشعر زرياب بالحرج الشديد وحاول التظاهر بأنَّ ميسرة يمزح ولكنّه قال له بلهجة جادة: "أره اللحية، أنت تعرف مكانها." فغضب زرياب وقال: "لا بدَّ أنّك سكَرت اليوم أو جُننت." فدفعه ميسرة من أمامه وأخرج من تحت المنضدة كومة من الخيوط نفضها ثم شذبها بأصابعه وناولها مختاراً قائلاً: "هذه هي لحية صالح الحدّاد هذا العام." فأخذها مختار وتأمَّلها بينما أخرج زرياب منديله وجلس إلى المنضدة يمسح وجهه ويواري حرجه وغيْظه. وبعد أن

تأمَّل مختار اللحية مليّاً قدمها لميسرة وهو يشكره ولكنَّ ميسرة قال له: "احتفظ بها إن أردت." فسأل مختار حائراً ومُحرجاً: "ألا تريدونها؟" فقال ميسرة: "لا، لسنا بحاجةٍ إليها، فلدينا صانعٌ متخصِّص في صنع لحية صالح الحداد." فشعر زرياب أنّه يريد أن ينقض على ميسرة ويخنقه من الغيْظ ثم يختبىء تحت المنضدة من الحرج، ولكنَّه لم يستطع فعل شيءٍ غير مسح وجهه بينما كان مختار يضع اللحية في جيبه ويشكر زميله.

ومشى الملك المتخفِّي في الممر خارجاً وصفير ميسرة الحادّ المتقطّع يخترق أذنيْه بقسوةٍ ويتراكم بلا تناسقٍ في دماغه. ثم استبدل أدوات تنكُّره خلف أحد المنازل القريبة من السجن وعاد بها فأومأ له ميْسرة بالدخول فدخل وهو يشعر أنّه أسخف ملِكٍ في العالم. وازداد شعوره بضآلته التي صوَّرتها له البحيرة على هيْئة قطّ وصوَّرها له الواقع على هيْئة سوء إدارةٍ للبلد وفشلٍ في إنشاء المستشفيات التي يترقَّبها الشعب، وأخيراً على هيْئة أحمقين يُصوِّران له قمّة سُخفه ويجعلانه يتمنّى لو كان في جِلد الملك مختار الذي احتاج إليه كثيراً في تلك اللحظة، إذ كان هو الذي يُمدّه بثقةٍ تُقلِّص تأثير تلك المواقف السخيفة في نفسه وتمكُّنه من وضعها تحت قدميْه، ولكنْ هيهات، فليس ثمَّة جلدٍ يصلح لكلِّ حال، فها هو حالٌ يفرض عليه أن يظهر في جلدٍ آخر لا يقيه من شيء، بل يترك كلَّ شيءٍ ينفذ إليه حتى سويداء قلبه. التفت ثانيةً قبل أن يغيب في الدهليز الثاني إلى ميْسرة وزرياب وتمنّى بشدةٍ لو استطاع الإستغناء عنهما في السجن ليستضيفهما في أحد أقبية قصره.

***

ثم أخذ شبابٌ آخرون يجتمعون سِراً في قبو أحد المنازل في إحدى القرى البعيدة ويتدارسون خطّةً للإطاحة بمختار، ويناقشون أسباب فشل الخطّة

الأولى، ولكنْ تمكَّن حرس مختار من اكتشافهم وهم في ذلك، وألقوْا بهم في السجن. وشعر الملِك بالقلق على مُلكه إذ كان مُتأكِّداً أنَّ مع تلك الجماعة جماعاتٍ كبيرةً مندسّةً في الجيش وفي أمكنةٍ أخرى، فأمر باستخراج كلِّ ما لدى تلك الجماعة من معلومات عن بقيّة المتعاونين معهم بأيّة وسيلة. وفي اليوم التالي سمع المارَّة بأحد سجون المدينة صوت سياط وصراخ، فأخذوا يتساءلون عن سبب ذلك فعلموا أنَّ رجالاً يتعرضون للجَلد بسبب قيامهم بمحاولةٍ للإطاحة بالملِك ورفضهم كشف أسماء من يعمل معهم. ومرَّ رجلٌ نَصَفٌ على السجن يوماً فسمع من بعض نوافذه أصوات الجَلد والصُراخ المؤلم فهزَّ رأسه وقال لأحد المارة: "لم يكن ذلك يحدث في بلدنا." فهزَّ المارّ رأسه نفياً ومرَّ برجُلٍ آخر فقال له تلك العبارة فأجابه الرجل: "صحيح." وما إن انصرم اليوْم حتى كانت عبارة الاستغراب تلك قد وصلت إلى منازل عديدةٍ ومنها بيت صالح الحدّاد الذي كرَّرها لنفسه مراراً وهو يعبث بلِحيته، ثم تنهَّد وقال في نفسه: "يجب أن يعود كلَّ شيءٍ كما كان لنعود كما كنّا."

وبات الناس تلك الليلة مُنزعجين وفي الصباح اجتمع أناسٌ كثيرون وتجمهروا أمام مركز قيادة المؤامرة العُليا وهم يطالبون بأن تعود بلادهم كما كانت. ارتاع مختارٌ لمرآهم من إحدى النوافذ العالية إذ كان يعلم تماماً معنى أن يتجمهر الناس أمام مركز القيادة. ثم جاء العساكر وفرقوا الجماهير مُهددين بالعصيِّ والسيوف فانفضت الجُموع وفي نيَّتهم ألّا يكفّوا عن ذلك حتى يكفُّ الشرطة عن جلد المساجين.

جمع مختار مستشاره ووزراءه وعلِم ما يُريد الناس فأصدر مجلس قيادة المؤامرة إلى حرس السجن أوامر بأن يكفّوا عن جلد من يُحققون معهم إلى أن يُزَوَّد أحد السجون بأقبيةٍ عميقةٍ لا يسمع الناس منها صوتاً. فتمَّ ذلك بعد

أسابيع، ونقل المساجين إلى تلك الأقبية واستؤنفت التحقيقات التي جاء على إثرها كبار الحرس الموكل إليهم بالتحقيق إلى أحد كبار الوزراء بمركز قيادة المؤامرة ورفع إليه خبر موت أحد المتمرِّدين ورفْض الباقين الإدلاء بأيِّ شيء. فرُفع ذلك الخبر إلى الملك وكان بحضرته المستشار الذي استأذن الملك في استدعاء كبير الحرس، فلّما مثل بين أيديهما أمره المستشار بحزمٍ بألّا يعود إليهم في المرة القادمة إلا بأسماء بقيّة المتمرّدين الذين لم يتم القبض عليهم، ثم أضاف قائلاً: "في إمكانك أن تلجأ إلى أيّة وسيلةٍ تراها مناسبةً وسنصدر لك إذناً خطيّاً بذلك، ولكن يجب أن تقوم بمهمَّتك على أكمل وجهٍ وإلّا فاترك المنصب لمن يستحقّه." فذهب كبير الحراس وقد أُطلقت يده إلى أسر المتمردين المقبوض عليهم وأقاربهم وخاصّة الأطفال ومن طعن منهم في السن وقبض عليهم، ثم أخذهم إلى السجن وعرضهم على المتمرِّدين وهدَّدهم بأنَّ ما يصيبهم من التعذيب سيصيب أولئك. ثم نال أهل المحتجزين نصيبهم من الجَلد فانهار المحتجزون وأسفرت التحقيقات عن كشف عددٍ أكبر من الشخصيات المشتركة في خطّة الإطاحة. فسُجنوا جميعاً وأعدم بعضهم. وعلم الناس بعد أن تم اعتقال عددٍ كبيرٍ من الشخصيات بأن التعذيب بالسياط قد استؤنف، ثم علموا بأمر الأقبية واستخدام ذوي السجناء في الضغط عليهم، فزاد حنقهم على المِلِك مختار ورفضهم لحكمه، ولكنّهم خشوا القمع والحبس والجلد، فقرروا أن يقبلوا الأوضاع كما هي. ولكنَّ مختاراً لم يستطع قبول الأوضاع كما هي، لذلك فقد بدا مهموماً وقلِقاً يسوؤه أن يمقته شعبه ويسوؤه أن يشعر أنّه مهدد، كل ذلك وصورة الهر ما تزال تطارده في ذهنه.

***

وجاء موعد الموكب التاسع وخرج المِلك في أبهى هيئةٍ وأفخم موكبٍ وسار في طرق الموكب المعتادة رافعاً يده طوال الوقت، وعلى جوانب الطرق اصطفَّ كثيرٌ من الناس، وعلى يمين كلٍّ مجموعةٍ ويسارها بضعة جنودٍ يحملون السيوف لإبقاء الناس مُتجمهرين عندما يمرُّ المِلك، ولإبقاء شفاههم مبتسمةً له وأيديهم مرفوعةً تُحيّيه. لم يكن المِلك مختار قد أمر بذلك ولكنَّه كان أذكى من أن تخدعه الابتسامات المتكلَّفة فللإبتسامة الحقيقيّة بريقٌ غيْر مرئيٍ، وهي لا تخرج من الشفاه فقط وإنما تخرج من الشفاه والعيون والوجه والكيان كلّه، لذا فقد كره يوم الموكب وتمنّى لو استطاع التحايل لإلغائه. لقد أشعرته تلك الابتسامات المصطنعة على وجوه الجماهير بالفشل المؤلم، ولم يستطع طرد صورتها من مخيِّلته فذهب إلى عمرو. وأمام القضبان قال له:

- إنَّ الشعب يمقتني يا عمرو.
- وما يهمّك من ذلك؟ أنت إنّما أردت المُلك ولم تُرد حبَّ الناس.
- ولكنَّ ذلك يجعلني مهدَّداً يا عمرو.
- ذُق ما أذقته الناس.
- إلى متى ستظلُّ حاقداً عليّ يا عمرو؟ صدِّقني لم أُبقك في السجن كرهاً لك بل حبّاً فيك يا عمرو.
- حبّاً فيّ!
- نعم يا عمرو... كنت أظنُّ أنَّني أحبسك خوفاً من أن تؤلِّب عليّ الناس، ولكنَّني عندما واجهت نفسي رأيت أنّني أستطيع أن أراقبك من حيث لا تعلم وأتجنَّب ما قد تدبِّره، ووجدت أنِّني لا أخاف خيانتك لي على الإطلاق فأنت لا تخون، ولكنَّني أحبسك لأنَّني أعلم أنَّك حالما تخرج من هنا

فستغادر المدينة وربَّما البلد وعندئذٍ لن أراك ثانيةً، لذلك فأنا أفضِّل استبقاءك هنا.

- لأكون الأذن التي تستمع إليك ولا تملِك ألّا تفعل.

- لا تسئ الظنّ بي يا عمرو... فأنت أكثر من أذنٍ تستمع إليَّ رغم إرادتها.

- أنا أيضاً لسانٌ يقول لك ما تريد أن تسمع.

- بل أنت لسانٌ سليطٌ جارح، ولكنَّ ذلك لم يجعلني أكرهك يا عمرو.

- لأنَّك تحبُّ أن تسمع ما أقول، وتريد أن تسمعه لأنّه العقاب الذي يسرُّك أن تتلقّاه نظيرَ ما ترتكِب من آثام.

- هُراء، سُخف!

- بل هو حقيقةٌ يا مختار، إنّني ضميرك الذي تسجنه منذ سنوات، لماذا لا تُطلق سراح ضميرك وتُطلق سراحي معه؟

- ما معنى هذا الكلام؟

- اعتزل الحكم يا مختار، عندئذٍ ستحرر ضميرك السجين.

- أعتقد أنَّ السجن قد أفقدك عقلك! لن أتنازل عن الحكم وأضعه في أيدي تلك الشراذم التي تتجمَّع من حينٍ إلى حينٍ لتطيح بمُلكي فأسحقها كالنملة.

- ألم تكن أنت نفسك قائد شرذمةٍ تريد أن تطيح بالمَلِك يوماً؟

- لا، لو كنت مثلهم لسحقني الملِك ولكنّني ملكٌ حقيقيٌّ لذلك فأنا الذي سحقته.

- ولكنّه كان يراك مثلهم، ولو تمكَّن منك لربّما فعل بك ما تفعل بهم... لقد سمعت عن تعذيبك للجماعة الأخيرة التي قبض عليها حرسك.

- كان لا بد من تعذيبهم لنعرف بقيَّة المُخربين الذين يريدون المساس بأمن البلاد.

- ولكنْ هل كنت ترضى بأن يُفعلَ بك ذلك لو فشلت خطتك؟

- لو قبض المَلك السابق عليّ لكان من حقِّه أن يفعل بي ما يشاء.
- ولكنّك كنت ترى أنَّك أحقُّ بالمُلك منه كما أظهرت لك البحيرة.
- لو قبض عليّ لأثبت أنَّه أجدر منّي به، ولكان من حقِّه أن يفعل بي ما يشاء.
- ما هذا المنطق؟ هل القوَّة هي المقياس الوحيد عندك؟ وهل يُحكم على الأمور بنتائجها؟
- نعم.
- إذن فلا وجود للحقيقةِ ولا حقيقةَ لشيءٍ ما دام محكوماً بقوَّة الظروف الأخرى.
- الشيء يثبت جدارته إذا جعلك تنجح في حمايته.
- تلك لعنة البحيرةّ، إنَّني أزداد احتقاراً لك كلَّما تحدثت معك فاذهب، دعني واذهب، لا أستطيع أن أحتملُك أكثر من ذلك.
- عمرو! ما هذا الكلام؟
- إذهب يا مختار الآن وإلا صرخت بالحرس وكشفت أمرك أمامهم.
- حسناً سأذهب فلا تصرخ.
- ولا تأتِ ثانيةً، هل فهمت؟

صمت مختار وانسلَّ خارج السجن بسرعةٍ بعد أن شعر من ارتعاشة صوْت عمرو الغاضبة أنَّه من المؤكَّد أنّه سينادي الحرس ويفضحه أمامهم. أما عمرو فقد جلس على سريره ينتظر سكوت غضبه الذي أثاره مختار. ثم أخذ يتفكَّر في ما آلت إليه الأمور ويتأمَّل ما حدث في البلاد منذ استلم مختار الحكم، فجرَّه التفكير في شخصيته إلى التفكير في بقيَّة المجموعة القديمة التي لم يبق منها إلا أشلاء. لقد ساء حال البلد لأنَّ من فيه انقسموا إلى خمسة أصناف، صنفُ مختار الذي يعشق السلطة ويطمع فيها فيغتصِبها اغتصاباً

وهو ليس أهلاً لها لدى أدنى إشارةٍ ولو كانت وهماً، ثم تجعله محاولة الحفاظ عليْها يتخبَّط في الحكم؛ وصنف آدم الذي يرى مصلحته فوق كلِّ شيءٍ ولا يتوانى عن وضع يده في يد الشيطان إنْ ظنَّ أنَّ فيها مصلحته؛ وصنف دريد الذي يعيش ويموت وهو لا يعلم أبعاد ما يفعل ولا ما يتوجَّب عليه أن يفعل، بل يترك نفسه كالقشَّة التي تسقط على سطح ماءٍ فتكون تحت رحمة التيّار يأخذها حيْث يشاء لأنّها لا تعلم كيْف تُقيِّم الأمور وتنتقي منها ما تشاء؛ وصنف هيثم الذي يعلم المزالق ولكنَّه يسير فيها لأنّه يشعر بسيوفٍ تطارده، ولا يستطيع التوقّف ليتحقَّق من وجود هذه السيوف، لأنّه أجبن من أن ينظر خلفه، وعيْناه أجبن من أن تلتقيا بتلك الأشباح لتحارباها وتبدِّداها ليتسنّى له أن يتّخذ طريقاً أخرى لا مزالق فيها؛ أما صنفه هو فهو الصنف الخامس الذي يرى المزالق ويترفَّع عن السيْر فيها، ويرفض ذلك وإن طاردته سيوفٌ حقيقيّة، ولكنّه يدفع ثمناً غالياً في سبيل ذلك، إنْ لم يكن حياته فحرّيته... فهل ثمَّة صنف سادس؟ صنف يرفض أن يُقتاد إلى المزالق ولكنّه لا يفقد شيئاً نظيرَ ذلك؟ تنهّد عمرو وهو يفكّر في هذا الصنف الذي لم يره. ولكنّه رأى في النهاية أنَّ هذا الصنف لن يوجد أبداً ما دامت السلطة في يد شخصٍ من الصنف الأول، إذن فالحلُّ هو إصلاح الصنف الأول لينعم الصنف الخامس بالحرية، ولكن هل من سبيل إلى إصلاح مختار؟

١٠

مضت على عمرو ساعات وهو يفكِّر بعمقٍ فيما يجب فِعْله؛ شعر أنّه وإن كان في السجن إلّا أنّ عليْه أن يفعل شيئاً للبلاد ولمختار، يجب أن يجعل مختاراً يُغيِّر سياسته التي تقود البلاد إلى حافّة السقوط، يجب أن يُصلح الصنف الأوّل لكي يُحرِّر خمس الناس، أو لكيْ يفسح المجال لصنفٍ جديدٍ لا يدفع حرِّيته أو حياته ثمناً لرأيه أو موقفه. وتلاحقت في مخيِّلته صوَرٌ كثيرةٌ عمّا يرويه له زوّاره من الفوضى التي اختلقها مختار في البلاد، فنهض من سريره وأخذ يمشي في حُجرته الصغيرة ويفكِّر كيْف يُوقف مختاراً ويضع حداً لتخريبه في البلاد، فاهتدى أخيراً إلى المحاولة عن طريق المستشار سفيان الذي يعلم أنّه المُشجِّع الأوّل له على ارتكاب ما يرتكبه في حقِّ البلاد، فنام بعد أن استقرَّ رأيه على القيام بتلك المحاولة. وفي الصباح طلب إلى أبيه أن يستدعِيَ له المستشار، فدُهِش صالحٌ من هذا الطلب ولكنَّ عَمْراً أصرَّ ورجى أباه أن يفعل.

وفي اليوم التالي وبينما كان المُستشار في بيته يستعدُّ للخروج إذا بأحد خدَمه يُخبِره بأنَّ شابّاً يريد مُقابلته، فأمر بإدخاله إلى قاعة الاستقبال ثم أكمل لِبسه ودخل القاعة حيث كان مسعودٌ ينتظِرُه واقفاً بأدبٍ جَمٍّ ويداه مبسوطتان

عليهما اللحية والشاربان الاصطناعيّان. عجِب المستشار لمرآه بهيئته البسيطة وما يحمل في كفَّيْه فسأله من يكون فقال له مسعود:

- لا يهمّ من أكون ولكنَّني جئتك برسالةٍ من عمرو، ابن صالح الحدّاد.

- ومن هو عمرو ابن الحدّاد هذا؟

- إنّه صديق المَلك السجين.

- صديق الملك السجين! نعم، نعم، لقد سمعت عنْه... ماذا يريد منّي؟

- يريدُك أن ترتدي ملابس بسيطةً شبيهةً بملابسي وتُلصِق هذه اللحية وهذين الشاربين على وجهك وتزوره في السجن.

- ما هذا السخف؟ ألا ترى أنَّ لديَّ لِحية؟ وهي لحيةٌ جميلةٌ، مهذبةٌ ومقصوصةٌ بعنايةٍ كما ترى، لم أهُملها يوماً وأتركها تتعدّى ذِقني، فكيْف يُصوِّر لك عقلك الصغير أنَّني سألبِس هذه المقشّة؟

- يجب أن تفعل ذلك يا سيِّدي، فلا أحد يستطيع أن يزوره بدون هذه المقشَّة... أعني... كلُّ الزوّار يجب أن يُشبهوا أباه، ذلك قانون الزيارة.

- وما الذي يُجبِرني على زيارته؟

- يقول عمرو إنَّك يجب أن تذهب لأنَّه يُريدك في أمرٍ شديد الأهمِّية.

فأخذ المستشار يعبث بلحيته المهذَّبة وقد بدأ الفضول يتمكَّن منه ثم قال:

- أما والحالة هذه أظن أنَّه لا ضرر من الذهاب، ولكنّي أذكر أنّي رأيت أباه مرّةً وأعلم أنّه ليس سميناً مثلي، أيْ أنَّ هذه اللحية لن تجعلني أشبهه تماماً.

- لا يهم، فالحرّاس لن ينظروا إلى حجمك سيّدي، لن ينظروا إلّا إلى لحيتك وشاربيك.

- حسناً، سأحاول فعل ذلك.

فرح مسعود بموافقة المستشار على الذهاب وشكره ثم ناوله اللحية والشاربين وغادر القصر بينما أخذ سفيان يتأمَّل ما في يده وهو يُفكِّر. ثم وضع تلك الأشياء في خزانة الملابس وخرج.

وفي اليوم التالي ارتدى ثياباً بسيطةً وتنكّر في شكل صالح الحدّاد واتّجه إلى السجن وهو يشعر بالقلق، ولكنَّه فوجىء بأنَّ الحرّاس أدخلوه إلى السجن بلا مناقشةٍ وأوصله أحدهم إلى نافذة عمرو مُدركاً أنَّه لم يزُره قبل ذلك، ثم تركه معه وانصرف. وهناك تعرَّف بعمرو ثم سأله عمّا يريد فأخبره عمرو بأنّه يريد أن يوصيه خيْراً بالبلاد وأن يُحاول جعل مختار يُصلحها ويشيع فيها العدْل وبألّا يُعينه على تخريبها، فاستاء المستشار وقال له:

- ما هذا الكلام الذي تقوله؟ كيف تجترِىء عليَّ وأنا مستشار المَلك المعظّم!

- بل أجترِىء عليْك وعلى مَلكك المعظّم!

- ما أوقحك! لقد تجاوزت حدودك!

- بل أنت من تجاوز حدوده بالتخريب الذي تُشير به على مَلكك الأحمق.

- وتسبُّ المَلك المعظَّم أيضاً!

- لو لم يكن كذلك لما استمع إلى نصائحك الخبيثة التي تضُرُّ أهالي البلد المساكين.

- لو كنت أعلم أنّك لن تلتزم الأدب معي لما أتيتك كما طلبت.

عندئذٍ أدرك عمرو أنّه اندفع أكثر من اللازم بتطاوله على المستشار مما قد يؤدي إلى نتيجة معكوسة فقال متلطّفاً:

- أعذرني أيّها المستشار سفيان إنْ كنت أسأت الأدب معك ولكنّي غاضبٌ بسبب ما يفعله مختار بالبلد.

- ما الذي يفعله المَلك المعظّم مختار في البلد غير الخير؟ إنّه لم يفعل ما فعل إلا ليستتب الأمن فيه وليتمكَّن من بناء ما ينفع أهله من مرافق هامّةٍ وغيرها.
- والظلم أيّها المستشار سفيان، والقتل، ماذا تقول فيهما؟
- لا بدَّ للأسد أن يزْأر أحياناً ويضرب بين الفيْنة والفيْنة لتنضبط الرعيَّة.
- أرأيت؟ كنت متأكّداً من أنّه لا يجد لديْك إلّا ما يُزيِّن له الظلم ويعينه عليْه.

أغضب ردُّ عمرو المستشار مرةً أخرى فلبِس لحيته وشاربيْه وقال له غاضباً: "لطالما عجبت من حبْس المَلك مختار إيّاك وأنت صديقه، ولكنِّي علمت الآن أنّك تستحقُّ الحبس، بل لو تُرك الأمر لي لأعدمتك نظير تطاوُلك ووقاحتك!" ثم خرج المستشار وجلس عمرو على سريره يفكِّر في أمره ويؤنِّب نفسه على إفساد فرصةَ نُصح المستشار بقلّة صبْره وعدم السيطرة على انفعاله، وعجزه عن أن يخفي شعوره تجاهه. أمّا المستشار فقد أخذ يفكر طوال الطريق فيما قاله عمرو وغضبه عليه ما يزال على أشدِّه، حتى وصل إلى البيت ودخل وطرح عنه تلك الثياب وارتدى ثيابه المعتادة. ثم أخذ يدور في حُجرته مُفكِّراً في وسيلةٍ يتخلَّص بها من عمرو الذي شعر أنّه لن يكتفي بالتحدُّث معه وأنّه قد يحاول تأليب الملك عليه.

وفي اليوم التالي توجه المستشار سفيان إلى قصر المَلك مختار الذي كان في قاعة الاجتماعات. فلما أُدخل عليْه حيّاه بأدبٍ شديدٍ ثم وضع لحية صالح الحدّاد وشاربيْه أمامه على المنضدة وتراجع بشكلٍ مهذَّبٍ إلى الخلف. وما إن رأى المَلك اللحية والشاربين أمامه حتى بدا عليْه الحرج الشديد وقد ظنَّ أنّهما سقطا منه أمام المستشار في مكانٍ ما فعلِم بأمره، ولكنّه تماسك وسأله:

- ما هذا؟
- إنّها لحية صالح الحدّاد أبي عمرو وشاربيْه أيّها المَلك المعظّم.
- وماذا تفعل لحية صالح الحدّاد وشاربيْه أمامي؟
- جئت بها لأكشف لكم خيانة صديقٍ منحه سيِّدي المَلك المعظم من صبره ما لا يستحقّ.
- ماذا تعني؟
- لقد أرسل إليّ عمرو هذه الأشياء لأرتديها وأخدع بها الحرّاس، أخدع بها حرّاس سجنك يا سيّدي المَلك المعظّم، وأزوره هناك.

فشعر المَلِك بالحرج وتشاغَل عن المستشار بتفحّص اللحية، ثم رفع رأسه ناظراً إليه وسأله:

- وهل ذهبت إليه؟
- أذهب إليْه يا سيّدي الملك المعظم؟! أذهب إليْه وهو...
- ولكنّه صديقي، ألا يجعلُك ذلك تميل إلى تحقيق رغبته؟

ما إن سمع المستشار ردَّ المَلك حتّى وضع تعديلاً لخطّته بسرعةٍ تتجاوز كلَّ المقاييس فقال:

- طبعاً، طبعاً يا سيّدي المَلك المعظّم... لم أستطع تجاهُل رغبة صديق سيّدي المَلك المعظّم... لقد ذهبت في الحال.
- وماذا كان يريد منك؟
- ربما كان ينبغي عليَّ ألّا أخبر سيِّدي المَلك المعظّم بما كان يريد منِّي تجنُّباً لمضايقته، ولكنَّ الإخلاص الذي أكنُّه لسيّدي المَلك المعظّم يدفعني إلى أن أخبره.
- تكلّم أيّها المستشار سفيان.

فمسح سفيان جبهته وخدَّه الأيْمن وقال: "كان يريد أن يُؤلِّبَني عليْكم يا سيِّدي المَلك المعظّم." فقال مختار بدون تردُّد:

- عمرو لا يفعل ذلك.
- ولكنَّه قال يا سيِّدي... قال... إنَّني لا أستطيع أن أتفوَّه بما تطاول به على سيِّدي المَلك المعظَّم من كلمات.
- إنّه صديقي منذ زمنٍ بعيد، لذلك فهو يتكلَّم عنِّي كما يشاء، ولا يُضايقني ما يقول.

فمسح المستشار جبهته وخدَّيْه مرةً ثانيةً وقال:

- ولكنَّه حاول تأليبي عليْكم يا سيِّدي المَلك... المعظّم.
- أظنُّ أنّه كان يوصيك بي خيْراً.
- ولكنَّ ما قاله كان يُوحي بأشياء كثيرة...

ثم نظر إلى المَلك نظرةً احتشَدت فيها كمّيةً هائلةً من الخبث تحاول إغراء مختار بحشْد كمّيةٍ مماثلةٍ منه ضدَّ صديقه السجين قبل أن يكمل قائلاً:

- ... ولوْ سمعه غيْري لربَّما أثَّر في نظرته إلى الملك... إنِّني أراه أشدُّ خطراً من البائديين الآخرين من أتباع المَلك السابق لأنَّه أكثر جُرأة. وهو لا يتوانى عن شيءٍ مُستغلّاً صداقتكم يا سيِّدي المَلك المعظّم وعطفكم عليْه، ولو حُكِّمت فيه لأمرت بإعدامه حفاظاً على مكانة سيِّدي المَلك المعظم في قلوب شعبه.

فظهر الغضب الشديد على وجه مختار وقال بلهجةٍ صارمة:

- إسمع أيّها المستشار سفيان، إنّني أعرف عَمْراً أكثر مما تعرِفه، وأعلم أنَّه لم يكن ليؤلِّب عليَّ أحداً ولم يكن ليحاول الإضرار بي! واعلمْ أيَّها المستشار سفيان أنَّ ثقتي به أكبر من ثقتي بك بكثيرٍ لأنّك لو كان الأمر بيدك لأزلتني عن عرشي وجلست عليه مكاني. ولو خُيِّر هوَ بين أن أُقتلَ

ويأخذ مكاني أو يُترك في السجن لآثر أن يُترك في السجن، فخذ أشياءك هذه من أمامي ولا تحاول تأليبي عليه ثانيةً!

صمت المستشار شاعِراً بإهانةٍ كبيرةٍ والتقط اللحية والشاربين من أمام المَلك الغاضب، وخرج بهدوءٍ بعد أن ودَّع المَلك باقتضاب.

وما إن وصل المستشار إلى بيته ودخل غرفته حتى أخذ يضرِب رأسه في الجدار وهو يصرخ من الغيْظ. فأسرعت إليه زوجته وسألته إنْ كان يعاني من محاولة إخفاءِ سرٍّ فاستند إلى الجدار الذي كان يضرب به رأسه وأخبرها أنَّ ما به أكثر إيلاماً من أسرار الدنيا كلّها لو اجتمعت في رأسه. ثم جلس على الأرض في مكانه عند الجدار وساقاه مُمدّدتان أمامه وكأنَّهما قطعتا خشبٍ غليظتان مُلفيَتان بإهمال، وغطّى وجهه بيديْه المُكتنِزتيْن فزاد قلق زوجته وفضولها فجلست أمامه وسألته ما بهِ وهي تحدِّق في الورم المُحمَّر الذي بدأ يتكوّن أعلى جبهته، فرفع رأسه وظهرت عيناه المقهورتان اللامعتان بفعل أدمعٍ داخليةٍ، واللتان نظر بهما إلى زوجته وقال بصوتٍ تكاد العَبرة تخنقه: "بعد كلِّ هذه المدَّة التي خدمت فيها الملك مختار أرى أنّني لم أكتسب شيئاً من مودَّته وثقته... وبعد أن فعلت من أجله ما فعلت..." فنظرت إليه زوجته بعطفٍ شديدٍ وقالت له: "ما الذي جعلك تشعر بذلك؟" فتنهَّد وقال: "لقد كنت أؤلبَّه على هيثم وآدم وأبرز له تفوُّقي عليهما. وكنت أظنُّ أنَّ ثقة المَلك ستكون لي بلا منازعٍ بالخلاص منهما. لم ألقِ لصديقه السجين بالاً ظنّاً منّي بأنّه لا خوْف منه ومن منافسته، حتّى جاء هذا اليوم الكئيب ليَطأ آمالي بلا شفقةٍ ولا رحمة.. ويقول لي بقسوةٍ إنّني ما أنا إلا سفيان، أجير المَلك الذليل الذي لا يستطيع أن يحظى بذرَّةٍ من احترامه وثقته." فاقتربت سُعدى وهي تقول: "ما هذا الذي تقوله؟ إنَّ كلَّ الناس يعلمون مدى حبِّ المَلك لك وثقته بك يا سفيان." فهزّ سفيان رأسه نفياً بضعفٍ وقال:

- لا، كلُّ الناس مُخطئون إذْ يظنّون ذلك... لقد علمت اليوم أنَّ المَلك مختار بالرغم من سجنه عمرو إلّا أنَّه يُولِيه في سجنه من المحبَّة والاحترام والثقة... العمياء ما لا يُولِيني إياه... حتّى أنَّه وهو الذي يُصدِّق كلَّ ما أقوله له، كذَّبني فيما قلت، واثقاً بعمرو ومطمئِناً إلى صدقِه بلا مناقشة، ومُحسِناً الظنَّ فيه إلى أبعد الحدود...

- ولكن ما الذي ذكَّرك بذلك السجين؟

- هو ذكَّرني بنفسه.

وأشار إلى اللحية والشاربين والحلَّة التي تنكر بها وقال: "لقد أرسل إليّ بتلك اللحية والشاربين لأتنكَّر في هيئة والده الذي لا يُسمح لأحدٍ بزيارته غيره، وطلب إليَّ أن أزوره، ليوصيني بردع صديقه المَلك، وعندما أخبرت المَلك بما حدث راجياً معاقبته على ما فعل دافعَ عنه وأهانني أشدّ الإهانة." فقالت زوجته والفضول يشعُّ من عيْنيْها: "ولكنْ هل تُشبه أباه يا سفيان فيما عدا الشاربين واللحية؟" فاصطنع ابتسامةً ساخرةً رغم حُزنه وقال:

- لا يهمّ، حتّى أنتِ يا سُعدى تستطيعين أن تزوريه إذا لبِست تلك اللحية والشاربين، ذلك قانون مَلِكنا المعظّم!

- قانون! هل هو قانونٌ فعلاً أم أنَّ المَلك يتحامق؟

- بل يتحامق ما دام الأمر مُتعلِّقٌ بعمرو... أما أنا مستشاره المِسكين فلا يتحامق من أجلي إطلاقاً.. بل يَكيل ليَ الإهانة تِلْو الإهانة...

ثم مسح دمعةً نجحت في التملّص من إحدى عيْنيْه وأكمل: "لن أحظى ما حييت بعُشرِ ما يحظى به عمرو من ثقة المَلك واحترامه... مع أنَّه لا يقدِّم له عُشر ما أقدِّمه له من الاحترام والتبجيل." ثم مسح وجهه بكفِّه وكأنَّه يحاول مسح المَسْكَنة والمذلَّة ورفع رأسه بكبرياء سرعان ما اختفت من وجهه وعادت إليه تلك النظرة الحزينة المقهورة وقال: "لقد أهانني اليوم، أهانني

ناسياً أنَّه لوْلاي لما كان شيْئاً، لولا مساعدتي وخططي لما تمكَّن من هزيمة المَلك السابق.." فتقافزت نظرات فضولٍ قويٍّ من عيْني سُعدى وقالت له: "أخبرني عن تلك الخطط يا سفيان." فنهرها قائلاً: "ألا تكفِّين عن هذا الفضول؟" فصمتت وصمت ثم هزَّ رأسه مُتأمِّلاً الأحداث وقال: "وفي الوقت الذي يسبُّه فيه عمرو يحظى بكامل احترامه وثقته... وأنا الذي أكبُره بعشرين سنة، أنا الذي في سنِّ والده، لا أناديه إلا بسيِّدي المَلك المعظّم... سيّدي المَلك المعظّم مختار... سيّدي..." وخنقته العَبرة ولم يستطع إكمال كلامه، فخلعت زوجته حِزامها الحريريّ وربطت به رأسها لتُخفِّف الصداع الذي تسلَّل إليه، وأخذت تنظر إلى زوجها وهي تربت على يده وتنتظر بقيَّة الكلام، ولكن المستشار اكتفى بذلك القدْر من الانهيار فنهض من مكانه وأكمل أفكاره في سرِّه.

لقد رأى المستشار في ذلك اليوْم أنَّ عَمْراً السجين قد يكُون خطراً عليْه لأنَّه من الواضح أنَّ المَلك يزوره بدليل ما ظهر على وجهه من الحرج عندما وضع اللّحية والشاربين أمامه، ولا يستبعد أن يُؤلِّبه عليه فيجد لديْه أذناً صاغيةً خاصّةً بعد أن أظهر له المَلك بوضوحٍ أنّه لا يثق به مثل ما يثق بعمرو. فصمَّم على الخلاص من عمرو بأيِّ وسيلةٍ فلم يرَ غير دَسِّ السُّم في طعامه بالاتّفاق مع بعض موظّفي السجن.

وفي اليوم التالي تنكَّر سفيان بشكلٍ آخرَ وذهب إلى السجن وانفرد بميسرة الحارس وأراه كيساً به قدرٌ هائلٌ من المال وطلب إليه أن يدسَّ سُمّاً في طعام عمرو، ولكنَّ الحارس ما إن سمع ذلك حتى هبَّ واقفاً ونهر الرجل وطرده بعد أن أغلق عليه باب الاتفاق مع غيره بإخباره أنَّه لن يجد أحداً يتفقَّ معه ضد عمرو، وأنَّه من باب الاحتياط سيوكل بالطعام من يُراقبه. فخرج

المُستشار وقد أضيف همٌّ جديدٌ إلى همِّه السابق. وفي المنزل انهار ثانيةً أمام زوجته وجلس أمام ذلك الحائط مُمدِّداً ساقيْه يتحدّث إلى زوجته المعصوبة الرأس عن عمرو. ثم صمت بُرهةً بدت فيها على وجهه حيرةٌ كبيرةٌ ثم قال: "لم أرَ في حياتي إنساناً يَحظى من المحبّة والاحترام بما يحظى به ذلك الرجل... لقد جعلني ما رأيت من المَلك وحرّاس السجن أراجع حياتي كلَّها وأتساءل؛ هل كنت أتّبِع أسلوباً حكيماً في تعامُلي مع الناس؟" ثم هزَّ رأسه نفياً وهو ينظر إلى زوجته وقال: "أظنُّ أنّني نشأت نشأةً مختلفة، لا أعلم لماذا كنت أظنُّ أنَّني يجب أن أجرِّب كلَّ الوسائل الشريفة وغيْر الشريفة إذا تعذَّر عليَّ تنفيذ شيءٍ أريده." فقالت زوجته وهي تربت على يده: "ولكنَّ كلَّ الناس يفعلون ذلك يا سفيان." فالتفت إليها سريعاً وقال:

- لا! عمرو لا يفعل ذلك.
- ولكنَّه مجنونٌ لا يُعتدُّ بتصرُّفه، ألا تراه يُفضِّل السجن على المنصب الرفيع...
- لو كان مجنوناً لما حظِيَ باحترام كلِّ الناس.
- يبدو أنَّ كلَّ الناس مجانين.
- لا يا سُعدى، ليس كلُّ الناس مجانين، ويجب أن نعترف أنّنا قد نكون دونهم.

استاءت سُعدى من وصفها بأنّها دون الناس فقالت بشموخ: "لا، لسنا دون الناس يا سُفيان، فلا تجعل ذلك السجين الأحمق يؤثّر في نظرتك لنفسك، ولا تنس أنَّك كنت مستشاراً مُحنَّكاً للمَلك السابق ثم أصبحت المستشار الأوَّل والوحيد لهذا المَلك ولا أحد يُنكر ذلك." فتنهَّد بألم وقال:

- وحتّى هذا المَلك الذي قدَّمت له ما أستطيع من فِكْرٍ وحيلةٍ ودهاء، لا يحترمني.

- لماذا تقول ذلك يا سفيان؟
- لأنَّني رأيت بعيْني كيْف تلمع عيْناه فرَحاً بما أدبِّر له من حِيَلٍ تُخرجه من متاهاتٍ ما كان ليخرج منها لولا دهائي، وفي الوقت ذاته أراه لا يكِنُّ لي إلا الاحتقار... وهذا ثمن الإخلاص له بعد هذه السنين.. يستفيد من ذكائي ولكنَّه لا يحترمه بل يسمِّيه خُبثاً ولا يقدّم لي ثمناً له إلا قلَّة الاحترام وقلَّة الثقة.

فقالت وهي تحكم الرباط حول رأسها:

- هوِّن عليْك يا سفيان.
- كيْف وأنا مهدَّدٌ من قبل عمرو ومحتقرٌ عند المَلك مختار... أعني سيِّدي المَلك مختار... سيِّدي المَلك المعظّم مختار الذي لم يكن ليُسمّى المَلك المعظَّم لولاي.

لم تحتمل سُعدى المزيد من آلام زوجها وآلام الصداع فنهضت وهي تمسح دمعتيْن من عيْنيْها تاركةً إيّاه غارقاً في همّه يفكّر كيف يخرج من ذلك المأزق الذي وُضع فيه.

وفي اليوم التالي تغيَّب المستشار ليوْمه الثاني على التوالي عن عملِه بمركز قيادة المؤامرة العُليا، وأرسل أحد كتَبتِه يعتذر عن تغيُّبه وجلس هوَ في المنزل يجترُّ آلامه. وعلم مختار بتغيّب المستشار ذينك اليومين فجلس إلى زوجته عصراً بالقصر المَلكي يتحدّث إليها عن المستشار مُبدياً أسفه على تسرُّعه وإيذائه العجوز المسكين. لقد أشعره تغيُّب المستشار أنَّ ذلك الرجل الضخم، ذلك الجُرم الجريم من الحسِّ المتبلِّد والتملُّق والقدرة على احتمال مختلف الظروف الصعبة – بما فيها الإذلال الذي يُصيبه عندما يحدُث ما يغضبه منه– قد انصدع أخيراً بعد أن وهنت قوَّته. فشعر بالشفقة على

مستشاره وفطِن إلى أنّه ينبغي عليْه أن يطيِّب خاطره ويُزيل من نفسه كلَّ أثرٍ للإهانة، خاصّةً وأنّه لا ينبغي أن يترك له مجالاً لاستغلال ما يعلمه من أسرارٍ ضدَّه كما فعل بالمَلك السابق. وشعر أنَّه لم يكن ينبغي منه أن يتمادى في دفاعه عن عمرو إلى إهانة المستشار، فعمرو كان ضده من البداية إلى النهاية، أما هوَ فقد أعانه على تحقيق ما أراد. وهو لا يستطيع أن ينسى ما أسداه إليْه من خدْماتٍ ينبغي أن يجزيه عنها خيراً. أما شعوره باحتقار خُبثه فينبغي أن يظلَّ مخبأً كما يُخبِّىء هوَ كلَّ ما يشعره تجاهه ولا يُظهر له إلا التبجيل. وفي الحال أرسل المَلك مبعوثاً للمستشار يستدعيه إلى قصره، فعجب المستشار ولم يستطع توقُّع ما يريد المَلك منه، ولكنّه أبدل ملابسه وخرج متوجِّهاً إلى القصر في الحال. وهناك سأله المَلك عن تغيُّبه وكلَّمه بتلطّفٍ عن شعوره بأنَّه أساء إليْه بلا قصدٍ منه، ثم قدَّم له هديَّةً ثمينةً كمكافأةً على إخلاصه في عمله، وأعلمه أنَّه زاد راتبَه، فاشرق وجه المستشار واطمأنَّ إلى أن علاقته بالمَلك قد عادت كما كانت بعد أن عرف هوَ حدوده التي يجب عليْه أن يقف عندها. وعندما عاد إلى قصره أخذ يُهرول بخفةٍ بيْن الحُجرات والغُرف باحثاً عن سُعدى ليُعلِمها بذلك النبأ السعيد، ولكنَّها لم تكن هناك.

***

كان وصف سفيان لعمرو قد أثار فضول سُعدى فصمَّمت على رؤيته خاصّةً بعد أن علِمت سهولة الدخول إليه. وعليْه فقد لبست لِحية وشاربيَّ صالح الحداد وتوجَّهت إلى السجن، وأدخلها الحرّاس وهم يتضاحكون منها إلى أنْ أوصلها أحدُهم إلى نافذة عمرو. وهناك تقابل وجهان مُندهِشان ثم سأل عمرو بعد أن خلعت سُعدى اللحية والشاربين: "من أنتِ؟" فقالت له بفخر: "أنا سُعدى زوجة المستشار سفيان." فزادت دهشته وسأل: "ماذا تريدين؟"

فقالت: "لقد تحدَّث زوجي عنك كثيراً، وامتدحك بشكلٍ جعلني أصمِّم على رؤيتك." فتضاعفت دهشته وقال: "زوجك، المستشار سفيان، يمتدحني أنا؟" فقالت: "نعم." وأخذت تنظر إلى وجهه وأصابعه المُمسكة بإثنيْن من القضبان بفضولٍ شديدٍ وكأنَّها تشاهد مخلوقاً جديداً ليس له مثيلٌ أو نوعاً غريباً من القردة، ثم قالت:

- يبدو من وجهك أنَّك إنسانٌ طيِّبٌ كما يُقال عنك، فملامحك تشبه ملامح الأطفال في براءتها، وذلك يعني أنّك لم ترتكب ذنوباً كثيرةً ترسم الخبث على وجهك.
- إنِّك تقولين كلاماً غريباً جداً.. لا أعلم ماذا تريدين.
- لقد جعلت زوجي يضرب رأسه في الحائط فجئت أراك.
- يضرب رأسه في الحائط؟ لماذا؟
- لقد شعر بالغيرة منك لما لك من حظوةٍ عند المَلك المعظّم.

فتلفَّت عمرو إلى الجدران الكئيبة من حوله وقال وعلى وجهه ابتسامةٌ ساخرة:

- حظوة؟!
- نعم حظوةٌ كبيرةٌ، فالمَلك يُحبّك كثيراً ويثق بك ثقةً لا يُولي زوجي...

ثم توقفت عن الكلام وأطرقت تفكِّر بينما أخذ عمرو ينظر إليها بدهشةٍ شديدةٍ إلى أن رفعت رأسَها مبتسمةً وقالت:

- عُشرها! تذكَّرت أخيراً، لقد قال إنَّ المَلك يُوليك ثقةً لا يُوليه عُشرها... وقد علم زوجي بالأمر مُؤخراً ومنذ ذلك اليوم وهو مهمومٌ تكاد الغيرة تحرق قلبه.
- غيرة؟ كيف يشعر بالغيرة من رجلٍ سجين؟

- لا يهمُّ المكان بل ما يتمتَّع به الإنسان من مكانةٍ عند المَلك المعظّم.
فاستسخف عمرو ما تقوله سُعدى ولكنَّه وجد أنَّه قد يستطيع أن يصل من خلالِها إلى ما فشل في الوصول إليْه من خلال زوجِها فقال لها: "هل تعلمين لماذا استدعيْت زوجك؟" فقالت بفضول: "لا." فقال:

- أردت أن أطلب إليْه أن يحاول إرشاد المَلك إلى طريق الصواب فأنت تعلمين مدى تأثيره في المَلك.

- نعم، نعم.

- أردت أن يجعله أكثر رحمةً بالناس.

- ولكنَّ المَلك المعظّم رحيم.

- ولكنّه عذَّب كثيراً من الناس وسجن كثيراً منهم بلا ذنبٍ كما سجنني منذ ما يقرب من عشر سنين، هل تستطيعين أن تعيشي في مكانٍ واحد عشر سنين؟

فاقشعرَّ جِلدها من الفكرة وقالت بلا تردد:

- لا، لا.

- والمساكين والعجزة الذين قطع إعاناتهم... أظنُّ أنَّ عليْك أيَّتها السيِّدة الكريمة أن تتحدَّثي إلى زوجك في هذا الأمر، وقد يستمع إليْه مختار فيكون لك شرف إنقاذ أولئك المساكين الذين يأكلون يوماً ويقضون اليوم الآخر جياعاً.

ولم تُجب سُعدى فقد شعرت بصداعٍ جعلها تودِّع عَمراً ثم تلبس لحيتها وشاربيها وتنصرف.

وعاد عمرو إلى سريره ضاحكاً وهو يهزُّ رأسه عجباً من فضول تلك المرأة الذي جعلها تلتحي وتأتيه، ثم جلس وأخذ يفكر فيما حدث. استغرب

كثيراً إذ يرى أنّ هناك من يظنُّ أنَّ له حظوةً عند المَلك، وساءه أن يرى أناساً عمِيَت أبصارهم عن كلِّ ما لديْهم من النعم ولم تُبصر إلا شيئاً قليلاً من المودَّةِ التي يكنّها له مختار أثناء إبقائه إيّاه تحت قدمه.

عندما وصلت سُعدى إلى المنزل كانت تفكِّر في زيارتها للسجن فدخلت القصر سارحةً وهي ما تزال مُتنكِّرةً بزيِّ صالح الحدّاد وأخذت الخادمات تتضاحكن وهيَ غيرُ مُنتبهةٍ إلى أنْ سمعت صوت سُفيان يناديها، فانتبهت إلى نفسها وحاولت الإختباء ولكنَّه رآها قبل أن تخلع لِحْيتها فغضب غضباً شديداً ولامها على ذهابها إلى السجن، فقالت مبررةً له ما فعلت: "أنت تعلم أنّني شديدة الفضول... عندما وصفت لي عَمراً وقلت إنِّه إنسانٌ يحظى باحترام المَلِك وكلِّ الناس أردت أن أراه." ثم ابتسمت وأكملت:

- وقد وجدته كما قلت تماماً حتّى أن براءة الأطفال الّذين لا يعرفون الخُبث تظهر بوضوحٍ على مُحيّاه.

- عن أيِّ براءةٍ وأيِّ مُحيّا تتحدثين؟ إنسيْ كلَّ ما قلته في لحظةِ سخف.

- تعني لحظةَ ضعف..؟

- بل لحظة سُخف! فقد علمت أنَّني كنت مُخطئاً إذ استسلمت لتلك الأفكار السخيفة التي انتابتني مؤخَّراً.

- كيف؟ ماذا حدث؟

فعادت إليه الابتسامة والإشراق وأخبرها بما كان من أمره مع المَلك فأشرق وجهُها هيَ أيضاً بابتسامةٍ وقالت له:

- ألم أخبرْك أنَّك كنت مُتحاملاً على نفسك؟

- لقد كنت مُتحاملاً على نفسي حقاً، وقد شغَلت نفسي بعمرو أكثر من اللازم.

فقلبت شفتها ثم قالت: "نعم، لم أشعر أنَّه كما وصفت، ودليل قلّة فِطْنته تلك البراءة البلهاء التي ما زالت تظهر على وجهه حتّى بعد أن وصل إلى الخامسة والثلاثين من عمره أو كاد، أليْس هو في سنِّ الملك؟" فابتسم المستشار بسخريةٍ ثم ابتسم في سرورٍ وقد أدرك أنْ لا خوفَ من ذلك السجين على الإطلاق على مستقبل علاقته بالملك. ثم أرى زوجته الهدِّية النفيسة وقال لها: "أعلم أنَّ المَلك لا يحترمني كثيراً في قرارة نفسه ولا يُحبِّني كما يحترمه ويحبّه لأنّه يعلم أنَّني لا أكنُّ له حبّاً حقيقيّاً، لا أمْلك له إلا التملّق والحِيَل التي يستعين بها على تدبير أموره، لذلك فهو يكافئني عليها بالنقود والنفائس، ويعلم أنَّ عَمْراً يُحبّه رغم تطاوله عليْه ويُخلِص له، لذلك فهو ينال منه حبّاً وموّدّةً واحتراماً فقط، ولا ينال ما أنال أنا، ولكنْ عاد لا يهمّني أن أحصل على ما يحصل عليه، لأنّني أفضّل ما أحصل عليْه أنا.. وليَهنأ هو بما يحصل عليْه من الحبِّ والاحترام ما دام هذا لن يُخرجه من السجن!" ثم ضحك وأكمل: "يبدأ الصداع عندما ننظر إلى ما في أيْدي الناس مما لا نستطيع الحصول عليه، وينتهي عندما نصرِف نظرنا عنه." فهزَّت رأسها مؤيدةً ثم قالت: "مع أنّه كثيراً ما تكون للصداع أسبابٌ أخرى." فضحك المستشار وضحكت معه زوجته وهما مُنتشِيان بمرأى الهدِيّة الّتي أنْست سُعدى وصيّة عمرو.

١١

جاء موعد الاجتماع التاسع فاجتمع مركز قيادة المؤامرة العُليا وطرقوا موضوع إنشاء المستشفيات مرَّةً أخرى، فقال أمين الخزينة بلهجةٍ تُنذِر بالخطر: "إنَّ الخزينة ما زالت غيرَ قادرةٍ على توفير الأموال المطلوبة يا سيِّدي المَلك المعظَّم." فقال المَلك: "بعد كلّ ما فرضناه من ضرائبٍ وما وفّرناه من قيمة جرايات العَجزة وخفض أجور عمّال التنظيف؟" فسكت أمين الخزينة وكلُّ الوزراء. لقد شقَّ عليْهم أن يواجهوا المَلك بما يفعله، وبِبَذخه في الإنفاق على قصوره التي أقامَها في أنحاءٍ مُتعدِّدةٍ من البلاد، وعلى ما يُجامل به الملوك الآخرين من هدايا تُثقل كاهل الخزينة. بعد ذلك الصمت صاح المَلك مرةً أخرى: "يجب أن يقترح أحدُكم الحلّ!" فتنَحْنَح المستشار سفيان وقال له:

- بقيَ نوعٌ واحدٌ من الضرائب لا ضرر من تجربته يا سيّدي المَلك المعظّم.

- ما هو؟

- ضريبة الرأْس يا سيِّدي المَلك المعظّم!

فقال الملك رافعاً حاجِبْيه في دهشة: "ضريبة الرأس؟!" فأجاب بهدوء: "نعم يا سيِّدي المَلك المعظّم، ضريبة الرأس؛ نفرِض على كلِّ إنسانٍ راشدٍ قدراً من

المال يدفعه سنوياً عن نفسه وعن باقي أفراد أسرته من الراشدين... أظنُّ أنّ ذلك سيُنعش الخزينة كثيراً، فعددُنا كبيرٌ في هذا البلد." فقال أمين الخزينة: "ولكنَّ الناس سيتذمَّرون من هذه الضريبة بعد أن أرهقَتهم الضرائب الأخرى." فقال المستشار سفيان: "نستطيع تدبُّر أمر ذلك. فلنُلغ ضريبة الخبز، وبعدها بقليلٍ نجبي ضريبة الرؤوس... لا بأس في التفريط في ضريبة الخبز إذ أنَّ عائد ضريبة الرؤوس أكبر بكثير." وبعدها بأيامٍ أُلغيت ضريبة الخبز فاستبشر الناس خيْراً ولكنَّهم صُدِموا عندما أعلن عن ضريبة الرأس بعدها بشهر.

***

في شارع السدر في بيت هاجر أخذ الجُباة يحصون سكّان البيت ثم أمروهم بدفع ضريبةٍ لكلِّ فردٍ راشدٍ فيهم خلال عشرة أيّام. نظرت هاجر إلى أحد الجباة وقالت له قبل أن ينصرف: "لقد أخذتم ضرائبَ عن كلِّ شيءٍ فهلّا تركتم لنا الهواء بلا ثمن؟" فقال أحد الجباة وهو يقلِّب الأوراق التي في يده:

- لم نتلق أمراً بتحصيل ضريبة الهواء، لا أجدها في قائمة الضرائب ولم نُؤمر بأخذها.
- ولكنَّكم عندما تأخذون ضريبةً عن الرأس فإنّكم تأخذون ثمناً لحياتنا، للهواء الذي نتنفَّسه، فهل تُراكم تظنّون أنّكم وهبْتم لنا الحياة؟
- لم نؤمر بأنْ نظنُّ أنّنا وهبنا لكم الحياة ولكنّنا أمرنا فقط بجمع ضريبة الرأس منكم.
- لماذا؟
- لم نؤمر أن نجيب على أسئلةٍ ولكنْ لا بأس من أن نخبركم أنّ الدولة تُقدِّم لكم الوطن...

- باضطرارنا إلى الاجتماع في هذا البيْت الصغير؟
- والأمن والرخاء...
- بإطلاق المجرمين... وقطع الجرايات وفرْض ضرائب على كلِّ شيء؟
- لم تُفرض ضرائب على كلِّ شيء...

ولفت نظر الجابي صوت الدجاج الذي علا فجأةً فأكمل:

- فرؤوس الدجاج مثلاً ما زالت بلا ضريبة. والآن أُذكِّرك قبل أن أذهب بإعداد قيمة الضريبة عن كلِّ نفسٍ حيّة هنا قبل انقضاء المهلة.
- كلِّ نفسٍ حيّة! ومن قال إنّنا نريد أن نكون في عداد الأنفس الحيّة... هل تظنّنا سعداء بعد دفع كلِّ هذه الضرائب؟
- لم نؤمَر بأن نظنّ أنّكم سعداء، ولا علاقة للسعادة بالأمر إذ لم تُفرض ضريبةٌ عليْها حتّى الآن، لم تُفرض إلا على الرأس. ما دامت النفس حيّةً وراشدةً فلا بد أن تدفع، ولا تحتجزينا أكثر من ذلك فأمامنا منازل كثيرةٌ نُحصي فيها الرؤوس.

انصرف الجباة وأغلقت هاجر الباب ثم جلست تتحدّث غاضبةً مع بقيّة الأرامل والمُسنّات في المنزل. ثم تَزايد غضبُها إلى أن شعرت بإحباطٍ كبيرٍ وغيْظٍ جعلها تقرِّر أن تقتل نفسها احتجاجاً على ضريبة الرأس، فسألت صديقاتها إنْ كنَّ يُرِدْنَ أن يقتدِين بها ولكنَّهن رفضن ذلك، فعقدت النيّة على أن تتّجه وحدها إلى البحر الذي تطلُّ عليه المدينة لإغراق نفسها. ثم خرجت من المنزل وهنَّ يودِّعنها بأعيُنهن الدامعة.

وفي الطريق بعد أن اجتازت منزلها بقليلٍ لاحظت امرأةً مسنّةً تسير على الجانب الآخر من الطريق فأكملت سيْرها في صمت. وبعد قليلٍ التَفتت ثانيةً

إلى الجانب الآخر فوجدت المرأة المسنّة ما تزال تسير في الاتجاه الذي تسير فيه وهيَ تسترِق النظر إليها بين الفيْنة والفيْنة حتّى خرجت المرأتان من الشارع كلّه، ولاحظت كلٌ منهما أنَّ الأخرى ما تزال تسير في الاتجاه نفسه إلى أن تناقص عدد المنازل وأصبحتا بعيدتيْن عن العمران، ولم يبق أمامهما من المباني إلا مبنىً واحداً كبيراً وهو مبنى مركز المؤامرة الذي لم تلبثا أن تجاوزتاه. عندئذٍ التفتت المرأة إلى هاجر التي كانت تقترب منها بحذرٍ وسألتها:

- هل أنت ذاهبةٌ إلى البحر؟

- نعم، إنَّني ذاهبةٌ إلى البحر... هل أنت ذاهبةٌ إلى هناك أيضاً؟

- نعم.

فسارت المرأتان جنباً إلى جنبٍ بلا تحفّظٍ بعد أن تأكَّدتا من وحدة وجهتهما عبْر الشاطىء الذي كان يشغل مساحةً شاسعةً بين مياه البحر وأسوار المبنى الخلفيّة.

كان وهج الشمس يزداد لمعاناً فوق رمال الشاطىء باقتراب الظهر، وكانت المرأتان قد بدأتا الكلام بأصواتٍ تلهث من الجهد عن أنفسهما وعن سبب ذهابهما إلى البحر. ازدادت المرأة قرباً من هاجر وقالت همساً: "لقد قرَّرت إنهاء حياتي احتجاجاً على ضريبة الرأس، واتَّخذت طريقي إلى البحر من أجل ذلك." فابتسمت هاجر ابتسامةً مشرقةً وقالت: "وأنا متّجهةٌ إلى البحر من أجل هذا الغرض." ففرحت المرأة بسماع ذلك وأخذت تثرثر مع هاجر عن محاسن الصدف.

بعد مدّةٍ قصيرةٍ وصلت المرأتان إلى غايتهما. وهناك دخلتا البحر وأخذتا تتعمَّقان أكثر وأكثر في مياهه الباردة. ثم أخذتا تغسلان وجهيهما وأيديهما وقد

أراحهما الماء البارد والهواء اللطيف من العناء. ثم عندما تذكَّرتا أنّهما جاءتا لإغراق أنفسهما رأتا أنْ تستمتعا بالماء قليلاً قبل أن تفعلا. وبعد قليلٍ قرّرت المرأتان أن تُغرقا أنفسهما فغاصتا في المياه الضحلة في وقتٍ واحد. قاومت هاجر الماء الذي يحاول دفعها إلى الأعلى إلى أن استطاعت أن تُبقي رأسها داخله، وظلّت في ذلك الوضع حتّى شعرت أنّها بدأت تختنِق وأنَّ الغرق أوشك أن يُصبِح حقيقةً تخرج على إثرِها من الدنيا، وعندئذٍ نسيَت أنّها كانت تريد أن تخرج من الدنيا حقاً وشعرت أنَّ ثمّة قوىً خفيّة شرّيرة تحاول إزهاق روحها، وفي الحال تحوَّلت رغبتها بلا إرادةٍ منها إلى رغبةٍ في مقاومة تلك القوى الشرّيرة وإنقاذ نفسها من الموت، فأخرجت رأسها من الماء وهي تلهث فرأت المرأة تقف محرجةً وعلى وجهها ابتسامةٌ خجلى كمن ضُبط وهو يغش إذ كانت قد سبقتها إلى الخروج، فصمَّمتا على تكرار المحاولة ولكنْ كان الشيء نفسه يحدث في كلِّ مرةٍ إلى أن يئِستا تماماً من قدرتهما على تنفيذ ذلك. فأخذتا تتحدَّثان عن ضريبة الرأس والمَلك الذي فرضها إلى أن اشتعلت نفسيهما غضباً ووجدتا أنّه من الحُمق أن تعاقبا أنفسهما على ذلك القرار الجائر. فاستقرَّ رأيهما على أن توجِّها غضبهما إلى مركز قيادة المؤامرة العُليا، فإذا لم يحلّ المركز مشكلتهما فعليْه أن يتولَّى قتلهما بنفسه. فخرجتا من البحر وسارتا بما تحمله ملابسهما من ماءٍ عبْر رمال الشاطىء التي أخذت تُكوِّن طبقاتٍ من التراب حوْل أقدامهما وعلى ملابسهما وأسفل سيقانهما.

مضت المرأتان إلى مبنى مركز المؤامرة، وهناك دفَعتا بالحارسين اللذين حاولا أن يمنعانهما من الدخول، ووقفتا في منتصف المدخل الفسيح بعد أن أوقفهما الحَجبة الذين نظر أحدهم إلى المرأتيْن بملابسهما الرَّثة المبْتلّة ونظر إلى آثار أقدامهما المليئة بالتراب الرطب الذي شوَّه منظر ذلك المكان الرفيع الشأن وقال لهما غاضباً وهو يشير إلى المرْمرْ المتّسخ: "أنظرا ما فعلتما! هل

تُريدان الموت شنقاً!!" فقالت له هاجر بصوتٍ مزكومٍ بعد أن عطست عدّة عطساتٍ متوالية: "لا مانع منه إذا كان أسهل من الموت غرقاً." فقال الحاجب: "أخرجا من هنا حالاً، هل فقدتما عقلكما؟" فكحَّت المرأة الأخرى وقالت: "لا ولكنّنا نريد أن نفقد حياتنا لكي لا ندفع ضريبة الرأس." فهمَّ الحَجبة باقتلاعهما وقذفهما خارج المكان ولكنَّ المستشار سفيان خرج من مكتبه بعد أن سمع الضوضاء وعلم مسألتهما وعدم خشْيَتهما من التهديد بالإعدام فهددهما بالسجن فاختفتا من المكان في الحال.

سارت المرأتان عائدتين يملأ السخط أنفسهما على مركز قيادة المؤامرة فإذا بهما تلتقيان بِشراً الذي رحَّب بهاجر ثم سألها عن سبب بلَلِهما، فحَكت له الحكاية كلَّها. عندئذٍ تلفَّت حوْله بحذرٍ ثم طلب إليهما أن تذهبا معه إلى بيْته كيْ يُخبرهما بشيء. وهناك سألهما إنْ كانتا تتمنّيان نهاية حكم المَلك الحالي وإعادة كلِّ شيءٍ كما كان سابقاً فأبدتا كامل رغبتهما، وهنا أعلمَهما أنَّ خطّةً سرِّيةً تجري في مكانٍ ما للإطاحة بالمَلك مختار، وأنَّ في الإمكان إشراكهما فيها إذا تعهَّدتا بحفظ السرِّ حتّى عن أقرب الناس إليهما، فعاهدَتاه على ذلك واتّفقتا معه على لقاءٍ آخر يُخبرهما فيه بالمهام الصغيرة التي قد تُسند إليهما. ثم خرجتا من بيته وهما تشعران أنَّ آخر ما تُريدانه هو الموْت قبل رُؤية المَلك مختار يُطاح به.

***

دخلت هند في أحد الأيّام مخزن البضائع ومنه انتهت إلى الحُجرة المستطيلة الصغيرة التي خصّصها والدها للعطور، وجلست على مقعدٍ صغيرٍ أمام منضدة العمل. كان قد مضى أربعة أعوامٍ على سفر زوجها وثلاثةٌ على الموعد الذي كان قد قرر العودة فيه ولم يعد ولم يرسل إليهم رسولاً أو كتاباً

كما فعل في العام الأول، وكانت والدتها تتشاجر مع والدها كثيراً بسبب ذلك، أما هيَ فكانت حائرة. نظرت إلى الأرفُف الكثيرة أمامها وإلى زُجاجات العطر بأحجامها المختلفة ونفذت إلى أنفِها روائحها العِطريّة القويّة وشعرت بالضجر وأحسّت برغبةٍ في صناعة عطرٍ جديدٍ لا تتَّبع قائمة المُركّبات في صناعته. لقد فعلت ذلك يوماً عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها فأنتجت عطراً جديداً لا بأس به. تذكُر كيْف قرَّبه والدها من أنفه وعلى وجهه تعبيرُ غضبٍ مُخبّأ، وكيْف اختفى ذلك التعبير حالما اشتمَّ العطر، فرأت على وجهه استحساناً جعله يقرِّبه ثانيةً من أنفه ويشمُّه بفضولٍ وهو يتساءل كيْف اهتدت إلى تلك التركيبة التي أنتجت عطراً يُشبه العطور الحقيقيَّة التي يتاجر بها. وعندما رأت ذلك الاستحسان منه سألته إن كان يُريدها أن تصنع منه كمِّيات أكبر يبيعها مع ما يبيع من عطورٍ فابتسم وهو يهزُّ رأسه نفياً، ثم أخبرها أنّه لا يستطيع المغامرة ببيْع عطرٍ جديد، فقالت له بصوتٍ مُحتجٍّ: "ولكنّنا كثيراً ما نشتري عطوراً جديدةً ونبيعها فلماذا لا تبيع هذا العطر." فقال لها: "تلك العطور يصنعها العطّارون، وهم عطّارون لهم اسمهم وصِيتهم الذي يجعل الناس يثقون بما يخرج من تحت أيديهم، أما هذا العطر فلم تصنعه يدا عطّارٍ ماهرٍ وإنّما صنعته صبيّةٌ صغيرة. إذا قلت لهم إنَّ هذا العطر الجديد صنعته ابنتي فلن يشتريه أحد." ثم وقف وقال لها قبل أن يخرج: "إيّاك يا هند أن تلعبي بالعطور مرّةً أخرى. أتركيها كما هي كيْ أستطيع بيعها، وتذكَّري أنَّنا تجّارٌ ولسنا عطّارين، أتركي صنع العطور للعطّارين يا حبيبتي."

ولم تجرّب هند صنع عطورٍ أخرى ولكنّها ظلّت أشهراً تحلم بأن تكون عطّارةً لتستطيع أن تحظى بحقِّ التجربة وبحقِّ بيْع ما تجرّبه، وشعرت أنّ عالم العطور عالمٌ رائعٌ مُمتِعٌ تريد أن تدخله فلا يتَّهمها أحدٌ بأنَّها تعبث بالعطور. ثم بدت لأمِّها حاجةٌ في الذهاب إلى العطّار لتشتري نوعاً من

الأعشاب فأصرَّت على الذهاب معها لترى عطاراً حقيقيّاً من أولئك الناس الذين يستطيعون العبث بزجاجات العطر الكبيرة من دون أن ينهرهم أحد. وعندما دخلت متجر العطّار الصغير شعرت بصدمةٍ كبيرة. لم يكن العطّار رجلاً يكاد دماغه يخترق عمامته بحجمه الهائل كما تخيّلت، بل وجدته رجلاً ضئيل الحجم عليْه ثيابٌ مصفرةٌ جالساً على مقعدٍ صغيرٍ بين أرففٍ كثيرةٍ لا تحمل زجاجات عطرٍ فقط بل وأوانٍ كبيرةٍ من الفخّار والمعدن بعضها ملفوفٌ بأقمشةٍ قذِرةٍ بما يغطّيها من دهون. ومع تلك الأواني قفصٌ صغير به فئران مسكٍ تقف واهنة القوى وقد رُبطت أجزاءٌ من بطونها بشكلٍ قاسٍ، ولفائف من القماش المُصفرِّ بعضها مفتوحٌ يظهر منه أعشابٌ غريبةٌ متعدِّدة الأشكال لها روائح غير مستحبَّة. بعضها ذابلٌ قد تحوَّل جزءٌ منه إلى مسحوقٍ وبعضها نصف جافٍّ وبعضها يثير القشعريرة لشدَّة شبهه بالحشرات. نظرت إلى محتويات الدكّان ثم نظرت إلى العطّار فشعرت أنَّه ساحرٌ وأنَّ تلك الأشياء أدواته التي يستخدمها في الشعْوذة، فكرهت العِطارة وخرجت من حلمها أن تصبح عطّارة في يومٍ من الأيّام. ولم تعد تحاول صنع عطورها الخاصّة، بل أخذت تخدِم أباها في تجارته وحساباته وخلط عطوره حسب النسب الموجودة في قوائمه من دون أن تحاول الحِياد عنها لأنَّها كرِهت أن تكون مثل ذلك المشعوذ.

نظرت هند ثانيةً إلى تلك الزجاجات المرصوصة ووضعت أمامها قائمةً لعطرٍ جديدٍ أوصاها والدها بتركيبه، وأعدَّت ميزان العطور وآنية المزج وبدأت تلتقط الزجاجات الكبيرة لتمزج بعضاً منها بنسبٍ وموازين حدّدها أحد العطارين الذين يتعاملون مع والدها. أمسكت إحدى الزجاجات ووضعتها بجانب الزجاجات الأخرى بحذرٍ شديدٍ وهي تتذكر وصايا والدها المتكرِّرة بالتعامل مع تلك القوارير برفقٍ وحذرٍ خاصّةً بعد أن عمَّ الكسادُ البلادَ فزاد

من بُخل والدها وحرصه على مُقتنياته. وقبل أن تبدأ وزْن العطور الأصلية لتركّب منها العطر الجديد شعرت برغبةٍ في التمرُّد على قائمة العطار، وعاودها الشعور الذي راودها منذ ثمانية عشر عاماً بالرغبة في صنع عطرٍ جديدٍ من ابتكارها. وأدركت في تلك اللحظة أنّها كبرت كثيراً على تلك الأفكار الساذجة التي صدَّتها عن تكرار التجربة طوال تلك السنين، وأيْقنت أنّها تستطيع أن تبتكِر عطراً جديداً دون أن تكون ساحرة، ثم فرحت بتلك الفكرة وفرحت بإدراكها أنّها نضجت وأصبحت قادرةً على فهم الأشياء بصورةٍ أفضل. وشعرت بأنّها دخلت مملكةً جديدة، مملكة النضج والفهم والإرادة والتخلُّص من المخاوف والأفكار المحفوفة بالغموض. ابتسمت لتلك الفكرة وطوت قائمة العطّار وألقت بها بعيداً عن منضدة العمل، ووضعت زجاجاتٍ أخرى مع تلك الزجاجات لتركِّب عطرها الخاص. وحاولت أن تتذكَّر عناصر عطرها الذي صنعته مرّةً ولكنَّها لم تتذكر كلَّ المحتويات ونِسَبِها فقرّرت أن تصنع غيره.

مضت مدةٌ وهي تسكب العطور في إناء الخلْط وتشمُّه فلا يعجبها، فتُضيف إليه عطراً جديداً لإصلاحه حتى شعرت بالملل والتعب فقررت إرجاء ذلك العمل إلى وقتٍ آخر يكون فيه أنفها أكثر تقبُّلاً لتجربة كلِّ تلك الروائح. ولكنْ قبل أن تخرج دخل عليها والدها يسألها إن كانت قد ركَّبت العطر الذي طلب إلَيْها تركيبه فقدّمت له إناء المزج بصمتٍ، فقرّبه من أنفه ثم أبعده بسرعةٍ ونفض رأسه ليطرد منه تلك الرائحة وقال: "لا بدّ أنَّك أخطأت في التركيب فالعطر الذي شممته عند العطّار كان عطراً جيِّداً.. ولكن.." قرَّبه من أنفه ثانيةً وأبعده سريعاً وأكمل: "ربَّما يكون العطّار قد غشَّني، ناوليني القائمة." فقالت له بهدوء: "لم يغشّك العطّار، ولكنِّي أردت أن أجرِّب صنع عطرٍ جديد." ازْرقَّ وجه والدِها غضباً وأخذ يلومها على العبث بالعطور

الغالية الثمن، فحاولت تهدئته وعندما أدركت أنَّها فشلت في ذلك غافلته وخرجت من المخزن بهدوءٍ وجلس هو أمام المنضدة يُخفِّف المحلول بالماء ثم يضيف إليه عطوراً أخرى محاولاً إخفاء تلك الروائح الشرِّيرة التي لم تعجز عن أن تجد لها شروخاً في المزيج العطريِّ تنفذ منها مُهاجمةً أعْتى الأنوف. ولم ييأس من إصلاح ذلك العطر فاليأس كان معناه ضياع دنانير كثيرةٍ سُدى، لذلك فقد واصل تعديل العطر حتّى أصبح إناء الخلط لا يستوعب تلك الإضافات التي يضيفها، فصبَّه في زجاجةٍ كبيرةٍ وواصل الإضافة إلى أن شعر بالتعب. ودخلت عليه ابنته تخبره أنّها وأمها تنتظِرانه لتناول الغداء، وما إن رآها حتّى حمل الزجاجة بحذرٍ وطلب إليها أن تشمَّ العطر وتخبره برأيها ولكنَّها عبّرت عن رأيها بسدِّ أنفها والابتعاد بسرعةٍ عن الزجاجة. فأخذ يلومها ويقرِّعها لكونها السبب في ذلك فما كان منها إلا أن خرجت ثانيةً فخرج خلفها والزجاجة في يده وهو ما يزال يقرِّعها على فعلتها التي كلَّفته كثيراً من الدنانير، فخرجت زيْنب زوجته من الداخل وهي تتساءل عمّا حدث فأخبرها بما فعلته ابنته، فاقتربت من الإناء وشمَّت المزيج ثم ابتعدت باشمئزازٍ وهيَ تحاول طرْد تلك الرائحة من أنفها ثم قالت: "إنِّه زرنيخ وليس عطراً، كيْف تعلمت صنع الزرنيخ يا هند؟" فثار الأب وقال لها: "وهل هذا وقت المزاح يا زيْنب؟" فقالت بهدوء: "ولكنَّك كنت تتساءل ماذا عساك فاعلٌ به، وأرى أنّنا يمكنُنا استخدامه لقتل الحشرات." فارتفع صوته مرَّةً أخرى قائلاً: "زرنيخ بهذا الثمن الباهظ! هل جننت يا زينب!" ثم الْتَفت إلى ابنته وقال: "وكيف تعلمتِ منّي كلَّ شيءٍ إلا الاقتصاد؟ من أيْن جئتِ بالإسراف وقد نشأت هنا؟" فقالت: "ولكنِّي تعلمت الاقتصاد يا أبي، ولم أعجز إلّا عن تعلُّم البخل! لأنَّني أكرهه!" ولم يكن الأب يقوى على المناقشة في ذلك الوقت العصيب، لذلك فقد

تجاهل ما قالته وانصرف إلى تفكيره في العطر. وبعد قليلٍ قال بصوتٍ يائس: "سآخذه إلى أحد العطّارين، ربما استطاع إصلاحه."

عند تناول الغداء كان الأب يختلس إلى ابنته نظراتٍ غاضبةٍ كانت تتلقّاها وتتظاهر أنّها لم تتلقّاها حتّى انتهوْا من تناول الطّعام، وعندئذٍ لم يستطع الأب الصبْر على مُصابه، فأخذ يلوم هند ثانيةً ولكنّها أيضاً شعرت أنّها لا تستطيع الصبْر على كلَّ ذلك اللوم الموجَّه لها فقالت له:

- إذا كنت لا تريدني أن أعبث بعطورك الغالية فأتِ لك بخادمٍ جديدٍ لأنّي لن أخدمك بعد اليْوم إلا نظير أن تدعني أفعل ما أريد بتلك العطور.
- تعيِّرينني بمساعدتك!
- لو تركتني أتدرَّب على صنع العطور منذ ثمانية عشر عاماً لما أفسدت العطور اليوم. لماذا منعتني من التجربة بعد أن صنعت عطراً جيداً؟

فقال لها الأب مذهولاً:

- عن ماذا تتحدَّثين؟
- لقد صنعت عطراً جيِّداً في أحد الأيّام فقلت لي إنَّ العطّارين فقط هم الذين يستطيعون التجربة وبيْع ما يجرِّبون، ولم يكن ذلك حقَّاً، لا يجب أن نكون عطارين لنصنع العطور.

فتنهَّد والدها بقوةٍ وهو ينظر إليْها مستغرباً فقالت له: "أبي، لقد جعلتَني أعمل معك طوال تلك السنين، وسيَّرت حياتي مُذ وُلدت فدعني وشأني. خلِّ سبيلي إذا كنت لا تريدني أن أعبث بالعطور عندما أريد العبث بها، أو ادفع لي أجراً مقابل أن أخدمك كما تريد تماماً." نظر إليْها الأب صامتاً بينما ألقَت إليها الأم نظرةً عاتبة، وبعد لحظاتٍ من الصمت قال لها والدها:

- أظنُّ أنّي دلَّلتك كثيراً في طفولتك لأنَّك ابنتي الوحيدة ولم أعلِّمك كيف تخاطبي والديْك باحترام.
- لو كنت أنجبت أبناءً غيْري لجعلتهم كلَّهم عبيداً لا همَّ لهم إلا خدمتك.

عندئذٍ ظهر الغضب الشديد على وجه أبيها واستاءت والدتُها كثيراً فأمرتها أن تسكت وتعتذر لوالدها، ولكنَّها تجاهلت طلب والدتها وتركت المكان ووالدها يراقبها وهي تتحرك مبتعدةً شاعراً بدهشةٍ شديدة. وعندما اختفت عن ناظريه التفت إلى زوجته وقال: "أظنُّ أنَّنا أفسدناها حقاً، ولم نعلّمها التأدُّب معنا." فتنهَّدت زوجته وهزَّت رأسها بالإيجاب.

في اليوم التالي ذهب نعمان بزجاجته إلى العطّار ثم عاد بها حزيناً يُريها زوجته التي سدَّت أنفها قبل أن يقترب منها وقالت له: "لماذا عدت بهذه الزجاجة؟" فقال لها بتأثُّر:

- لقد قال العطّار إنَّه من المستحيل استخلاص تلك العطور... ثم قال إنَّه من الممكن إصلاح هذا المزيج بحيث يصبح صالحاً لاستخدامه لأغراض أخرى ولكنَّ ذلك سيكلِّفني ما تزيد قيمته على قيمة هذه العطور.. إلا إذا قدمتها له بلا ثمن.
- ولماذا لم تقدمها إلَيْه بلا ثمن؟ أليْس ذلك خيْراً من تكدير صفْوِنا بتلك الرائحة؟
- قلتِ إنّك تريدين استخدام هذا العطر لقتل الحشرات.
- لقد غيّرت رأيي، لا أظنُّ أنّني سأحتمل هذه الرائحة، بِعه لتجار الزرنيخ.
- كيف أبيعه بثمنٍ الزرنيخ مع ما يحوِيه من عطورٍ غالية. ثم أنّهم لن يدفعوا فيه ما يدفعونه لوَزنِه من الزرنيخ المسحوق لأنّهم سيعتبرونه زرنيخاً سيّيء الصنع.

كانت هند تستمع إلى حديث والديْها من بعيدٍ ولمحَها والدُها فلوَّح بأصبعه، وقبل أن يتفوَّه بحرفٍ قالت له باسمة: "أَعلم يا أبي، سأتذكَّر دائماً أنَّنا تجّارٌ ولسنا عطارين." ثم مشت إلى الداخل وهي تكرِّر تلك الجُملة حتّى وجدت نفسها في وسط حُجرتها وهي تكرِّرها في عقلِها. ثم توقَّفت لتتأمَّل ما تقول وتحاول رؤية الفرق بين العطّارين والتجار، ولكنّها وجدت أنَّ العطّارين تجّارٌ أيضاً وأنَّ كلَّ المِهن بها بيْعٌ من نوعٍ معيَّن، وأنَّ البيْع والشراء ليس مهنةً وإنّما سمة الحياة، كلُّ شيءٍ له ثمن، ولا شيءَ بلا مردود. نظرت إلى زجاجة العطر في يد والدها الذي كان يدور يُفكِّر ماذا يصنع بتلك الزجاجة التي يرفض أن يبيعها بثمن الزرنيخ وهي تحوِي تلك العطور الغالية التي اختلطت ببعضها وأفسد بعضها بعضاً حتّى انعدم إمكان بيعها، فأصبح ذلك العطر أغلى من العطر العادي بما استهلكه من النقود وأرخص من الزرنيخ بما آل إليه. ولم تحتمل منظر والدها ممسكاً بتلك الزجاجة أكثر من ذلك فانطلقت إليه وتناولت الزجاجة من يده بهدوءٍ وهو ينظر إلْيها مُندهِشاً، ثم سكبت ما فيها في المجرى وذهبت تُسعف والدها الذي تهالَك على الأرض إذْ لم يحتمل المنظر.

عندما مدَّت يدها لتُمسك بيد أبيها أبعد يده بسرعةٍ وطلب منها الابتعاد عنه، ولكنَّها جلست معه حيْث جلس وهو يُشيح بوجهه عنها ثم قالت: "ألم تكن تريد أن تعطيه أمي لتقتل به الحشرات؟ ما الفرق بين إراقته في المجرى وإراقته على الحشرات؟" فلم يُجب الأب فتنهَّدت ثم نظرت إليه وقالت: "هل تعلم يا أبي لماذا سكبت ذلك العطر؟" ولكنَّه ظلَّ متجهِّماً وقد أبعد وجهه عنها فأكملت: "لأنّني رأيت فيه نفسي... أنا ذلك العطر الذي أصبح أرخص من الزرنيخ." فالتفت إليها قائلاً بسخرية:

- ولماذا يا ترى تريدين أن تلقي بنفسك في المجرى؟

- لا أريد أن ألقي بنفسي في المجرى يا أبي ولكنَّ زوجي يتمنّى أن يفعل بي ذلك.

فالتفت إليها وقد ظهر عليه الاهتمام وقال: "لماذا تقولين ذلك؟"

- أشعر أنَّه يريد الهرب منِّي لذلك سافر وظلَّ هناك أربعة أعوام.
- قد يكون مريضاً أو...
- لقد كان يضيق ذرعاً بي عندما أتحدّث معه عن تسعير الأشياء وكيفية الحساب وطريقة معرفة العطور الجيّدة وتخزين البضائع.
- ربما كنت واهمة يا ابنتي.
- لا، لقد أخبرني مِراراً بذلك، وقبل أن يسافر بشهرٍ تشاجرنا بسبب محاولتي إسداء نصيحةٍ له بعد أن أخطأ خطأً جسيماً كلَّفه الكثير، وقال لي إنّه عندما أراد الزواج كان يريد أن يتزوَّج امرأةً لا تاجراً، وقال إنّه كان يُفضّل أن يتزوّج امرأةً تهوى المجوهرات والتزيُّن وتعشق الإسراف وتشتري أشياء مغشوشةً لأنّها لا تستطيع التمييز بين الجيِّد والرديء... وأنا لم أنشأ لأكون تلك المرأة. تعلَّمت أشياء كثيرة جيّدة... ولكنَّها صنعت منِّي تلك التركيبة التي يكرهُها زوجي... إنَّه يراني تاجراً في ثياب امرأة.
- لا تقولي ذلك يا هند، إنّك امرأةٌ جميلة.
- ولكنَّه لا يرى ذلك، لا يرى إلا أنَّ في رأسي عقلٌ يكره التعامل معه.
- هل تعنين أنَّني اخطأت بتعليمك هذه الأشياء يا هند؟
- لا يا أبي، إنَّني سعيدةٌ بما تعلّمته، ولكنَّك أخطأت باختيار هذا الرجل لي... عندما رأيتك حائراً لا تدري ما تفعل بهذا العطر تذكَّرته على الفور، فهو لا يستطيع أن يُبدي رغبته في طلاقي، ربما مراعاةً لك... لذلك أظنُّ أنَّه يحاول الهرب منّي... أبي، ساعدني على الطلاق منه.

انتفض الأب لسماعه تلك الكلمة وأنكر على ابنته ما قالت ولكنَّها أصرَّت. وعندئذٍ أخبرها أنّه من الصعب أن يواجه أباه بذلك، فهبَّت واقفةً وقالت لأبيها بغضب: "هو لا يريد أن يطلّقني مراعاةً لك، وأنت لا تريد أن تساعدني مراعاةً لأبيه، ولا أحد يهمّه أمري." ثم انهمرت دموعها فحاول تهدِئتها ولكنّها قالت له: "سأطلِّقه وإنْ رفضت مساعدتي، لن أبقى معه يوماً واحداً عندما يعود!" فقال الأب: "سأساعدك يا ابنتي، سأذهب إلى أبيه لأكلّمه في هذا الموضوع فربما كان يعرف مكانه." ولم يكن نعمان ينوي محادثة والد زوجها حقاً في طلاقها فقد كان معنى ذلك فقدان كثيرٍ من الصفقات التجارية إذا أغضب ذلك الأمر كبير تجّار المدينة، ولكنَّه أراد فقط أن يسأل عنه ويحاول تعجيل عودته للإصلاح بينهما، وكان يرجو أن تكون ابنته مُخطئةً في ظنونها.

وعادت هند بعد يومين تُطالع قوائم العطارين وتصنع العطور رحمةً بوالدها الذي كان يفضِّل أن يزيد ساعات عمله على أن يستأجر من يساعده، وعادت تعمل بصمتٍ وتتمنّى أن تعرف الإجابة التي سيعود بها إليها. وفي اليوم التالي دخل نعمان البيت يبدو عليه أنَّ لديْه خبراً غيْر سارّ، وبحث عن هند فوجدها في مخزن العطور أمامها قائمةُ محتوياتٍ وقوارير عطرٍ كبيرةٍ وهي منهمكةٌ في تركيب عطرٍ جديدٍ، فتراجع بهدوءٍ ولم يكلِّمها خشية أن ترتكب خطأً يكلّفه عشرات الدنانير، وأخذ يدور في الفناء إلى أن رآها تغلق الزجاجات وتطوي القائمة ثم تغسل يديْها وتخرج وهي تمسحهما بمنشفةٍ ألقت بها في الداخل وأغلقت الباب. عندئذٍ حيّاها بصوتٍ هادىءٍ ثم نظر إليْها بتردّدٍ وأخبرها أنّ رسول والد زوجِها إلى زوجها قد عاد من السفر في الليلة الماضية. فاقتربت منه وهيَ تنظر إليْه بفضولٍ منتظرةً ما سيقول فقال لها: "أظنُّ يا ابنتي أنّنا ظلمنا الرجل." فقالت له بلهجةٍ مُحتجّة: "أبي، لا تحاول أن

تقنعني به ثانيةً. لا أريده ولن أجعلك تجامل صاحبك بي." فَهمَّ بالكلام ولكنّها واصلت: "لقد طلبت إليك أن تخلّصني منه لا أن تلتمس له أعذاراً، فأنا لا أريده حتّى لو أخبرك أنّه سيعود في الحال." فقال لها بصوتٍ حزين: "اهدأي يا هند، إنّني لا أحاول أن أقنعك به ولن أفعل... لقد مات منذ ثلاثة أعوامٍ، وهذا هو سبب انقطاعه الطويل." نظرت هند إلى أبيها غيْر مصدِّقة ثم أخذت تبكي، وحاول والدها تهدئتها فلم يفلح في ذلك إذ زاد بكاؤها فذهبت إلى حجرتها وجلست على سريرها وهي تبكي. وفي الحال دخلت والدتها فأحاطتها بذراعها بينما وقف نعمان حائراً أمام الباب ينظر إليهما من بعيد، يصعب عليه الدخول إذ لا يعرف كيْف يُسرِّي عن ابنته، ويصعب عليه تركها في ذلك الحال والذهاب إلى المخزن لأداء بعض أعماله، فظلَّ يسير أمام باب الحجرة ويختلِس النظرات إلى الداخل بين الفيْنة والفيْنة.

في اليوم التالي دخلت زيْنب على ابنتها وهي تبكي وحيدةً في حجرتها فجلست إلى جانبها ثم نظرت إليْها وقالت بحنان: "لماذا كلّ هذا البكاء الآن؟ ألم تقولي إنّك لا تريدينه؟" فأجابتها هند وهي تمسح أدمعها وتحاول السيْطرة على البكاء: "لذلك أبكي يا أمي، لقد كان المسكين ميِّتاً بينما أنا أتّهمه بالهرب، وأرفضه... ليْتني لم أفعل، ليْتني لم أقل شيئاً من ذلك... ليْتني لم أفعل..." فقالت والدتها: "كلُّ الناس يصبحون أقرب إلى الملائكة في نظر أقاربهم عندما يموتون، وكلُّ الناس يشعرون أنّهم أشرارٌ إذا اتضح لهم أنَّ من هم غاضبون منهم أموات، فلا تدِعي ذلك الشعور يُحزنك إلى هذا الحد." ولكنّ هند لم تستطع السيْطرة على حزنها فبكت حتّى تورَّمت عيْناها.

بعد أسبوعين كانت هند ما تزال حزينة، وكان الجميع يظنّون أنّ ما تعانيه حزنٌ على زوجها فقط، ولكنْ كان بداخلها أشياء أخرى غير الحزن عليه.

كانت أيضاً حزينةً لأنّه مات قبل أن يعود لما في ذلك من بترٍ للأحداث التي كانت تتمنى أن ترى لها نهايةً واضحةَ المعالم. لقد كانت تتمنى أن يعود فتتحدّث معه في أشياء كثيرة ثم يضعان معاً نهايةً للغموض، ولكنَّ موْته ترك الحال على ما كان عليه ولم يفسر كلَّ شيء، بل تركها مع شعورٍ بالعجز عن الدفاع عن نفسها إلى الأبد لانعدام دوْرها في تبديد ذلك الغموض، فتسلَّل إلى حزنِها على زوجها خيْط دقيقٌ من الحنْق عليْه لهروبه الدائم حتّى وهو ميّت. وظلّت حائرةً إلى أن فاجأها صوت والدها في أحد الأيّام وهو يخبرها بأنَّ عليْها أن تتسلَّم ميراث زوجها. عندها شعرت هند أنّه قد أتيح لها أن تقوم بدورٍ في تبديد ذلك الغموض الذي اكتنف حياتها، فأخبرته وهي تتجنب النظر إلى عيْنيْه لكيْ لا ترى صدمته أنّها ستتنازل عن ميراث زوجها لأبيه. وأصرَّت على ذلك القرار رغم احتجاج والديها اللذين فوجئا بقرارها وحاولا إثناءها عنه، ولكنّها تشبثت بتلك الفرصة التي وجدت فيها إنهاءً لكلِّ شيءٍ فإنْ كان زوجها هارباً فإن رفض ميراثه تطليقٌ له، وإن لم يكن هارباً فهو تنازلٌ عن شيءٍ تشعر أنّها أصبحت لا تستحقه منه، وفي الحالتين يكون رفض الميراث نهايةً واضحةَ المعالم لعلاقتها بذلك الرجل. ولكنّها لم تخبر والديْها بما يحدث داخلها لعلمها بأنّهما لن يوافقاها. وقبل أن تغادر المنزل ذاهبةً إلى بيْت أبي زوجها استوقفتها والدتها وقالت لها: "انتظري يا هند، أجِّلي هذا الأمر إلى أن يذهب عنك الحزن. لا بدَّ أنّك سترَيْن الأمور بشكلٍ أوضح فيما بعد." فقالت لها: "لن يذهب عني الحزن أبداً إذا قبلت هذا الميراث... أؤكِّد لك يا أمي أنّني لن أغيّر رأيي في المستقبل لأنّني..." ونظرت إلى والدتها، كانت تعلم أنِّ والديها لن يفهما شيئاً مما يدور بخلدها؛ لقد تعلّما مثل كلَّ الناس أنّ الحقوق إذا لم تُنتزع انتزاعاً فلا أقلَّ من أن يُعضَّ عليها بالنواجذ والأسنان إذا جاءت طواعية، أما رفضها عندما تأتي طواعيةً فذلك قمَّة الحُمق، ولكنّها لم

تكن تبالي كثيراً برأي الآخرين، لقد اعتادت تلك النظرات الحائرة والمشفقة والمستغربة والمستهجنة في أعينِهما وأعين كل الناس، وارتضت أن تقف وحيدةً على جانبٍ من الدنيا بينما يقف الناس كلُّهم على الجانب المقابل. وجاء صوت أمّها ثانيةً يسأل في استهجان:

- هل كنت تكرهينه إلى هذا الحد؟

- لم أكن أكرهه إلى هذا الحدّ ولم أكن أحبّه إلى هذا الحد، ولكنّه لم يكن سعيداً معي ولم أكن سعيدةً معه، ومن الأفضل أن ينتهي كل شيءٍ بيننا بموته.

- ولكنَّ هذا أدعى إلى أن تخرجي من تلك الزيجة بشيء.

- لو خرجت منها بشيءٍ لشعرت أنَّني بعت بضع سنين من عمري مقابله. لن آخذ شيئاً.

- وما الذي يؤكِّد لك أنّ التنازل عن الميراث سيُذهب عنك الحزن؟

- لا شيء، سأظلُّ حزينةً مدّةً طويلةً ولكنّ حزني سيكون حزناً طبيعياً كحزن أيِّ امرأةٍ على زوجها، حزناً لا تخالطه أشياء أخرى... أعني...

ودخل نعمان وعلم ما كان يدور بين هند وزيْنب عندما رأى ملامح زوجته الحائرة فحاول نصح ابنته ثانيةً موضِّحاً لها حقوقها في بيتها وبعض أموال زوجها، ولكنَّها ضاقت ذرعاً بذلك الإلحاح وقالت له: "أبي، إذا كنت لا تريدني أن أسكن هنا فسأقبل البيت فقط ولكنِّي لن آخذ شيئاً من المال." فقال لها: "إذا كان ذلك سيجعلك تأخذين بعض حقوقك فـ..."، وصمت ولم يكمل ولكنَّ هند تساءلت: "هل ستطردني يا أبي؟" ظلَّ نعمان صامتاً وقد ضاق بسؤالها. لقد كانت هند رغم اختلافها معه في الرأي أحيْاناً صديقته التي تعمل معه وتتحدّث فيما يهمّه من أمور، والتي يتشاجر معها أحياناً ويتقبَّل تطاولها عليه بنفسٍ يُطفىء فيها الحبُّ الغضب كما تتقبَّل هي قسوته عليها.

رفع نعمان رأسه ونظر إلى ابنته وقال: "تعلمين أنّني لا أستطيع ذلك، وتعلمين أنَّ هذا بيتك الذي لن يرثه غيرك... كنت فقط أريدك أن تحتفظي بحقوقك... ولكنْ ما دمت مصرَّةٌ على رفضها والذهاب الآن إلى منزل حماك والمحكمة فسأذهب معك، انتظريني قليلاً." ثم ذهب إلى حجرته وهي تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامةٌ وجدت لها طريقاً وسط الملامح الحزينة بعد أن رأت أن أباها ما زال صديقها العجوز الذي تجتاز يده الطريق الذي يفصل بين الجانب الذي تقف عليه والجانب الذي يقف هو عليه مع كلِّ الناس لتقدِّم لها العوْن الذي يُدرك حاجتها إليه قبل أن تدركها هي، فيقدِّمه لها في الوقت المناسب.

كان قد مضى على زيارة سُعدى للسجن أسابيع دون أن يطرأ تغيُّرٌ يذكر على مسار مختار عندما أدرك عمرو أنَّ محاولته فشلت معها هي أيضاً كما فشلت مع زوجها، فأحزنه ذلك الأمر كثيراً. وبمرور الأيام ازداد كُرهاً لسجنه ويأساً من حرِّيته ورفضاً لما يفعله مختار في البلد والناس، فظهر عليه الإكتئاب من جديد والميْل إلى الانزواء عن زملائه السجناء في الأوقات التي يُؤخذون فيها إلى حديقة السجن بعد أن توضع الأغلال في أيديهم، وعن زوّاره الذين عادت زياراتهم لا تُدخل البهجة على قلبه كما كانت تفعل، وعادت أخبار ما يحدث خارج السجن لا تهمّه كثيراً وإن كانت أخباراً سعيدةً أحياناً لأنَّ ضيقه بالسجن كان أكبر من كلِّ ما يحدث. لقد كان يرى الأشياء ويسمع عنها فتنفذ إلى سمعه وبصره، ولكنّها لا تنفذ إلى نفسه لأنَّ ما تقاسِيه تلك النفس يجعل بينه وبين الأشياء حاجزاً أنْ تُحدِث فيه ما تحدِثه في باقي الناس من أثر. ولاحظ أبوه اكتئابه وكرهه للحياة بسبب فشله في محاولة إصلاح مختار وطول بقائه في السجن فلم يجعلْه ذلك يشتعل غضباً إذ رأى أنّ عليْه أن يَجُرَّ ابنه إلى الحياة ثانيةً قبل أن يعبِّر عن غضبه. ولم تكن تلك أوَّل

مرَّةٍ يشعر فيها بسيطرة اليأس والاكتئاب على عمرو، إذ حدث أن انتابه ذلك عدَّة مرّات، وفي كل مرّةٍ كان يجذبه إلى الحياة ثانيةً بشيءٍ ما مثل إعطائه كتبٍ جديدةٍ أو شغْلِه بمشكلةٍ جديدةٍ ليصرف فكره عن مشكلته الخاصّة حتّى شعر أنَّ عَمْراً مُعلّقٌ بحبلٍ يُمسك هوَ نهايته وعلَيْهِ هوَ وحده أن يُحكم قبضته على الحبل لكيْ لا يقع ابنه في هاويةٍ سحيقةٍ إنْ خرج منها حيّاً فلن يخرج منها سليماً معافى. لقد اصبحت حياة صالحٍ أصعب بكثيرٍ وهو يرى نفسه لاهثاً بين دكّانه وعمله الشاقّ فيه وآلام ظهره عندما يعود إلى بيته، وبين خِططه التي يضعها لإخراج ابنه من السجن، في الوقت الذي علَيْه أن يُعمل فكره لإبقاء جذوة الحياة مشتعلةً في نفسه، كل ذلك وهو شيْخٌ تجاوز عمره السبعين سنة.

في تلك المرَّة، لم يستطع صالحٌ أن يفعل شيئاً جديداً يُخرج ابنه من يأسه؛ نفدت كلُّ حلوله. كان يعلم أنّه بحاجةٍ إلى دافعٍ أكبر يعلِّقه بالحياة، فكلُّ الأخبار التي يحاول إسعاده بها تكون خاصّةً بغيره وعلَيْه أن يصنع أخباراً خاصّةً به كيْ يُعيده إلى الشعور بالحياة. وفكّر طويلاً في حلٍّ مناسبٍ ولكنَّ لم يهدِه فكره إلى شيء، فجلس مهموماً يوماً في داره إذ جاءته أُمامة وطفلها وجلس يتحدَّث معها فذكرت له أنَّ هند أخبرتها بأنَّها علمت مؤخّراً أنّ زوجها قد مات منذ ثلاثة أعوامٍ، وأنّها غاضبةٌ لأنَّ رجلاً تقدَّم لخطبتها حالما سمع بموته ولأنَّ والديها رحبّا به وهما يعلمان أنّها حزينة. فاعتدل صالحٌ في جلسته وقد أشرق وجهه لشعوره أنَّه وجد الحلَّ فأخبر ابنته بأنَّه سيخطب هند لعمرو ليجرَّه ثانيةً إلى الحياة. فاستهجنت أُمامة الفكرة وأكّدت له أنَّ هند سترفض ذلك لأنّها رفضت تاجراً غنياً ولن تقبل بسجينٍ لا يعلم أحدٌ إنْ كان سيخرج من سجنه يوماً أم لا. ولكنَّ الأب نظر إليها بثقةٍ وأكَّد أنَّه لا بدّ خارجٌ من السجن مُستقبلاً ولا ضرر من أن يخرج فيجد أمامهُ زوجةً تنتظره، وقد يجعله ذلك يتشبث

بالحياة أكثر ولا ييأس من الخروج، فظلّت أُمامة تيئِّسه من الموضوع وتحاول إقناعه بصرف النظر عنه أو بتأجيله لكيْ لا يكون مصيره الرفض كما حدث لمن خطبها قبله، لأنّها ما تزال حزينةً لموْت زوجها، ولكنَّه لم يعبأ برأيها بل دخل إلى حجرته وأبدل ملابسه، وقبل أن يخرج نادته أُمامة قائلة:

- أبي، يجب أن تخبر عَمْراً قبل أن تخطب له.
- بل يجب ألّا أفعل لأنّه سيرفض حتماً إنْ مَلَك الرفض، يجب أن يُفاجأ بالأمر لكيْ لا يستطيع رفضه.
- ولكنَّه سيغضب كثيراً يا أبي.
- فليغضب إذا كان هذا في صالحه في النهاية.
- ولكنْ لا يحقُّ لك يا أبي أن تتصرَّف في أموره من غير علمه.

ولكنَّ صالحاً لم يسمع الجملة الأخيرة لأنّه كان قد خرج وأغلق الباب خلفه. وذهب إلى بيت هند. وهناك خطبها من والدها فلم يشأ والدها أن يعلن رفضه اعتماداً على أنَّ ابنته ستفعل، لذلك فقد اكتفى بإخباره أنّها سترفض حتماً لأنّها لا تريد الزواج في تلك الفترة. فأصرَّ صالحٌ على أن يراها ويسمع رفضها بنفسه، فما كان من جاره إلّا أن رضخ لطلبه ونادى ابنته ووقف بجانبها بثقةٍ ارتسمت على ملامحه التي تغيّرت في الحال عندما وافقت هند بلا تردد، فدُهش واستاء ولكنّه اضطر إلى مُسايرتها لكيْ لا يُحرج الشيخ، وما إن خرج صالحٌ حتّى أخذ هو ووالدتها يُعنِّفانها ويلومانها بشدّةٍ على موافقتها على الزواج برجلٍ لن يكون مستقبلها معه بأفضل من ماضيها مع الذي مات، بينما جلست هيَ القرفصاء على سريرها لا يحميها من غضبهما إلا جفناها اللذان ينخفضان كلَّما ارتفعت ذبذبات أحبالِهما الصوتية.

***

وفي المنزل أخبر صالحٌ ابنته بسعادةٍ عن موافقة هند فدُهشت كثيراً وفاتحت أباها بأنّه قد يكون ظلم هند بذلك، ولكنَّه طمأنها مُبدياً تفاؤله الشديد بمستقبل عمرو، ثم تركها وفي عينيها تساؤلات كثيرةٌ وحمل حفيده الصغير وأخذ يداعبه. ومع ذلك فقد ظلَّت أُمامة مصرَّةً على رأيها وقرَّرت أن ترى هند وتتحدَّث معها في ذلك الأمر وتعرف منها سبب قبولها لمثل هذا الزواج. فزارتها في بيتها. وهناك علِمت منها أنَّ خطبة الرَّجل لها ما إنْ علم بموت زوجها آذنتها كثيراً لتجاهل الناس لما تشعر به وأنّ إصرار والديها يُضيِّق عليها الخناق ولا يترك لها وقتاً تعيش فيه أحزانها بهدوءٍ إلى أن تنتهي، فضلاً عن أنَّهما قد ينجحان في النهاية على جعلها تقبل تلك الزيجة التي تجد في نفسها نفوراً شديداً منها، وأنّها قد قبلت خطبتها لعمرو بسهولةٍ لأنّها ستتيح لها ذلك الوقت الذي تحتاجه لأنّه سجين. شعرت أُمامة بالامتعاض من سبب قبول هند لأخيها ولكنَّها تجاهلت ذلك الشعور وقالت لها:

- ولكنَّ سجنه قد يستمرّ طويلاً، وقد لا ينتهي، فهل فكَّرت في ذلك؟

- نعم، ولكنّي أعلم أيضاً أنّني أستطيع أن أُنهي الخطبة إذا طالت كثيراً لأن عَمْراً موجودٌ هنا.

ولم تُعجب تلك الإجابة أُمامة، ولكنّها شعرت أنَّ ذلك قد يكون في صالح شقيقها أيضاً كما قال والدها، وبدأت تتقبَّل تلك الخطبة شيئاً فشيئاً.

ولكنْ كان رأي عمرو مختلفاً. لقد كان جالساً على حافَّة سريره عندما جاء والده يزوره غيْر مكترثٍ كثيراً بوجوده أمام القضبان حتّى أخبره عن الخطبة. عندها شعر بشيءٍ يوقظه بقسوةٍ ويجذبه بعنفٍ إلى العالم الذي كان يريد الانسحاب منه، فما كان منه إلّا أن هبَّ واقفاً وتقدّم إلى النافذة ليواجه والده بغضبه. لقد ثار على أبيه ثورةً كبيرةً عندما أخبره أنّه خطب له امرأةً من دون إذنه، وعاب عليه تهوّره الذي جعله يتّخذ قراراً في شيءٍ يخصّه

دون علمه، واعتبر ذلك هيْمنةً أخرى عليْه مثل هيْمنة مختار على حرِّيته، ثم قال له صارخاً بغضب:

- هل تظنُّ أنَّ الناس كحديدك الذي تتفاخر بتشكيله وفق هواك؟ لماذا تضرب رؤوس الناس بمطرقتك؟

- ولكن، لو فرضنا أنّني استطعت أن أفعل ذلك بكلِّ الناس، هل تظنُّ أنّني أستطيع أن أفعله بك يا عمرو؟

- نعم! لقد فعلته! لقد وضعت رأسي بين مطرقتك وسندانك بتجاهلك لرأيي في شيءٍ يخُصّني أكثر مما يخصك، ولكنْ إنْ شفع لك ظنّك أنّ ذلك فيه مصلحتي، فما الذي يُبرِّر ما فعلته بتلك المسكينة التي ربطت حياتها بحياة سجينٍ فقط لأنّه ابنك.

- ولكنّني لم أجبرها على الموافقة. وليكن في علمك أنّ والديها لا يريدان تزويجها بك، وقد غضِبا عليْها بسبب هذه الخطبة، ومع ذلك فهي متمسِّكةٌ بها.

تنهَّد عمرو وهو يحاول استيعاب كلمات أبيه ثم قال له بإصرار:

- اسمع يا أبي، يجب أن تعتذر لها ولوالديها عن تلك الخطبة لأنَّني لا أريدها.

- لا يُمكنني أن أفعل ذلك، سأرسلها لك ولتخبرها ما تريد بنفسك.

ومشى الأب عائداً من حيث أتى وعمرو يصرخ فيه من خلف القضبان: "لا تُرسلها! لا شأن لي بها ولا شأن لي بما فعلْت، هل تفهم؟" فلم يسمع من أبيه غير خطواته في الممرِّ فصرخ قائلاً: "إذا أتت إليّ فسأسبِّب لها ولك حَرَجاً كبيراً لن تنسيانه طوال حياتكما... هل تسمعني؟ سأحرِجك وسأجعل المدينة كلَّها تتحدّث عن تهوُّرك..." ثم رفع صوته أكثر وقال وهو يكاد يخرج من بين القضبان: "إذا أتت فسأخبرها أنَّك قد أصبت بالخرف، هل تسمع؟"

سمع الشيخ كلَّ ما قاله ابنه ولكنَّه تظاهر بأنَّه لم يسمع شيئاً ومضى في طريقه إلى أن وصل إلى البيت. وجلس عمرو في حجرة سجنه وحيداً وهو ما يزال ساخطاً على أبيه لأنّه سبَّب له حَرَجاً كبيراً وتجاهل مصلحة تلك المسكينة التي ربط مصيرها بأنانيةٍ كبيرةٍ بمصير ابنه السجين، أما تلك المسكينة... وفكَّر فجأةً في تلك الفتاة ومن تكون، ثم أخذ فكره يصوِّر له خيالاتٍ كثيرةٍ عنها، فربما كان بها عيْبٌ جسيمٌ يجعلها توافق على الزواج بسجينٍ لا تعرفه، ولكنَّه في النهاية حاول أن يصرف فكره عن تلك المسألة ليتمكَّن من النوم.

وفي اليوم التالي قابل صالح هند وأراها اللحية والشاربين وطلب إليها بشيءٍ من الحرج أن تتنكَّر بتلك الأشياء وبملابس شبيهةٍ بملابسه وتذهب إلى السجن لتزور عَمْراً لأنّه يريد أن يراها، فتردَّدت هند في قبول تلك المَهمّة الغريبة، ثم أخذت ما في يده ووعدته بأنّها ستفكِّر في المسألة. وبعد يومين استقر رأيُها على أن تقوم بتلك المغامرة التي قد تكون مُسلّية. فذهبت وهي تمشي بحرجٍ في ملابس أبيها القديمة ولحية أبي عمرو وشاربيه وأدخلها الحرّاس، وهناك وقفت أمام عمرو الذي نظر إليها بدهشةٍ بعد أن خلعت لِحيتها وشاربيها وقال:

- هند..؟

- نعم.

- هل أنت من خطبك أبي لي؟

- نعم.

- ولكن، ألست متزوجةً بابن تاجرٍ كما سمعت؟

- كنت، ولكنْ بلَغنا مؤخراً أنّه مات منذ ثلاث سنين.

- لماذا وافقت على الزواج بسجين.

- لأنَّني أردت أن أهرب من إصرار أبي وأمي على تزويجي بمن يشاءان... وأردت أن أغلق الباب أمام أيِّ خاطبٍ آخر في هذه الفترة التي أريد أن أخلو فيها إلى نفسي.

ثم صمتت لترى استجابته ولكنَّه لم يقل شيئاً فأكملت:

- إنّني الآن بحاجةٍ إلى فترةٍ أستعيد فيها نفسي من دون نصائح والديّ وإلحاحهما المتواصل... ولكنَّ أُمامة حذَّرتني من أنَّك قد ترفض الخطبة.
- لم يُخبرني أبي أنَّه خطبك أنتِ، وكذلك رفضتها لأنَّني لا أريد أن أربط مصير إنسانٍ آخر بمصيريَ المجهول.
- تستطيع إنهاء المسألة إذا أردت.
- سأنهيها إذا أردتِ أنتِ ذلك.
- حاليَّاً لا أريدك أن تفعل لأنَّني أريد أن أفقِد والديّ الأمل في قبولي لذلك الرجل.
- كما تشائين.

عندئذٍ لبست هند اللحية والشاربين فضحك عمرو لمرآها بتلك الصورة ثم قال لها قبل أن تذهب:

- هل ستأتين ثانيةً؟
- سأفعل إذا كنت تريد ذلك.
- لا مانع من مجيئك إليّ.
- سآتي إذن إذا سنحت لي الفرصة ثانيةً.

ثم ودَّعته وانصرفت.

لم تكن هند قد أخذت خطبتها إلى عمرو مأخذ الجدِّ ولكنَّها عندما رأته في سجنه أولَ مرَّةٍ شعرت أنَّها ستكون لها معه قصَّة، وشعرت أنّ ثمّة شيءٍ يجذبها إليْه، لذلك فقد عادت إليْه بعد يومَيْن. وعندما وقفت أمامه رأى في

وجهها المألوف ذكرياتٍ طفوليَّة كثيرةٍ جعلته يشعر بالانجذاب إليها. أمّا هيَ فقد وجدت في ملامحه الطيِّبة الوسيمة وصوْته الهادىء شعوراً غريباً بالأمان والاطمئنان لم تر مثله في عيْنيْ سلمى عندما كانت مقدمةً على الزواج بمختار، ولم تشعر بمثلِه عندما رأت زوجها السابق، لذلك فقد نسِيتْه بعد أولِّ لقاءٍ لها بعمرو في السجن.

في زيارتها الثالثة سألها عمرو إنْ كانت تستطيع القراءة ثم قدَّم إليها بضعة كتبٍ فنظرت إلى تلك الكتب الكئيبةِ الشكل وابتسمت بسعادةٍ لمرأى أوّل هديّةٍ من عمرو. وفي البيت أخذت تقرأ تلك الكتب ليْلاً ونهاراً. ووجدت أنَّ القراءة أكثر إمتاعاً من مزْج العطور. وفي إحدى الزيارات قدمت إليه كتاباً وأخبرته أنَّها نسخته من أحد الكتب التي أعطاها إياها ففرِح بذلك وأخذ يقلّب صفحاته مُعجباً بخطّها فقالت له: "لقد شعرت وأنا أنسخه أنَّي أفعل شيْئاً هامّاً، له فائدةٌ أكبر من فائدة العطر، ثم جاءتني فكرةٌ غريبة..." وصمتت فحثَّها على إكمال كلامها فقالت بحياء: "هل تظنُّ أنّني أستطيع تعليم الأطفال القراءة والكتابة؟" فقال بدون تردّد: "نعم يا هند، مثلُك يستطيع ذلك." فابتسمت وقالت له: "كنت أظنُّ أنّ الكتب لا ينبغي أن يشتريها إلّا الوراقون والدّارسون، ولكنّي استفدت من قراءة تلك الكتب واستمتعت بها وشعرت أنّ القراءة لا ينبغي أن تقتصر على المحظوظين من الناس، ففكَّرت أن أعلّم الأطفال." فابتسم فرَحاً وحثّها على تنفيذ ذلك فقالت:

- لن أعلّم الأطفال القراءة والكتابة فقط، بل سأعلّمهم أشياء كثيرة... سأعلّمهم أنّهم يستطيعون أن يصنعوا العطر من دون أن يكونوا عطّارين يجلسون بين فئرانٍ معذَّبة... وسأعلّمهم أن يُصبحوا آباءً وأمهات لا يرسمون الحياة لأطفالهم أو يعيشونها لهم، بل أن يَعوا أنَّ أولادهم أناسٌ مختلفون، لهم أن يعيشوا أحلامهم الخاصّة ما دامت مشروعة.

- ولكنْ ليس كلُّ الآباء يفعلون ذلك يا هند.
- وأيضاً لا يصبح كل الناس سارقين عندما يكبرون ولكنْ كلَّ الآباء يعلّمون أبناءهم ألّا يسرقوا في طفولتهم... إنّني متأكّدةٌ من أنّك أيضاً لا تريد أن تعلّم طلّابك علوم الكتب فقط...

ثم توقفت عن الكلام وابتسمت لعمرو الذي كان ينظر إلَيْها مسروراً. لقد وجدت أخيراً من يقف معها على الجانب المُعاكس للجانب الذي يقف عليْه كلُّ الناس معاً. نظرت إلَيْه وقالت: "لقد ساعدْتني في أن أعرف نفسي، عرفت الآن أنّني كنت طوال حياتي أبحث عنك." فابتسم عمرو ولم يجد إجابةً مناسبة. كانا يقفان متقابلَيْن تفصل بينهما قضبان السجن ولكنّ عَمْراً كان آخذاً بيد هند يسير بها عبْر أغوارٍ بعيدةٍ ويصل بها إلى حيْث نفسها، بينما كانت هيَ آخذةً بيده تسير به عبر القضبان وأسوار السجن إلى حيث الحياة.

***

في أحد الأيام التقى نعمان بصالحٍ لدى عودته إلى بيْته فحيّاه تحيّةً سريعةً ثم اتجه إلى البيت وهو يحاول جاهداً أنْ يُفرِغَ مُخيِّلته من وجهه الذي أصبح يكره مرآه. لقد كان نعمان فيما مضى لا يرى في صالحٍ إلا جاراً طيِّباً صامتاً يمرُّ كالنسمة الهادئة من غيرِ أن يشعر أحدٌ بوجوده، ولم يكن يشعر تجاهه شعوراً خاصاً. أما بعد أن وافقت ابنته على خطبتها لابنه رُغم إرادته فقد أصبح يراه غريماً، ولم يعد في نظره كالنسمة الهادئة التي لا يلاحظها أحدٌ، بل أصبح له وجودٌ قويٌّ كوجود حصاةٍ صغيرةٍ داخل الحذاء. وأصبح يتمنّى أن يحدُث شيءٌ يبرِّر له التشاجر معه. وقبل أن يتمكَّن نعمان من طرد أثَر رؤية صالح الحدّاد من نفسه مدَّ يده ليفتح باب بيته ولكنّ الباب انفتح قبل أن يلمسه وأطلَّ منه وجه الحدّاد من الداخل، فارتدَّ إلى الوراء فزِعاً مدهوشاً قبل

أن يدرك أنّ ذلك وجه هند. عندها دخل وأغلق الباب خلفه وهو يقول: "ألا أستطيع الفرار من مرأى هذه اللحية!" ثم قال موجهاً كلامه إلى زوجته التي رآها قادمةً من الداخل: "وتتَّهمينني بأنّي جعلتها لا تهتمُّ بزينتِها مثل باقي النساء؟ تعالي وانظري ما فعل بها ذلك الحدّاد!" فحاولت هند تهدئته إلّا إنّه تمادى في غضبه وأخذ يُحاول إقناعها بترك عمرو وإنهاء تلك المهزلة. ولكنَّها تمسّكت بخطبتها له، فما كان من أبيها إلّا أن قرَّر أن يغامر بالسهم الأخير في جُعبته فيرميه إمّا اصطاد شيْئاً وإما فقد ما في جعبته، فخيَّرها بيْن أن تتزوّجه وتطلب إذناً رسميَّاً بزيارته على هيئتِها الحقيقيَّة كما تفعل أخته، وإمّا أن تُنهي الخطبة. فاحتارت ولم تدرِ ما تقرِّر، ولكنَّ صوت والدها جاء حازِماً مرّةً أخرى يقول لها إنَّ عليْها أن تذهب في الحال إلى السجن وتخبر عَمْراً بذلك. فخلعت هند اللّحية والشاربين وقالت بحزم: "لن أفعل ذلك." فأخذهما من يدها وهو يقول: "إذن سأفعل أنا ذلك... ولكنّي لن أذهب إلى السجن ولا شأن لي بالسجناء، بل سأخبر والده وأنا أعيد إليه لحيته." ثم دخل إحدى الحجرات وألقى بما في يده على رفٍّ بعيدٍ عن عيْنيْه وجلس مطمئناً إلى أن سهمه سيصيب لأنّه كان شبه متأكّدٍ أنّ هند قبلت ذلك الرجل لتتخلص من إلحاحه فقط، كما إن المَلك في الغالب لن يسمح بذلك. وسألته ابنته: "ألن تذهب إليه؟" فقال: "وهل تظنّين أنَّني أستطيع رؤية تلك اللحية ثلاث مراتٍ في يومٍ واحد؟ لن أذهب قبل الغد." فتركت هند والدها وهي تتساءل في نفسها عمّا سيأتي به الغد.

ذهب نعمان في اليوم التالي إلى والد عمرو ليُعلن له شرطه ذاك، فما كان من صالحٍ إلّا أن ذهب إلى ابنه بطلب أبي هند، فوقع في حيرةٍ كبيرةٍ مرَّةً أخرى إذ راوَده شعورٌ بأنّه سيجني عليْها إذا تزوّجها وتركها تنتظر انتظاراً قد يكون أبديَّاً. ولكنَّ والده نصحه بأن يفعل إذا قبِلت هيَ بذلك، وأثار في نفسه

التفاؤل باحتمال قُرب الخروج من السجن، فوافق. وأذِن لهما المِلِك بعقد القران شريطة أن يكون ذلك في السجن. وقد حاول المستشار أن ينصح المَلك برفض ذلك الطلب الذي قد يجعل صديقه يتمرَّد على سجنه ولكنّه تذكر جلسته ممدّد الساقين مُتورِّم الجبهة أمام الجدار قرب زوجته المعصوبة الرأس، فاحتفظ برأيه لنفسه.

وتم الإعداد للزواج، وجاء قاضٍ إلى السجن وحضرت هند وأبويْها وأحضر عمرو بعد أن قُيِّدت يداه ورجلاه إلى مدخل السجن حيْث المنضدة والأرفف التي تفوح منها رائحة الزمن المخزون. وحضر أبوه ومسعودٌ وجلس الجميع حول القاضي وتم عقد القران. ارتسمت ضحكةٌ كبيرةٌ على وجه عمرو وهو ينظر إلى هند التي كانت تبتسم له أيضاً بمودّةٍ بيْن والدتها بعينيها الدامعتين ووجهها الحزين على مصير ابنتها المجهول، ووالدها بوجهه العابس المُستاء من تلك الزيجة وهو يختلِس النظراتِ الغاضبةَ إلى صالح الحداد الذي انتصر عليْه ثانيةً وأفرغ ما في جعبته. ثمَّ هنَّأ صالحٌ ابنه وعروسه ثم هنأهما مسعود. ومن بعيدٍ وقف زرياب وميسرة يراقبان ذلك الزواج الغريب الذي هزَّ له زرياب رأسه بألمٍ وهو ينظر إلى القيود في يديْ عمرو ورجليْه ويقول: "مسكينٌ عمرو، لم أر في حياتي رجلاً يتزوج في الحديد قبله." فابتسم ميسرة وقال: "هل نسيت أنّه ابن حدّاد؟"

وبعد أن انصرف القاضي وخلفه هند وأسرتها ودَّع صالحٌ ابنه الذي أعاده الحارسان إلى حُجرته، ثم مشى بخطواتٍ سعيدةٍ مع مسعودٍ خارج السجن. لقد شعر أنَّه تخلّص من عبءٍ كبيرٍ بعد أن سلّم طرف الحبل الذي يحاول جرَّ عمرو به إلى الحياة وإبقائِه بعيداً عن الهاوية إلى يد هند التي كان واثقاً من أنَّها ستؤدِّي مَهمَّتها بنجاح.

في الأيّام التالية فاتحت هند والديْها برغبتها في تعليم الأطفال مما أثار استهجاناً لديْهما وجعلهما يحاولان إقناعها بالعدول عن رأيها. قالت لها والدتها: "هل ستقفين أمام الأطفال بعصىً طويلةً في يدك كما يفعل المُعلّمون البُلهاء؟ أفضّل أن أموت قبل أن أراك معلّمة." فابتسمت هند وحاولت إفهام والدتها أنّها قد لا تضطر إلى استخدام العصا ولكنّ الأم أصرَّت على الرفض الذي أيَّدها فيه والدها قائلاً إنّ مَهمَّة التعليم لا ينبغي أن تقوم بها امرأةٌ بل رجلٌ تبدو عليه البلاهة مثل والد سلمى صديقتها، فقامت هند من مكانها مُعلِنة نهاية الجدَل بتصميمها على تعليم الأطفال ولو كان ذلك بلا ثمن. فوقف والدها وقد أمسك ظهره مُتظاهراً بأنَّه يؤلمه ثم سعل وقال:

- وستتركينني أعمل وحدي يا هند؟

- أعلم يا أبي أنَّ باستطاعتك استئجار عشرة مساعدين.

ثم ابتسمت له وقالت: "وأعلم أنَّ خزنتك ملأى يا أبي، فكفاك بخلاً." فقال لها بإصرار: "لن أستأجر أحداً!" فقالت وهي تمشي إلى حُجرتها: "استأجر عاملاً وسأدفع أنا أجره عندما أعمل." فوقفت والدتها ووجّهت أنظارها إليها وهيَ تبتعد وقالت: "لن أسمح لك بإحضار أطفالٍ إلى هذا البيت." فقالت لها قبل أن تدخل: "بل ستفعلين في النهاية لأنَّك أمّي الحبيبة." فتنهّدت الأم غاضبةً فالتفت إليها زوجها قائلاً:

- كلٌ ذلك بسببه!

- عمرو؟ نعم، إنّه سبَب هذه الأفكار السخيفة.

- بل كلُّ ذلك بسببه هو؛ ذلك العجوز الحديديِّ الصدِيء!

ثم صمتا، كل منهما يفكّر كيْف يُزيل تلك الأفكار من عقل هند.

وبعد أسبوعٍ أعدَّت هند خلاله الورق والأقلام ومكاناً في الفناء واستقبلت أوَّل مجموعةٍ من الأطفال. أجلستهم ثم وقفت أمامهم مُحرَجةً لا تدري كيْف تبتدىء. وحاولت استحضار وجه عمرو ليكون معها في ذلك الموقف ولكنَّ ذلك لم يُجدِ، فاهتدت بعد أن زاد خجلُها من موقفها الصامت إلى أن تبدأ بسؤال الأطفال عن أسمائهم وإن كانت تعرف معظمهم. وفيما كان الأطفال يُخبرونها بأسمائهم جاءتها فكرة أن تبدأ بتعليمهم كتابة أسمائهم، فكتبت لكلٍّ منهم اسمه وأمرته أن يُقلّد ما كتبت، وعندما بدأوا الكتابة تنهَّدت بارتياحٍ لتخطّيها أوَّل عقبةٍ، ثم أخذت تتابع عملهم. بعد ذلك اليوم أخذت هند تُعدُّ ما تنوي تعليمهم إيّاه في المساء قبل أن تنام، وأصبحت أقدر على التعليم ولكنْ واجهتها مشكلاتٍ جديدةٍ من صخَبٍ بدأوا يُحدِثونه عندما ألِفوا المكان وبطءٍ يعانيه بعضهم في التعلّم. فأصبح التعليم شاقّاً جدّاً ولكنّها صمَّمت على الاستمرار لشعورها أنّها تؤدِّي شيئاً مفيداً. أمّا والدها فقد اضطر إلى إحضار مساعدٍ بعد أن رأى أنَّ هند تستنفد وقتها كلُّه في التعليم وإعداد الدروس ونسخ الكتب ليقرؤها عددٌ أكبر من الناس. وعندما قدَّمت إلَيْه أجر العامل للشهر الأول أخذه من يدها ونظر إلَيْه حائراً لا يدري ما يفعل، ولكنَّ زوجته دخلت عليهما وهوَ يقلّب النقود في يده وأخبرته أنّ تلك النقود ثمنَ ما باعته هند من مُجوهراتها، فنظر إلى ابنته مُستغرباً فاعترفت له أنّها لم تستطع أن تُطالب بثمن تعليمها الأطفال في تلك الظروف التي كان البلد يمرُّ بها، لذلك فقد قرَّرت أن تبيع بعض مجوهراتها لشراء لوازم التعليم من ورقٍ وأقلامٍ ولدفع أجرة العامل التي وعدته بها. عندئذٍ شعر نعمان بشعورٍ غريبٍ لم يألفه في حياته، شعر بنفحة كرم! لذلك نظر إليها بحنانٍ وأعاد إلَيْها المبلغ بكرمٍ شديدٍ وهو يُخبرها أنّه سيدفع لأجيره من ماله الخاص. ففرحت هند بذلك التحوُّل وقبّلت أباها، وعندما رأى فرحتها تلك شعر أنّ للكرم مردوداً جيّداً.

في أحد الأيام، بعد أن غادر الأطفال منزل نُعمان جلست هند تستريح على سريرها وهيَ تفكِّر فيما فعلت. وجدت أنَّ نسخ الكتب مُملّاً وأنَّ تعليم الأطفال لا يُعجبها كثيراً وإنْ كانت مُدركةً أنَّ عليْها أن تكمل ما بدأت. ثم نظرت من النافذة البعيدة التي تُطلُّ على ساحةٍ شبه فارغةٍ خلف المنزل تأملتها وتأملت الأشجار القليلة المُتناثرة فيها والمنازل البعيدة وشعرت أنَّ الدنيا واسعةً جداً، وأنَّها يُمكن أن تتوقَّف عن تعليم الأطفال في المستقبل وتبحث عن شيءٍ جديد... لم تُعلمها كُتب عمرو التعليم والنسخ فقط بل علّمتها أنَّ الإنسان له عقْلٌ حرٌ متعدِّد القدرات يستطيع به أن يفعل أشياء كثيرة إذا بدأ يعمل، وأنَّ الدنيا واسعةً جداً، أوسع كثيراً من مخزن والدها. ابتسمت لتلك الفكرة وهيَ تلهو بخصلاتٍ من شعرها المتماوج وتتأمَّل الدنيا الواسعة خارج النافذة.

١٢

شارفت الشمس على المغيب في شارع السدر في أحد الأيّام التي جعلتها هند إجازةً لها من تعليم الأطفال، وكانت تتجول في المنزل محاولةً التهرُّب من صورة عمرو الذي أصبح يسكن مُخيِّلتها قدْرَ ما يسكن سجنه، فاتَّجهت إلى المطبخ لتجد لها عملاً يصرفها عنه، ولكنَّها رأت أمّها هناك منهمكةً في إعداد طعام العشاء، وشعرت أنّها سترى ما بمُخيِّلتها وستسمع ما يدور في عقلِها وستلومها ثانيةً على عدم اتِّباع نصيحتها، ففضَّلت أن تذهب إلى حُجرتها وتجلس أمام النافذة لتتسلّى بمراقبة المارَّة. فتحت النافذة وجلست أمامها فإذا بنسماتٍ باردةٍ تُعلن عن قدوم الخريف. وتأمَّلت الطريق أمامها فرأت به أناساً يمشون ببطءٍ يعلو ملامحهم تجهُّمٌ وضيق. لقد أقبل الخريف ثم يأتي خلفه الشتاء ويعانون البرد، ثم يأتي الربيع وموعد الموكب ويجِدون جنود المَلك مختار يجرُّونهم خارج منازلهم ليصطفوا على جانبيْ الشارع ويتكلّفون الابتسام أمام السيوف، لذلك فلهم أن يعبسوا كما يشاؤون في ذلك اليوم ما دامت حرِّية العُبوس متاحة. كانت خطواتهم الوئيدة تنمُّ عن شيءٍ بداخلِهم، لم يكن ملاً فالملَل أصبح رفاهيةً لا يملكون ثمنها إذ لا يُعاني منه إلّا من خلت نفسه مما هو أسوأ منه، أمّا سكان السديمة فقد ملأ أنفسهم ما هو أكبر منه من فقرٍ وقهْرٍ وبؤس. كانت وجوه الناس متَّحدةً مع

نسماتِ الخريف وأضواء الغروب التي كانت تُلمْلِمُ النور من كلِّ مكانٍ فتطوِيه ببطءٍ ليحِلَّ الظلام مكانه إلى أن تبسطه ثانيةً شمس الصباح، ولكنْ هل سيكون صباح؟ من بيْن تلك الوجوه رأت هند وجه راعٍ يسوق غنمه عائداً إلى حظيرته أجاب على تساؤلاتها عن الصباح وهو لا يشعر أثناء غنائه لقطيعه الصغير من الأغنام العجْفاء بكلماتٍ منغَّمةٍ سهلةٍ علَّها تفهمها فإن لم تفعل فستفهم اللحن الحزين الذي أجاب تساؤلات هند، ولكنّه أوجد سؤالاً آخر: لماذا عمَّ الحزن المدينة؟ شعرت هند بتأثّرٍ شديدٍ ودمعت عيْناها؛ لقد اصبحت تشعر بأعماق الأشياء ومعانيها وأصبحت نفسها سطحاً شديد التأثّر بما يلامسه، وأصبح كلُّ شيءٍ يلامسه، وتذكَّرت عَمْراً ثانيةً فكرِهت مختار، وبدأت تراه عدوَّاً مُباشراً لها.

وفي اليوم التالي وقفت أمام قضبان نافذة عمرو تخبره عن أحداث أمسها وتعبّر له عن كراهيَّتها لمختار وثورتها عليْه وتمنّيها أن يُطاح به، وكان عمرو مندهشاً لما طرأ عليها. وما إن أتاه أبوه يزوره حتّى أخبره بما قالت له هند، ثم أخبره أنّه أصبح يتمنّى الخروج من السجن من أجلِها فقط، فضحك الشيخ بسعادةٍ وإشراقٍ وقال: "كنت أعلم أنّها ستنجح في إبقائك على السطح حتّى تخرج." ثم شعر أنّ الفرصة مواتيةٌ لشيءٍ ما دام عمرو قد بادر بذكر مسألة الإطاحة بمختار على لسان هند فأضاف: "مع أنّي أشعر أنّك ستخرج قريباً." فنظر عمرو إلى أبيه مستغرباً وسأله: "ماذا تعني يا أبي؟" فتردَّد الشيخ قليلاً وكأنّه أحسّ أنّه تسرع ثم أجاب:

- لا أعني شيئاً يا عمرو، أنت تعلم أنّني متفائلٌ دائماً.

- أبي، أخبرني، هل تَناهى إلى علمِك شيء؟ لقد لاحظت أنَّ زملائي المساجين أصبحوا يتكتّلون في جماعاتٍ في ساعة النزهة الأسبوعية، وأسمعهم

يتحدَّثون باهتمامٍ غريبٍ وما إن أقترب منهم حتّى يصمتوا أو يتظاهروا بأنّهم يتحدّثون في أشياءٍ لا أهميَّة لها.

ومرّةً أخرى انتهز صالح الفرصة ليخبره شيئاً كان يريد أن يتحدّث معه فيه منذ مدَّة، فاستجمع شجاعته واقترب من القضبان وقال له بصوتٍ منخفض:

- عمرو، ألا تتمنّى لو ثار الناس على المَلك وأقصوْه عن الحكم أو قتلوه بجرائمه وعيَّنوا مَلِكاً آخر أفضل منه؟

- ما هذه الفكرة الغريبة يا أبي، هل تعلم أنّ أحداً سيفعل ذلك؟

- إنَّ الناس غاضبون يا عمرو... لا أحد يعلم كم من الناس يتمنّوْن ذلك، وقد سألتك لأنّني أحببت أن أعرف رأيْك في هذه المسألة التي حتماً ستُخرجك من السجن...

- أنت تعلم أنّني أكره سفك الدماء ولن يتنازل مختارٌ بلا سفك دماءٍ كثيرةٍ من دماء أبناء المدينة.

- ظننت أنّك ضقت ذرْعاً بالسجن، وأنّك تتوق إلى الخروج.

- إنّني أتوق إلى الخروج ولكنْ ليس بأيِّ ثمن.

- حتّى بعد أن تزوَّجت وأصبحت مسؤولاً عن زوجتك؟

- زوجتي تعلم رأيي في هذا الأمر...

- ولكنّي عدت لا أطيق بقاءك في السجن، لا بدَّ أن تخرج وتنعم بحرّيتك يا بنيّ.

لاحظ عمرو الألم في عيْنيْ والده فقال له مواسِياً:

- وهل كلُّ من هم خارج السجن سعداء، قد لا تراني سعيداً وإن خرجت من السجن.

- ومن قال لك إنَّ همِّي هو أن أراك سعيداً يا عمرو، أعلم أن السعادة ليست شيْئاً مضموناً، ولا يهمّني أن أراك سعيداً قدْر ما يهمّني ألّا تكون مظلوماً.

أطرق عمرو قليلاً ثم رفع رأسه وقال:

- قد تكون ثمَّة وسيلةٍ أخرى لإخراجي من السجن غيْر إراقة الدم. إنَّ للإنسان عقلاً يا أبي يستطيع من خلاله أن يُصلح أموراً كثيرة... لو كنت خارج السجن لحاولت منْع أيِّ عملٍ به سفك دماء ولحاولت إقناع الناس باللجوء إلى العقل والحكمة لحلِّ مثل هذه المسائل...

- وكيف يُخرجك العقل من هنا؟! ولو سلّمنا بأنَّ العقل يستطيع إخراجك فما الزمن الذي سيستغرِقه لإخراجك؟ لو انتظرت حلَّ العقل يا بُنيّ لربمّا انتظرت عمرك كلّه أو خرجت عجوزاً من قضبان السجن إلى قضبان الشيخوخة.

- أبي، هل تعني أنّك تُحبِّذ الإطاحة بمختار؟ أرجو ألا....

- ما زلت تُحبّ ذلك المَلك الجائر!

- لا أحبّ المَلك يا أبي ولكنّني أكره القتل... كما أنّي وإن كرهت "المَلك" لا أستطيع أن أكره صديقي القديم الذي أشعر أنّه في غيْبوبةٍ سيستفيق منها في أحد الأيّام، وعندما يتوب الإنسان تُغفر له ذنوبه مهما عظمت.

- هل ترجو له ذلك حقاً يا بنيّ؟

- نعم يا أبي.

- لا أستطيع أن أحمِلك على كره صديقك ولكنّي أستميحك عُذراً في كُرهِه واحتقاره.

- كما تشاء يا أبي فهوَ يستحقُّ منك ذلك، ولكنْ لا تتمنَّ الإطاحة به ولا تفكِّر في هذه الأمور فدماء أبناء مدينتنا أغلى من أن تُراقَ في سبيل إزالة مَلكٍ عن عرشه...

- إطمئنّ يا عمرو، هل تظنُّ أنني أفكّر في هذه الأمور في هذه السن؟

- ولأطمئِنك يا أبي، فإنني قد قرَّرت أن أوافق على عرض مختار إذا عرض عليّ أن أعمل معه مرَّةً أخرى، وسوف أحاول إصلاح الأمور التي أفسدها... كنت أحتقر حكومته وأرفض العمل معه في السابق، ولكن ما دام هذا هو الحلّ الوحيد، فسأقبله.

لم يكن صالح صادقاً مع ابنه إذ كان قد وصل في تفكيره في تلك "الأمور" التي نفى اهتمامه بها إلى مرحلةٍ لا يتخيَّلها عمرو، ولكّنه قدّم الأمر بتلك الصورة لابنه لِيعرف رأيه في المسألة ولِيرى إمكانية إشراكه مع جماعته في الخطّة المضادّة، وقد أوحى له أنّه لا يفكّر في ذلك بسبب كبر سنه عندما استشعر رفضه للفكرة لكيْ لا يحاول تحذير مختار من شيءٍ بدافع كرهه لإراقة الدماء فيُفسد الخطة.

غادر الأب السجن إلى مركز الخطة المضادة حيْث أبلغ مركز قيادة الخطة بإلغاء اسم ولده من القائمة المتضمِّنة لكلِّ المساجين المشتركين في الخطة المضادة ممن عارضوا حكم مختار وقاتلوا مع الملك السابق، مع إبقائه في قائمة من يُطلق سراحهم يوم التنفيذ من سجناء الملك.

***

ظلت ابتسامات الناس المصطنعة في الموكب الماضي مرتسمةً في مخيِّلة مختار طوال الأشهر التي تلته تسخر منه سخريةً لاذعةً وتصوِّر له ما قد يفعله به بُغض الناس له، ثم يتذكر البحيرة التي قد تصوِّر أسداً آخر فيزداد قلقه.

في إحدى الأمسيات زاد توتُّر مختار وضيقه بهمومه وهموم بلده فأخذ يدور قلِقاً في غرفته الملكيّة الواسعة بشكلٍ ضايق سلمى فسألته: "ما بك؟ ألا تكف عن هذا الدوران." فأجاب: "إنّني حائر، أريد أن أرى نفسي في البحيرة

ولكنَّني أخشى أن أنظر فأراني قطّاً مرَّةً أخرى." وأكمل دورته ثم توقَّف وقال: "أو ربما فأراً! ما العمل؟ ما الذي يُعيدني إلى أسديَّتي؟ أريد أن أعود أسداً. لو رأيت نفسي أسداً لما أقلقني ما قد يُخطّطه الناس ضدي... أعرف أنَّهم لن يهزموني أسداً، لن يهزموا إلا القطّ والفأر." فصاحت به زوجته:

- مختار! هل جننت؟ إنس صورتك في البحيرة نهائياً، وضع جهدك في إدارة شؤون البلاد بدلاً من التفكير في تلك المسألة.
- كيْف! كيف؟ كيف يُدير القطّ شؤون البلاد! ماذا حدث لي؟ سلمى، أخبريني، لماذا تغيَّرت صورتي، لماذا لا أعود أسداً؟

تنهّدت سلمى وقد ضاقت به ذرعاً، ثم فكّرت بُرهةً وقالت:

- ربّما كنت أسداً عندما كنت مسؤولاً عن نفسك فقط، أيْ كانت لك صفات الأسد وأنت ترعى شؤون إنسانٍ واحدٍ وبيتٍ واحد، أمّا عندما أصبحت راعياً لبلدٍ كاملٍ بكلِّ ما فيه من ناسٍ فقد عجزت عن ذلك... أعني ربّما كانت قدرتك على القيادة لا تحتمل قيادة أكثر من شخص أو أسرة.
- ما هذا الهراء!
- ليس هراءً يا مختار، ألم تلاحظ أنّك كنت أكثر حِنكةً في التخطيط، لقد كنت تفكّر طويلاً وبرويّةٍ قبل أن تخطو خطوةً واحدةً في حياتك، أمّا الآن بعد أن استلمت الحكم فقد أصبحت تتّخذ قراراتٍ سريعةٍ وغيْر سليمة، ألم تسأل نفسك لماذا؟

هزَّ مختارٌ رأسه رفْضاً لما تقوله سلمى ثم قال:

- لا قيمة للأسد إلّا وسط باقي حيوانات الغابة، لذلك فما تقولينه غير صحيح... المُشكلة هيَ أنّه عندما اختفى الأسد فلا بدَّ أن يحلَّ أسدٌ آخر محلَّ الأسد القديم وهنا مكْمن الخطر، هنا المُصيبة.
- لِمَ المُصيبة؟

- هل تظنِّين أنّ من يرى نفسه أسداً يستطيع مقاومة الجلوس على العرش؟ لا أحد يرى نفسه كفؤاً لشيءٍ ويتجاهله. ومن يرى نفسه أسداً لا بدَّ أنّه سيستسهل المغامرة والخديعة والقتال وسفك الدم وكلَّ شيء، ولن يهدأ له بالٌ حتّى يحظى بما هو أهلٌ له.
- لا لزومَ لهذا القلق، لا يبدو أنَّ ذلك سيحدث... أنت نفسك قلت إنّه لم ير أحدٌ نفسه أسداً في البحيرة غيرك، فلا تقلق. لن يحدث ذلك أبداً.
- بل قد يحدث، وقد يحدث قريباً!
- لن يحدث! وستُتوّجُ بنفسك وليَّ عهدِنا عندما يكبر، وسأذكِّرك بذلك.
- وليّ عهدِنا؟ فِراس؟ كم أصبح عمره؟
- إنّه في العاشرة من عمره تقريباً، كيْف تنسى عُمر ولدك.
- في العاشرة! إنّ السنين تمضي كالريح، لقد كنت أظنُّه في الثامنة.
- ليلى هيَ التي في الثامنة.
- ليلى أصبحت في الثامنة؟ متى تعدَّت السادسة؟

أخذ مختار يهزُّ رأسه عجَباً من جَريان الزمن ثم تنهَّد وقال: "إذن فضريبة الخبز مضى على فرضها ثمانية أعوام." فاستاءت سلمى منه وقالت:

- هلّا ذكرت مولد ابنتك بمناسبةٍ أخرى.
- أذكر أيضاً أنّنا فرضنا ضرائب كثيرةً في ذلك اليوم غير ضريبة الخبز.
- مختار!
- أعذريني يا سلمى فتلك الضرائب كانت أوَّل ما ألّب الشعب ضدِّي، لذلك لا أستطيع أن أنساها.

تركته سلمى وذهبت تطمئِن على طفليْها قبل أن تنام بينما استلقى مختارٌ على السرير وأخذ يُحدِّق في السقف ساهماً. وبعد قليلٍ عادت سلمى إلى

الغرفة ثم بدأت تُطفىء المصابيح، ولكنّها توقَّفت فجأةً عندما جاء صوت زوجها يسألها: "سلمى، كم كان عمر المَلك عندما قتلته؟" ففوجئت بذلك السؤال الذي جعلها ترى مقدار ما كان يعانيه مختار بسبب مخاوفه من شعور إنسانٍ آخر باستحقاقه المُلك فتنهَّدت وتركت المصابيح وجلست على السرير وقالت بانفعال:

- ليْت هذه البحيرة لم توجد... ليْتها تختفي... ليْتها تُردَم!

- تُردم؟ هل ترين أنَّ ردمها مُمكناً؟

- نعم؟ إنّها بحيرةٌ صغيرةٌ ومن الممكن ردمَها.

- لا أعني ذلك، أعني... هل من الحكمة ردمُها؟

- لا أعلم، ولكنْ قد يُريحك ذلك.

- سأتشاور في هذا الأمر مع المستشار... فإنْ رأى ذلك ممكناً أمرتُ بردمها.

ثم نظر إليها بمودّة وقال: "إنّ لك آراءً جميلةً جداً يا سلمى."

عندما انفرد مختار بمستشاره ذكر موضوع ردم البحيرة فأظهر المستشار دهشةً كبيرةً لمح فيها مختار بعض الاستهجان، فقال له:

- لِمَ الدهشة؟

- إنَّ البحيرة يا سيِّدي المَلك جزءٌ هامٌّ من هذه المدينة، بل ومن هذا البلد كما تعلمون. ولا يخفى على سيِّدي المَلك المعظّم أنَّها تجلب الكثير من الناس من كلِّ أرجاء العالم فيُنعشون ماليَّة البلاد... إلّا إذا كنتم ترَوْن غير ذلك يا سيِّدي المَلك المعظّم.

- إنّنا نرى غير ذلك أيّها المستشار سفيان.

- ماذا ترَوْن يا سيِّدي المَلك؟

- نرى أنَّ البحيرة يجب أن تُردم لأنَّ مضارُّها أكثر من نفعها.

- كيْف يا سيِّدي المَلك مختار.
- إنّها تحطّم الناس بصراحتها القاتلة، بلْ على الأحرى، بأوهامها.

ثم غيّر وضع جلسته وقال:

- أذكر أنّي مررت بجانبها مرَّةً فوجدت طفلةً صغيرةً تبكي بكاءً مُرّاً كادت كبدها تنفطر منه، فلّما سألتُها عن السبب قالت لي إنّها حزينةٌ وتعسيةٌ وبائسةٌ لأنّها رأت نفسها دجاجة... أتريد منّا أن نؤذي أطفالنا الأحبّاء بهذه الأوهام؟
- في هذه الحالة يا سيِّدي المَلك المعظّم لا أمْلك إلا أن أوافقكم وأنحني إكباراً لرهافة حسِّكم وطيبة قلبكم يا سيِّدي المَلك المعظّم... ولكنْ يا سيِّدي المَلك الطيِّب القلب، هل فكَّرتم في حجةٍ نقنع بها الشعب بقبول ردم البحيرة التي يفتخر بها؟
- والأطفال؟ أليس للأطفال قيمةٌ عند الشعب؟
- بلى يا سيِّدي المَلك، ولكن.. تعلمون يا سيِّدي أنَّ كثيراً من الناس لا يشاركون سيِّدي المَلك طيبة قلبِه المَلكيِّ ورفاهة حسِّه، لذلك، أقترح على سيِّدي المَلك أن يلقي خطبةً يُقدِّم فيها للشعب المُتحذلِق أسباباً تقنعهم بقبول ردم البركة.
- حسناً، أكتب الخطبة واعرضها عليّ غداً.
- ولكن يا سيِّدي المَلك، إذا أراد سيِّدي المَلك المعظَّم خطبةً جيّدةً تُقنع الناس فلا بدّ أن يمنحني وقتاً كافياً لأفكِّر في شيءٍ يقنعهم.
- حسناً، سأمنحك الوقت الذي تحتاجه، ولكن تذكَّر أنَّ هذا سرٌّ خطيرٌ لا ينبغي أن يفلِت منك بأيِّ شكلٍ من الأشكال، هل فهمت؟
- فهمت، فهمت... يا سيِّدي المَلك... المعظّم.

لقد فهم المستشار ما قاله المَلك ولكن المَلك لم يُدرك حجم المعاناة التي عجَّ بها صدر المستشار الذي عاد إلى بيْته وظهرت عليْه كلَّ أعراض اختزان الأسرار من الحركات العصبيَّة إلى قرض الأظافر والسرحان. فلاحظته زوجته وتظاهرت بتجاهله حتّى أتى الليل فنامت قريرةَ العيْن بيْنما ظلَّ المستشار يدور في الغرفة التي لم يكن يضيؤها إلا نور البدْر المكتمل الذي يدخل عليْه من خلال النسيج الحريريِّ الرقيق للستائر. ثم عندما لم يُطق على الأمر صبراً اقترب منها وهي نائمةٌ وأخذ يناديها همْساً ولكنَّها لم تُجِب، فاطمأنَّ إلى نومها فقال بهدوء: "لقد قرر المَلك أن يردم..." كانت خطة سُعدى أن تتظاهر بالنوْم لتجعله يتحدَّث كما يشاء ولكنَّ فضولها دفعها إلى مقاطعته عندما سمعت ذكر الردم، وقبل أن يكمل كلمته فتحت عيْنيْها وسألته بكلماتٍ قُدَّت من فضول: "ماذا يريد أن يردم؟" فارتعب وهو يتخيَّل غضب المَلك عليْه عندما تتحدَّث المدينة غداً عن خبر ردم البحيْرة قبل أن يُهيىء الناس لاستقباله، فترك الغرفة وهبط الدَرج قفزاً ثم جرى في الممرّات المظلمة تخلُّصاً من إلحاح زوجته الذي قد يجعله في النهاية يبوح بذلك السرِّ الخطير، إلى أن وصل إلى المخزن، فدخله. وهناك جلس على صندوقٍ صغيرٍ حاشراً نفسه بين صندوقيْن كبيريْن حيْث أشعرته رائحة الغُبار أنَّه في مأمن، ولكنَّ سُعدى أشعلت شمعةً وجاءت تبحث عنه إلى أن وجدته، وأخذت تُلحُّ عليه وهو يحاول جهده أن يقاوم الرغبة في البوْح إلى أن قال:

- ليْتك كنت تحفظين الأسرار كالمَلكة، إن المَلك يقول إنِّها تعلم من أسراره وأسرار الدوْلة ما ينوء الإنسان بحمله.
- الملكة سلمى؟ تعرف كل تلك الأسرار؟
- لا يهمّ ما تعرف من أسرار، ما يهمّ هو قدرتها العجيبة على الاحتفاظ بها، لو كنتِ تملُكين نصف قدرتها لأخبرتك كلَّ ما أعرف بلا خوف.

ظنَّ المستشار أنَّ سُعدى ستلح عليه، ولكنَّها كانت مبهورةً بخبر اختزان الملكة لكلِّ تلك الأسرار فاتَّجهت إلى باب المخزن وهيَ تقول: "لا بدَّ أن أزور الملكة. لا ينبغي لزوجة مستشار المَلك أن تُهمل هذا الواجب." فقال لها: "انتظريني لأخرج معك فليس لديَّ شمعة." فقالت: "ولكنّي في عجلةٍ من أمري." فسأل بدهشة: "إلى أيْن أنت ذاهبة، هل ستذهبن إلى الملكة في منتصف الليل؟" فقالت وهي تغادر المخزن: "لا ولكنّي سأذهب إلى غرفة الملابس لأُعُدَّ ما سأرتديه غداً."

ظلَّ المستشار في مكانه قليلاً بعد أن ذهبت زوجته التي لم يفكِّر في مناقشتها بخصوص زيارتها للملكة لعدم تذكيرها بالسرّ. وعندما سمع صوت خطواتها يكاد يتلاشى في ممرّات القصر قال: "ألا تريدين أن تعرفي ماذا يريد الملك أن يردم؟ إنَّه يريد أن يردم البحيْرة! هل تتخيَّلين ذلك؟" ثم استخرج نفسه من بين الصندوقين وخرج من المخزن يتحسس طريقه بيديْه الاثنتين إلى أن وصل إلى سريره فدخل تحت اللحاف ونام ملء جفنيه.

***

وفي الصباح بيْنما كان المستشار يسير إلى مقرِّ قيادة المؤامرة وهو يُفكّر في الخطبة التي سيكتبها للمَلك، كانت زوجته ترتدي أجمل ثيابها وتُهيِّيء نفسها لزيارة الملكة. ثم عندما فرغت من ذلك استدعت السائس وأمرته بتجهيز ركْبٍ يليق بمقامها، ثم ألقت نظرةً أخيرةً على نفسها في المرآة خرجت بعدها من البيت وانطلقت إلى قصر الملكة. وهناك استقبلتها سلمى ببرودٍ بالرغم من الحرارة التي حيّتها بها سُعدى. ثم جلست المرأتان صامتتيْن بُرهةً وسُعدى تحاول استرجاع الكلمات التي كانت هيّأتها لهذه الزيارة في الليلة السابقة بعد أن أضاعها فتور استقبال الملكة لها. وبعد قليلٍ أوضحت أنّها

أتت لزيارتها أداءً للواجب الذي يُحتِّمه عليْها كونها زوجة مستشار المَلك، فشكرتها سلمى ببرود. عندئذٍ شعرت بفشلٍ ذريعٍ في أداء ما أتت لأجله ولكنَّها تماسكت وأعربت للملكة عن رغبتها في زيارتها مرَّةً أخرى فأذِنت لها بذلك على مضض، وانتهت الزيارة التي تركت سلمى مرتابةً في أمر سُعدى.

بعدها بأيامٍ قدِمت سُعدى ثانيةً تزور الملكة. وفي هذه المرّة تحدَّثت معها أحاديث متنوعة، وذكرت لها طرائفَ متعدِّدة فأنِسَت بها الملكة وطلبت إليها أن تزورها دائماً. وبعد عدّةِ زياراتٍ أخذت سُعدى تحاول انتزاع أخبارٍ صغيرةٍ من الملكة ففطنت سلمى لفضولها فاستخدمت الأسلوب الذي استخدمته هيَ معها في استخلاص المعلومات مع إدخال تحسينٍ عليْه، فكانت النتيجة أنّها توصَّلت إلى كشف حقيقة سُعدى المتعطّشة لمعرفة الأخبار والأسرار ونشرها، فواجهتها بذلك فسُقط في يدها ولم تملك إلّا الاعتراف بذلك، فسألتها سلمى سؤالاً مفاجئاً: "هل أنت من نشر خبر فقدان الأميرة ليلى قطّتِها؟" فتلعثمت المرأة فاستنتجت سلمى نقل المستشار لذلك الخبر لها، وواجهتها بذلك فتصبَّب منها العرق نتيجةً للشعور بالحرج والخوف من زوجها وعليْه وعلى وظيفته، ورجت الملكة ألّا تخبر المَلك بذلك، فوعدتها ألّا تفعل إذا أخبرتها بحقيقة الأمر وبسبب عزْل المَلك السابق لزوجها نظيرَ وعدها ألّا تخبر أحداً بأمرهما، فاضطرت سُعدى إلى الاعتراف بأنَّ المستشار أخبرها بمسألة الهرَّة وبأنَّها أخبرت الجيران، وبأنَّ سبب عزْل المَلك السابق لزوجها كان عجزه عن كتم أسرار الدولة والقصر، فهزّت سلمى رأسها مستنكرةً وقالت لها: "وتريدين المَلك مختار أن يُبقيه في منصبه؟" فقالت سُعدى: "ولكنَّ مسألة إفشاء الأسرار مسألةٌ قديمةٌ جدّاً انقطع عنها تماماً عندما عمل مع سيِّدي المَلك مختار حتّى ليكاد ذلك أن يقتله." فقالت لها سلمى:

- ونشر خبر الهرَّة المفقودة، هل كان شيئاً قديماً جداً؟

- لا، ولكنَّه ذكر لي ذلك لأنَّه لم يكن يعلم أنَّ القصر كان يرى ذلك سرِّاً. لقد ظنَّ أنَّه شيءٌ عاديٌّ يحدث حتّى في البيوت العادية.
- إن كنتما تريانه كذلك فلِمَ نشرت الخبر بين الجيران؟
- كنت أعبِّر عن ضيقي لحزْن الأميرة على هرّتها.
- سأقبل ما تقولين ولن أخبر المَلك، ولكنْ إن تسرَّب سِرٌّ واحدٌ من أسرار الدوْلة أو أسرار القصر فسأضطر إلى أخباره.
- أعد سيِّدتي الملكة أنَّ ذلك لن يحدث ثانيةً، وأعد أيضاً بإبقاء ما دار بيْننا سرَّاً حتَّى على زوجي.
- سنرى.
- لن أخيِّب ظنَّ سيِّدتي الملكة.

ثم ودَّعت سُعدى الملكة وانصرفت وهي تشعر أنّها أصبحت عاريةً بعد أن تجرَّدت من السرِّ الوحيد الذي كانت تحتفظ به. وأحسَّت بندمٍ قاتلٍ لأنّها تُعرِّض زوجها للإيذاء مرّةً أخرى. وزاد من شعورها بالأسى أنّها تعلم من زوجها أنَّ المَلك إذا عرف سرَّه فلن يكتفي بعزله عن عمله بل سيفعل به ما يفعله بمعارضيه من نفْيٍ أو حبسٍ أو قتل. اقشعر جلدها وهي تتخيَّل ما قد يحدث لزوجها وربما لها أيضاً إن أخلفت الملكة وعدها. وصمَّمت على مفاتحة زوجها بتلك المسألة ليتسنّى لهما الهرب قبل أن تطالهما يد المَلك، ولكنّها ما إن وصلت إلى قصرها ورأت زوجها قادماً من الحديقة بقامته العملاقة حتّى عدَلت عن قرارها إذ تخيَّلت مقدار غضبه وثوْرته عليها إنْ هي أخبرته بما كان بيْنها وبيْن الملكة التي فاق مكرُها وقدرتها على كتم الأسرار تصوُّرها، فقررت كتم ذلك السر، وقررت أن تنقطع عن زيارة سلمى بعد أن عانت في زيارتها الأخيرة لها ما عانت، واكتفت بأن تتمنّى من أعماق قلبها أن تفي الملكة بوعدها.

أما الملكة فقد شعرت في بداية الأمر أنَّ إخلاصها لزوجها يحتِّم عليها أن تخبره عن المستشار الذي يوليه ثقته ولا يشكُّ فيه، ولكنَّها تذكَّرت وعدها لامرأته، وتذكَّرت يوم شَهَر مختار سيْفه عليْها، فرأت أن تحتفظ بما تعرفه عن المستشار سرَّاً إلى حين الحاجة إلى البوح به، متحسِّبةً لمناسبةٍ تستطيع فيها استغلال تلك المعلومة أحسن استغلال، خاصةً وأنّها أشعرتها أنَّ لديها أسرارها الخاصّة التي تستطيع اللعب بها كما يلعب مختار ومستشاره بما يعرفانه عن الآخرين، وقد تتمكَّن من جعل المستشار يفعل ما يمكن أن تُريده منه في المستقبل إذا علم بما تعرفه عنه. ثم جلست أمام المرآة لتصلح من هندامها ونظرت إلى نفسها وهي ما تزال تفكر في كيْفيّة استغلال تلك المعلومةِ فشعرت أنّها لا تنظر إلى نفسها بل إلى امرأةٍ أخرى شكَّلها مختار ومستشاره في السنوات العشر الأخيرة بأساليبهما الملتويةِ التي جعلتها لا تستنكر كثيراً تَسبُّب مختار في قتل هيْثم وقتله السائس والحارس وكثيرٍ من الناس عمداً. بل إنّها رأت أنّ تلك الجرائم كانت حُلولاً اضطرّ إليها حفاظاً على مركزه واستقرار مُلكه. ثم تذكَّرت ما كانت صمَّمت عليْه من تغيير مختارٍ عندما علِمت بقتله المَلك أوَّل مرَّةٍ وأدركت أنّها لم تنجح في ذلك، فلمعت عيْنها بدمعةٍ أصغر من أن تسقط وهي تخاطب أباها في نفسها: "أبي، لقد فشلت فشلاً ذريعاً في جعل مختار ما أريد، بل وانجرفت معه إلى ما كنت أحاول أن أجنِّبه إياه." ثم أخذت تفكِّر مليّاً فيما حدث ويحدث فوجدت أنّ التي قرَّرت ذلك القرار القديم لم تكن سلمى الملكة، بل كانت سلمى ابنة المعلم الفقيرة التي لم تمرّ بتجاربٍ كثيرةٍ في الحياة تجعلها ترى الخيارات المتعدِّدة التي تعرُضُها الظروف على الإنسان ليتخيَّر منها ما يناسبه، لذلك فلم يكن أمامها آنذاك إلا طريقاً واحدةً هي الطريق التي علَّمها إيّاها والدها. أما بعد أن تغَلْغَلَت شخصيّة زوجة المَلك مختار فيها وبلغت الثالثة والثلاثين من العمر

فقد أصبح يتعيَّن عليْها أن ترى الأمور بشكلٍ آخر وتدرك أنّ الأشياء لا يمكن حبسها في مُسميّاتٍ بعينها، فالابتزاز الذي تنوي ممارسته على المستشار لا ينبغي أن يُسمّى ابتزازاً بل سلاحاً يُمكِّنها من "إصلاح" أشياءٍ كثيرةٍ أو "تجنُّب" كوارث عديدةٍ يمكنه أن يقود المَلك إليها. ارتاحت سلمى لتبرير نواياها غيْرِ البريئةِ فمسحت دمعتها الصغيرة جداً وهي تخبِّىء تلك المعلومة الخاصة بالمستشار في مكانٍ أمينٍ في ذاكرتها.

***

في اليوم التالي توجّه المستشار إلى الملك مختار وقدَّم إليه رقعةً كتب فيها الخطبة، فتناولها مختار وأخذ يقرؤها. كانت الخطبة تبشِّر الشعب بقرب افتتاح المستشفى الأول وتُخطرهم بعدم وجود مكانٍ في المدينة أكثر مناسبةً له من مكان البحيرة الذي يتميَّز بهوائه العليل الذي لا يحتاجه أحدٌ بقدْر ما يحتاجه المرضى المساكين، ثم تعتذر عن الإضطرار إلى ردم البحيرة ليُبنى المستشفى مكانها. أعجب مختار بالخطبة وأمر المستشار أن ينتقي له زمناً مناسباً لجمع فئاتٍ من الشعب في ساحةٍ عامةٍ لإلقائها عليها، فابتسم المستشار متلطّفاً وقال بأدبٍ جم:

- ولكن، لا بدَّ من إجراءٍ صغيرٍ قبل إلقاء الخطبة يا سيّدي المَلك المعظّم.

- ما هو أيها المستشار العزيز؟

- لا بدَّ من أنْ نقطع على الشعب فرصة عدم الموافقة، وأنّ نضمَن موافقتهم التامّة التي تجعلهم يُقدِمون على ردمها بأنفسهم... يا سيّدي الملك المعظم.

نظر إلْيه مختارٌ باهتمامٍ وسأل: "كيْف؟" فأجاب المستشار بخُبث: "بأن نُقدِّم لهم شيْئاً قبل إلقاء الخطبة بمدَّة." فأخذ المَلك يفكِّر ثم قال: "فلنُلغ ضريبة

العنب والبرتقال." فأجاب المستشار بحرجٍ من قلّة فهم المَلك: "بل كلَّ ضرائب المأكل والملبس يا سيِّدي المَلك، إن أراد سيّدي المَلك المعظّم تهيئتهم لقبول ردم البحيرة." فقال الملك بتردُّدٍ وضيق: "حسناً فلنُلغ كلَّ تلك الضرائب إذاً." فقال المستشار: "ولنُعِد جِرايات الأرامل والمُسنّين إنْ أراد سيّدي الملك قبول الشعب لذلك العمل الخطير." فكاد مختار أن يثِبَ عليْه ولكنَّه تمكَّن من السيطرة على نفسه واكتفى بأن صرخ في غضب: "هل جُننت! ألا تعلم أنّ ذلك سيقضي على الخزينة!" فأكمل المستشار برباطةِ جأش: "ولكنْ، إنْ أراد سيّدي المَلك المعظّم الموافقة التامة فليصرف لكلِّ ساكنٍ من سكان المدينة هبةً ماليّةً بحجّة زيادة ماليّةِ الخزينة." فجُن جنون سيِّده الملك المعظّم فأخذ بتلابيبه وقال:

- هل فقدت عقلك أيّها المستشار المخبول؟ كيْف نفعل ذلك والخزينة مُفلسة!

- إذا أراد سيّدي المَلك أن يضمن الموافقة الفوْريّة... وفي الإمكان إعادة كلِّ شيءٍ كما كان بعد أن نحقِّق غرضَنا.

فرفع مختار يده عن تلابيب المستشار وقال على مضض: "حسناً، سنفعل كلَّ ذلك لأنّي وإنْ كنت أستطيع أن أفرض على الشعب ما أريد إلّا أنّني أحاول ألّا أكون مكروهاً." ثم قبل أن تعود تلابيب المستشار إلى وضعِها الطبيعيّ قبض عليْها مختار ثانيةً واقترب منه وأكمل بصوْتٍ كالزئير المحذّر: "ولكنْ، إنْ فشلت خطّتك ولم يُظهِروا رضىً حقيقيّاً بعد كلِّ تلك النفقات فستفقد عملك في الحال!" فابتسم المستشار بمكْرٍ واطمئنانٍ وهو بيْن براثِن المَلك وقال: "وإذا نجحت خطّتي يا سيّدي الملك المعظم؟" فأطلق الملك سراح تلابيبه ببطءٍ وقد حيَّرته ثقته وقال: "سأقدِّم لك عشرة أضعاف الهبة التي سنصرفها للناس خلال

خمس سنوات." فقال المستشار وهو يبتسم بخنوعٍ مسرور: "أشكُركم يا سيِّدي الملك المعظم."

وفي القصر قرأ مختار على زوجته خطبة المستشار بإعجابٍ وهو يخبرها عن خطة ردْم البحيرة، فلم تُعجب الخطبة الملكة، بل عابت الفكرة محتجّةً بأنّها لن تقنع الناس بضرورة ردم البحيرة خاصّةً وأنَّ حوْل المدينة مساحاتٍ شاسعةٍ تكفي لبناء العديد من المستشفيات بالإضافة إلى أنّها ستُلزِمه ببناء المستشفى بعد الردم بوقتٍ قصير. فغضب المَلك وقال لها مُتحدياً: "هل تستطيعين أن تكتبي خطبةً أفضل من هذه؟!" فأجابته بثقة: "طبعاً أستطيع!" فظهر التردُّد على وجه مختار وسألها:

- حقّاً؟

- نعم، وأستطيع أن أكتبَها الآن.

- أكتبيها إذاً...

فذهبت إلى الغرفة التي يتدارس فيها المَلك أموره مع المستشار وجلست أمام المنضدة وتناولت ورقةً وقلماً وبدأت تكتب الخطبة الجديدة. وعندما انتهت منها قرأتها عليْه فأعجبته أكثر من خطبة المستشار وقرر إلقاءها بدلاً من تلك الخطبة، ثم قال وهو يتأمَّل الرقعة: "إنَّك أخبث من مستشاري." وعندما رفع رأسه ورأى نظراتها الغاضبة قال: "أعني أدهى... أذكى." ثم أخذ يقرأ الخطبة مراراً وتكراراً واضاف لها مقدمة وخاتمة ولم يبق أمامه إلّا أن يبدأ في استمالة الشعب.

١٣

ذهب رسول مركز قيادة المؤامرة العُليا إلى الخزينة يُبلغ أمينَها أنَّ المَلك قد أعفى الناس من ضرائب الأطعمة والألبسة فضاقت أنفاس أمين الخزينة وقال للرسول:

- في هذا الوقت؟ ولكنَّ الخزينة ما زالت تُعاني! ألا يمكن تأجيل ذلك إلى العام القادم؟

- تلك أوامر المَلك المعظّم.

فجلس الأمين أمام منضدته يُجري حساباته وهو يمسح العرَق المُتصبِّب من جبينه من القلق. وبعدها بيومَيْن أُعلن عن رفع ضرائب الأطعمة والألبسة.

وبعد إعلان الإعفاء من الضرائب بشهرٍ دخل الرسول مرَّةً أخرى على أمين الخزينة الذي كان يدور في حجرةِ الحسابات، وبأحد قدميْه حذاءٌ بلا جوْرب والأخرى حافيةٌ بينما أحد الجوْربيْن مُلقىً على حافّة النافذةِ والآخرُ على المنضدة، وفي يده قائمةٌ طويلةٌ يدقِّقها ويمسح العرق عن جبينه بين الفيْنة والفيْنة. وبعد قليلٍ انتهى من حسبته وانتبه إلى وجود الرسولِ فسأله ما يريد، فأخبره أنَّ المَلك أمر بإعادة جراية الأرامل والمُسّنين، فأغمى على الأمين القلِق، فاستدعى الرسول مساعده جُريْج وأسعفاه، فجلس أمام المنضدة

وخلَع عمامته التي أسفَرت بخلعِها عن شعرٍ ابيضّ تماماً خلال حُكم المَلك مختار، وخلع حذاءه الآخر وشرِب كأساً من الماء المُبرَّد ثم قال للرسول: "قد يُؤدِّي ذلك إلى كارثةٍ ماليَّة في البلاد... هذه النفقات ستُهلك الخزينة لا محالة، ولكنْ دعني أقوم بالحساباتِ اللّازمة لأخبرك بمقدار الجِراية الأنسب لكلِّ فردٍ مستحقّ." فقال له الرسول: "إحسب أيضاً شيئاً آخر ما دمتَ في وعْيِك، لقد أنعم المَلك المعظم على كافَّة الشعب بهبةٍ ماليَّة قدرها..." وقبل أن يُتم الرسول كلِمته خرَّ أمين الخزينة ميِّتاً. وهكذا مات أمين الخزينة القلق حافي القدميْن حاسر الرأس أثناء تأدية عمله، أمام منضدته التي مات ورأسه يعانق ما عليها من أوراقٍ مليئةٍ بحسابات الخزينة المُحتضرة.

ورشّح المستشار سفيان أمينَ خزينةٍ جديدٍ من أتباعه ولكنَّ المَلك رفض ذلك الشخص واصرَّ على تعيين جُريْجٍ مساعد الأمين السابق مكانه لاحتمال انتقال حِرصه إلَيْه، وإنْ قبِل أن يُعيِّن مرشَّح المستشار مساعداً له على سبيل مجاملة مستشاره.

ومثل أمين الخزينة الجديد ومساعده أمام المَلك في مركز قيادة المؤامرة العليا بناءً على أمره ليتلقّيا وصاياه. نظر إليهما الملك باهتمامٍ ثم قال: "لا بدَّ أنّكما مُدرِكان تماماً لأهميّة المنصب الذي سيشغله كلٌّ منكما." فأحنى جريجٌ وزميله رؤوسهما باحترامٍ وأجابا بالإيجاب، فأكمل الملك: "ومن ثَمَّ فلا بدَّ أن تتحليّا بكلِّ ما كان يتحلّى به الأمين السابق من حسن الحفاظ على الخزينة والأمانة... والقلق." فبُهت مرشَّح المستشار وظنَّ أنَّ المَلك قد أصيب بلوْثةٍ تجعل بعض الكلمات تخرج من فمه اعتباطاً، ولكنّه تأمَّل الملك وأبَّهته فرآه أكبر من أن يصاب بلوثةٍ فنفض رأسه وقد ظنَّ أن اللوثةَ قد اصابته هوَ أو أنَّ خللاً أصاب سمعه، أما جُريْجٌ فقد ابتسم بثقةٍ وهو يتذكَّر تعابير وجه الأمين

السابق ومواقع جوربيْه، وطمأن المَلك الذي أكَّد رغبته ثانيةً بأنّه يُريدهما أن يكونا أشدَّ سكان السديمة قَلقاً، على ألّا يبدأ القلق إلّا بعد توفير ما يغطّي النفقات التي أزهقت روح الأمين السابق، فوعداه بذلك، ثم مشى جريْج خارجاً بخطواتٍ خفيفةٍ سعيدةٍ وهو يحاول التحكُّم في حجم ابتسامته الكبيرة ولكنّه لاحظ أنّه يمشي وحيداً فالتفت إلى الخلف ليرى مرشّح المستشار يتبعه ببطءٍ شديدٍ وعلى وجهه تعبيرٌ شديد البلاهة، فعاد أدراجه وأخذ بذراعه وجرّه معه خارجاً وهو يُهنِّىء نفسه بحرارةٍ بمنصبه الجديد وزميله الجديد.

وقام الأمين الجديد بكلِّ الحسابات ونفَّذ كل تعليمات المَلك تاركاً الخزينة تعاني معاناةً لم يعلمها كثيرٌ من الناس الذين فرح معظمهم بعطايا الملك، باستثناء قلّة منهم أخذت تتساءل عن سبب ذلك الكرم المفاجىء. أما صالح فقد كان يُصغِّر من شأن ما قدَّمه الملك وينتظر حدوث شيءٍ بعد تلك الهبات.

***

في وقت الظهيرة من أحد الأيّام حيْث كان سكان السديمة قائلين وقف بِشرٌ أمام باب هاجر وطرقه أربع طرقاتْ فقامت هاجر بحذرٍ إلى الباب وفتحته، فسألها بِشرٌ همساً عن موقف صديقتها التي رفضت الاستمرار في خطة الإطاحة بعد هبات الملك وإن كانت استطاعت إقناعها بالعودة، فأخبرته أنّها لم تستطع ذلك، بل إنها هي التي اقتنعت برأْيها وقررت نبْذ الخطة أيضاً، فظهر عليه الضيق وقال:

- وأنتِ أيضاً؟! هل نسيت المعاناة في السنوات الأخيرة؟ هل نسيت محاولتك قتل نفسك بسبب هذا الملك؟ وهل نسيت شعار الخطة، أن يعود كلُّ شيءٍ كما كان في عهد الملك السابق؟

- أيُّ مَلكٍ سابق؟ لقد نسيت حقاً ما كان في ذلك العهد، ويكفيني عودة الجراية، فهذا هو الأمر الذي يهمني أن يعود كما كان، وقد فعل، أما نقل رسائلٍ إلى جهاتٍ غامضةٍ وتأييد خطةٍ لا أحد يعلم مصيرها ومصير المشتركين فيها إذا ما علِم المَلك بأمرهم فهو ليس لي ولك يا بِشْر، ليس لأمثالنا من العجزة، فما الذي نريده من الدنيا بعد عودة الجراية التي تحفظنا من الجوع في أيّامنا الأخيرة في هذه الدنيا؟ ما الذي يستحقُّ منّا تعريض أنفسنا للحبْس والجَلد في الأيام القليلة التي بقيت في عمرنا؟ إنّنا يا بِشْر نعاني عندما نريد أن نأكل شيئاً به قدر من الصلابة، ونتعذّب عندما نلتقط شيئاً سقط منّا على الأرض، فكيْف سنستطيع احتمال جَلدةٍ بسوْط؟ أؤكّد لك أنّه لو رُفع أمامي سوط لمِتُّ قبل أن يصل إليّ..

- ولكن...

- ولكن ماذا؟ أنظر إلى نفسك يا بِشر، ماذا تبقى من نظرك؟ كم شعرة بقِيت في رأسك؟ كم بقِيَ من أسنانك؟ قريباً ستجد كلَّ شيءٍ صلْباً في فمك حتّى الحساء... ثم كم بقيَ من عمرك في الدنيا لكيْ تقضيه لاهثاً من أجل أن يستمتع بها من يأتي إلْيها بعدك، كم شهراً، بل كم يوماً... عشرة أيام، سبعة... ثلاثة؟

فأطرق بِشرٌ قليلاً ثم ودَّعها وانصرف يمشي بخطواتٍ بطيئةٍ مُتثاقلةٍ، وهوَ يشعر بالوهن يسري في جسمه الضعيف من الرأس الذي انجذب إلى الأسفل فجأةً إلى القدمين اللتين بدأ يجد مشقةً في رفعهما عن الأرض أثناء سيره، وشعر أنّه سيموت بعد ثلاثة أيام.

***

وفي مركز الخطّة المضادّة جاء أحد كبار الأفراد الذين لا يَعرِف مكان ذلك المركز غيْرهم وتلا تقريراً عن سيْر الخطّة وأتباعها على الرئيس قائلاً: "بعد الهبات التي منحها المَلك للشعب، والضرائب التي أسقطها عنهم فقدنا أعداداً لا يُستهان بها من أنصار الخطة المضادّة الفعّالين والمؤيّدين حيْث رضِيَ الناس عن الملك. لقد فقدنا عُشر الجنود المنضمّين إلى حزبنا وخُمس رفاقنا المنتمين إلى جهاتٍ غير الجيش، وجماعة المُعدمين كلّها ونصف جماعة الحائرين، أما جماعة المهمومين فلم نفقد منهم أحداً لأنَّ ذويهم من أصحاب الجرايات ما زالوا في ضيافتهم". فضحك الرئيس ضَحِكاً اهتزّت له لِحيته الشهيرة التي أخذ يداعِبُها باصابعٍ تستمتع بإذلال الحديد وقال: "أرأيتم كيْف يَرضى الناس بكلِّ شيءٍ إلّا تحمِّل الأقارب المساكين." ثم أضاف: "ولكنْ لا تقلقوا أيّها الرفاق، فهذه الهِبات مؤقتةٌ وستعود الضرائِب قريباً وتنخفض الرواتب أكثر مما سبق، لأنَّ رجالنا في الخزينة يقولون إنّها تعاني، وقد مات أمينُها السابق هلَعاً بعد أن طلب إلَيْه أن يصرف تلك النفقات التي أكرم الملك بها الشعب، ولا أدلُّ من ذلك على أنَّ الضرائب ستعود وأنَّ الجرايات ستتوقَّف قريباً، بعد شهريْن بالتمام، وتعود معاناة الناس فيعود رفاقنا الذين تركونا. ولكنّنا أحسنّا صُنعاً بإبقاء أسماء مقارِّ وأفراد الإدارة العُليا للخطّة المضادّة قَصْراً على أقطابِها وإلّا لكنّا تخوَّفنا من انسحاب من انسحب... ومما يُطمئِن أيضاً أنّهم وإن فقدوا حماسَهم لتنفيذ الخطة إلّا أنهم ما يزالون يذكرون من أفعال مختار ما يجعلهم غيْر قادرين على حبّه، ومن ثَمَّ فلن يحاولوا إبلاغه عن هذه الخطة." فاطمأنَّ المجلس وأخذ الأقطاب بعدها يناقِشون التعديلات التي فرضها على خطّتهم رضى الناس المفاجيء عن المَلك.

كان تفاؤل صالح الحدّاد بلا حدودٍ حتّى أنّه وبعد تلك الأعداد التي خسرتها جماعته من المؤيِّدين ذهب مُطمئناً إلى دكّانه وفتح أحد الصناديق الصدِئة وأخرج منها قيْديْن مُتصلين بسلْسلَةٍ غليظةٍ وأخذ يُحمّي سُلوكاً من الحديد والنحاسِ ويزخرف بها القيْديْن اللذين سبقت زخرفتهما بنقوشٍ عميقةٍ. ثم أخذ يُزخرِف أحد القيْديْن ثانيةً وهوَ يُهَمْهِمُ بأغنيةٍ قديمةٍ حتّى ظهر شكله النهائي. عندها توقَّف صالحٌ عن الغناء وابتسم وهو يتأمّل القيْد المزخرف ثم خاطب مختاراً في نفسه قائلاً: "كِدتُ أنتهي من قيْديْ معصميْك أيّها الملك مختار، ولم يبق إلا قيْدا رجليْك... ستكون يا مختار أوَّل من يرتدي قيوداً جميلةً ومزخرفة. لقد زركشتُها كثيراً لتليق بمَلكٍ مثلك، فأنت تُحبُّ ارتداء الموَّشى والمزركش من فاخر الثياب، ولن تكون قيودك أقلَّ زركشةً من ردائك، فهنيئاً لك هذه القيود أيّها المَلك المعظّم. ولكنْ لا أضمن لك أن توضع حوْل معصميْك وكعبيْك، فقد ترفُض الاستسلام والمحاكمة وتُصرّ على القتال فتُقتَل قبل أن نأسِرك، وعندئذٍ لن تحظى بهذه القيود الجميلة، ولكنّي أتمنَّى من قلبي يا مَليكي المعظّم أن أراك فيها." ثم ابتسم وهو يستعرض في مخيِّلته الأسلحة المتراكِمة في قبوِه التي كان يجمعها بصبْرٍ منذ مدَّة طويلة. لقد كان سعيداً بها بحيْث لم يتخيَّل الصدور التي ستُغمد فيها تلك الخناجر والرماح والسيوف. لم يكن يتخيَّل إلا رؤية مختار مُنتزَعاً من عرشه، وعمرو خارج أسوار سجنه. لذلك فقد تراكمت تلك الأسلحة في قبوِه في غياب عمرو خلف القضبان كما تراكمت في منزل التآمر الصغير عندما كان حبيساً في قبو مختار.

ثم واصل صالح الزخرفة والهَمْهَمَة المنغَّمة. لقد كان ينعَم بطمأنينةٍ غريبةٍ ويشعر من أعماقه أنَّ خطّته ستُؤتي أكُلَها قريباً، فقد قضى السنوات العشر الأخيرة يُعد لخطِته تلك، فكوّن مجموعةً من ذوي سُجناء المَلك – وأكثرهم

من كبار السن – كانت اللبنة الأولى لجيْشٍ كبيرٍ من رافِضي حُكم مختارٍ نمى مع الأحداث. وقد كان واثقاً من النتيجة إذ اختار اللبنة الأولى من الشيوخ؛ من نوعٍ من الناس يُؤمن بالزمن ويعرف كيْف يزرع الأشياء لا بيْن ثنايا الأيّام وإنما بين ثنايا السنين لتُؤتِي أُكُلَها تامَّ النضج قبل أن تتراكم ماضياً منسيّاً.

***

بعد تلك الهبات التي أسعدت الشعب وأرضَته عن حاكِمه حدّد المَلك يوم اجتماعه بالشعب. وسار مُنادون في أحياء المدينة وطرُقاتها يُعلنون عن دعوة الملك لشعبه إلى اجتماعٍ كبيرٍ في الساحة الكبرى في المدينة. وأعِدّت الساحة وتجمَّع الناس في صفوفٍ طويلةٍ جلس أكثرُها على مقاعدٍ طويلةٍ ووقف ناسٌ في مؤخرة تلك الصفوف، وجلس ناسٌ على الأرض في مُقدِّمتها واصطفَّ الحرس على جوانبها وانتثروا في أواسطها. ثم سمع الحضور صوت معازف صاخبة تُعلن عن وصول المَلك بأثوابه الموَّشاة وعطوره النفاذة. وما هِيَ إلا لحظاتٍ حتى دخل الملك الساحة وتقدم إلى كرسيٍّ فخْمٍ وُضع على مِنصةٍ مرتفعةٍ وعلى يساره كُرسيٌّ أصغر منه أُعِدَ لمستشاره. عند ذلك وقف أفراد الشعب إحتراماً وإكباراً للملك وأخذوا يتغنَّون بنشيد الملك مختار الذي لا يكاد أحدٌ يميّز شيئاً من كلماته لكثرة المُنشدين، بينما رفع المَلك يده مُحيّياً المُتجمهرين وابتسامةٌ فخورةٌ تعلو محيّاه وهو يمشي ببطءٍ إلى أن وصل إلى منصّته. وجلس على كرسيِّه وأراح ذراعيه على ذراعي الكرسيّ اللذين تُغطّيهما وسادتان وَثِيرتان مُغلَّفتان بالحرير اللامع، وجلس مستشاره على يمينه واصطفت حاشِيته وحرسه على جانبيْهما وخلفهما، وجلس بعضهم على حافّة المنصّة عند أقدامهما.

رسم المَلك ابتسامةً كبيرةً وهوَ يُحيِّي شعبه، ثم بدأ خطبته بالإشادة بشعبه إلى أن وصل إلى الجزء المتعلّق بالبحيرة حيْث قال: "... أيها الشعب المُخلِص، لقد آن لي أن أحدِّثكم في أمرٍ يهمُّنا جميعاً... لقد نشأنا ونحن نرى بُحيْرةً في بلادنا يتهافت مُعظمُنا على الوقوف أمامها ليرى صُوَراً غريبةً على صفحتها، صوراً جعلها خيالُنا تبدو كالحيوانات أمامنا. فإذا رأينا ثعلباً قلنا إنَّ صاحب تلك الصورة ماكرٌ وإن رأينا حمَلاً ظنّنا أنَّ صاحب تلك الصورة وديع... فما هي الركيزة التي ارتكزنا عليْها إذ نستخلِص هذه الأحكام؟ إنّنا نراقب سلوك هذه المخلوقات المسكينة ثم نُسبِغ عليها من خيالنا صفاتٍ مختلفة، فما يُدرينا إنْ كان الطاووس مغروراً؟ إنَّ جماله يُبهِرُنا، ولكنَّ جمالَه لا يعني أنّه مغرور. ولا أحد يُجزِم أنَّ النعامة حمقاء لأنَّها تُخفي رأسها في التراب، ربَّما كان لها أسبابها التي لم يتوصَّل البشر إلى معرفتها. كما إنَّه ينبغي علَيْنا أن نعلم أن الأشياء لا ترى من جانبٍ واحدٍ فقط... إنّنا أيُّها الشعب العظيم نرى العصفور كائِناً رقيقاً لرشاقته وخِفَّة حركته وعذوبة زقزقته وضعفه وهشاشة عظمه، ولكن، كيْف تراه دودة الأرض التي ينقضُّ علَيْها ويسلّها من بيتِها بمنقاره ثم يبتلعها دفعةً واحدة؟ هل فكَّر أحدنا في صورة العصفور عند دودة الأرض؟ هل فكّر أحدنا في رأي دودة الأرض في العصفور؟" كان الملك ينقل بصره بين جموع أفراد الشعب وهو يسألهم تلك الأسئلة وكأنّه كان ينتظر إجابةً منهم بينما أخذ الناس ينظر بعضهم إلى بعضٍ وهم يُحرِّكون رؤوسهم يميناً وشِمالاً استهجاناً لموقفهم من البحيرة وفي أعيُنهم نظرةُ إعجابٍ بمنطق الملك، فاستطرد الملك قائلاً: "أناشِدكم أيّها الإخوة بكلِّ ما هو مقدَّسٌ لديْكم، أيّها الشعب الكريم، هل يعرِف أحدُكم رأيَ دودة الأرض في العصفور؟" فقالوا جميعاً: "لا أيّها المَلك الكريم، لا أحد يعرف رأي دودة الأرض في العصفور." فأكمل كلامه قائلاً: "لا أحد يعرف

رأي دودة الأرض، مما يدلُّ على أنَّ مقاييسنا ناقصة، وأنَّ رموز هذه البحيْرة مُبهَمةٌ، ولا ينبغي أن نوليها اهتماماً لأنَّها تجلِب لبعضِنا الحزن ولبعضِنا الألم ولبعضِنا خيْبة الأمل ولبعضنا الغرور." ثم مسح حبآتِ عرَقٍ صغيرةٍ أحسَّها في جبينه من جرّاء الجهد الذي بذله في جعل كلامه مُؤثّراً وأكمل في حماس: "لقد آن لنا أن نفتح أعيُنِنا وأذهاننا وننتبه لمستقبلِنا فنهتمُّ ببناء بلدنا وتعميره، ونتخلَّص من كلِّ ما يُسبِّب لنا التخلّف والالتصاق بتلك الأفكار الظنَّيّة. ولا سبيل إلى ذلك مع وجود رمز التخلّف في بلدنا، لذلك، ألا ترَوْن أن نردِم البحيرة؟" فهتفت أصواتٌ كثيرة: "بلى أيّها المَلك المعظّم." فقال بابتهاجٍ وحماس: "فلنردم البحيرة إذاً!" وسكت الملك ليلتقط أنفاسه التي استهلكتها كلِمته التي راعى أن يزخرفها بدرجاتٍ صوْتيّةٍ تعلو وتنخفض بما يلائم أفكاراً انسابت من فمه على هيْئة كلماتٍ منظّمة أقنعت مُعظم الحضور وجعلت أصواتُهم تعلو بالموافقة، أما من لم يقتنع منهم فقد فضّل السكوت على مخالفة الملك وتعريض نفسه لغضب الجمهور الذي أسكرته كلمات الملك، ولم يجرؤ على الإعتراض إلا رجلٌ واحدٌ في أحد الصفوف الخلْفية، وقف وطلب الإذن في الكلام، فاقتاده الحرس إلى الصفِّ الأماميَّ حيث وقف أمام الملك وقال: "إنَّ ما يقوله سيِّدي الملك المعظّم لحقٌّ، ولكنِّي أرى أنَّ فائدة هذه البحيرة تفوق مضرّتَها، فالناس في بلاد العالم المختلفة يشدُّون الرحال إلى بلدنا ليروْا صورهم في بحيرتِنا، وكثيرٌ منهم لا يكتفون برؤية صورهم فقط وإنما ينتهزون الفرصة فيأتون ببضائع مختلفةٍ يبيعونها هنا ويشترون من بضائعنا، ومن لا يتَّجِرُ منهم فإنّه يتبضَّع في أسواقنا فتنتعش تجارتنا، ومِن غيْرِ هذه البحيرة يفتقر بلدُنا ويزول رمز اختلافه، فيتساوى مع غيْره من البُلدان ولا يبقى لنا ما يميِّزنا." نظر الملك نظرةً خاطفةً سريعةً إلى مستشاره الجالس عن يمينه كأنّه يخبره أنَّه في مأزقٍ أو كأنَّه يحاول الاقتباس من دهائه الذي لا

يتخلّى عنه أبداً، ثم تماسك – وكان العمل مع مستشاره طوال تلك السنين قد أضاف إلى ما كان لديْه من حنكةٍ وعلَّمه كيْف يُخلّص نفسه من المآزق المختلفة بحِيَلٍ مُحكمةٍ تأتي في سرعة بديهةٍ منقطعةِ النظير – والتفت إلى الرجل وقال وهو يبتسم ابتسامة المَلك المتفهِّم الحنون: "إنَّ ما تقوله أيّها الأخ الكريم لَيَحظى بكلِّ تقدير، وقبل أن أشرع في إجابتي أودُّ أن أقول إنّه لَيُسعدُني أن يكون من بيْن وُزرائي رجلٌ مثلك لما لديْك من عقلٍ مستنيرٍ وفكرٍ بعيدٍ ونظرةٍ ثاقبةٍ للأمور..." احمَّر وجه الرجل فرَحاً وخجَلاً وهو يتلقّى ذلك العرض السخيِّ الذي لم يكن يحلم بمثلِه، والذي يضمَن له ولعائلته عيْشاً ناعماً طوال حياة المَلك وبعد مماته، وفطِن الملك إلى ما شعر به الرجل فشعر بارتياحٍ شديدٍ وأرسل نظرةً خاطِفةً إلى المستشار فهِم منها أنَّ الملك يريد أن يخبره أنّه تخلّص من مأزقه، وأنَّ الرجل المعارِض قد أصبح في قبضته قبل أن يردَّ على رأيه المعارض، ثم أكمل الملك كلامه في حماسه الذي بدأ به الخطبةِ وفي قُدرتهِ على الإقناع التي تفيض من خلال كلماته وحججه لتدخل في أذهان مستمعيه بلا مقاومة؛ قال إنَّ اعتماد البلد على البحيرة كموردٍ أساسيٍّ إنّما يُعرقل تقدُّمه ويجعله لا يرتفع عن مستواه الحالي، أما التخلّص منها فسيصرف أنظار الشعب إلى الاهتمام بأرضه التي يجري فيها نهرٌ عذب، وإلى الصناعة، بينما سيُسبِّب لهم الاعتماد على البحيرة الافتقار في مستقبل الأيّام عندما يبدأ الناس في استسخاف صُور البحيرة والانقطاع عنها، وعندئذٍ سيُدرك الشعب أنّه ترك الكثير يفوته من أجل شيءٍ قدَّم له القليل وأورثه الخُمول.

ثم قام الملك مختار يلَمْلِم أطراف بُردته قائلاً للشعب وهو يودِّعه: "إن كنتم ترَوْن ما أرى فابدأوا ردْم تلك البحيرة قبل أن أصل إلى قصري." فتدافع الناس خارج الساحة لتنفيذ أمر الملك وهو ينظر إليْهم مُبتسماً إلى أن وصل

إلى موقع رَكْبِه. وقبل أن يمتطي الملك حصانه هنَّأه المستشار سفيان على سرعة بديهته ثم قال له: "ولكن، ألا يرى سيِّدي الملك المعظم أنَّه ألزم نفسه بتعيين ذلك الرجل الذي لا نعرفه وزيراً؟" فضحك الملك وأجاب:

- وهل حدّدت له موعداً؟

- لا يا سيِّدي الملك المعظّم، ولكن...

فقاطعه الملك قائلاً: "لا تخشَ شيْئاً أيّها المستشار سفيان، فعليْه أن يتدرَّج في مناصب عديدة قبل أن يصل إلى المركز الذي يتمنّاه، وأوَّل هذه الدرجات حاجبٌ أمام باب أحد كتبة الديوان." فضحك المستشار مُبدِياً إعجابه بدهاء الملك الذي أضاف ضاحكاً: "ولكنَّ الرجل لن يعلم بذلك إلا بعد أن يتمَّ ردم البحيرة بسنوات." فزاد تضاحك المستشار وابتهاجه وإعجابه بسيِّده الملك المعظّم.

***

مرت قافلة الملك بالسجن الذي به عمرو فأمر الركْب بالتوقُّف وأخبرهم أنَّه يريد أن يتفقّد أحوال السجن، فدخل وأخذ يطلُّ في الحُجرات من نوافذها ويحيِّي السجناء ليموِّه زيارته لعمرو إلى أن وصل إلى نافذته، فأمر حرّاس السجن ومن معه أن يتركوه وحيداً هناك، فتنحَّوا عنه ووقفوا ينتظرونه أمام بوابة السجن، أما هو فقد مثل أمام عمرو الذي كان جالساً على فراشه يقرأ في بعض كتبه، وما إن رآه حتى ظهر عليه انبهارٌ شديدٌ ودهشةٌ إذ لم يكن رآه في زيِّه المَلكيِّ قبل ذلك. نظر إلَيْه مبهوراً وقد خالجه شعورٌ بالرهبة كالذي يُخالج الإنسان عندما يمثل بيْن يديْ المَلك أوَّل مرَّة، ولأوَّل وهلةٍ تخيَّل أنَّه الملك السابق فوقف وحيّاه وهو يقترب من النافذة قائلاً: "مرحباً بكَ أيَّها الملك المعظّم." فضحك مختار وقال: "وأنت أيضاً ستُلقِّبني بالملك المعظم؟" فقال

عمرو وهو ما يزال مأخوذاً أمام هيْئة مختار المَلكيّة: "مختار؟ لطالما حاولت أن تقنعني بعجزِك عن نبْذ المُلك ولكنِّي لم أفهم موقِفك إلّا الآن." فردَّ مختارٌ ضاحِكاً بسعادة: "ممتاز، ما أجمل أن تفهمني يا عمرو، أشعر أنَّ الخلاف بيننا سينتهي تماماً." عندئذٍ زال الانبهار عن عمرو وشعر أنَّ الثياب المَلكيّة فقدت هيْبتها وأدرك أنّه أمام مختار صديقه القديم الذي لعب لُعبةً خطِرةً سفَك في سبيلها سيْلاً من الدماء، فعاد إليه غضبه عليْه من دون أن يشعر مختار الذي استطرد قائلاً:

- إنَّني سعيدٌ جداً يا عمرو، وسترى تعامُلي مع الآخرين، مع كلِّ الشعب أفضل بكثيرٍ مما كان.
- ما الذي حدث؟
- لقد تخلّصت من مصدر ضيقي الذي يجعلني أضيق ذرْعاً بكلِّ ما حوْلي وأقسو على الناس.
- هل قررت اعتزال المُلك؟
- لا بل تخلَّصت من البُحيرة.
- البحيرة؟ البحيرة التي...
- نعم، لقد اجتمعت بالشعب منذ قليلٍ وأغريتُهم بردمِها وتركتهم وهم يتسابقون إلى تنفيذ ذلك إرضاءً لي.

فظهرت دهشةٌ شديدةٌ على وجه عمرو أعقبَها حُزنٌ وألمٌ وقال: "أمرت بردم البحيرة!" فأجاب مختار مستغرباً: "ما بك يا عمرو، ألم تكن تكرهُها وتلعنُها؟" فدمعت عيْنا عمرو ولم يُجب، فقال مختار مُندهِشاً: لم أرك تبكي على دريدٍ ولا على هيْثم ولا على آدم، ولا على المَلك السابق وجنوده، فكيْف تبكي على البحيْرة التي لم تكن تعبأ بها؟" فقال عمرو بصوتٍ به أثر البكاء:

- عندما يموت إنسانٌ فإنَّ إنساناً آخر يحلُّ محلَّه ولكنْ متى ما ردمت تلك البحيرة فمعنى ذلك أنّك ردمت تُراثَنا ورمزَنا... لقد ردمتنا جميعاً أيّها المتهوِّر.

- ما هذا الجنون؟ ألم أقل لك إنَّ ذلك سيُريحُني ويجعلني أخالق الناس بخُلُقٍ حسن؟

- لا! بل يعني أنَّ الدنيا كلُّها أصبحت مختار! كلُّ شيءٍ يُفعل من أجل مختار، وكلُّ شيءٍ يُهدم من أجل مختار! وكلُّ شيءٍ أصبح مختار!

ثم سيْطر الغضب على عمرو فأخذ يضرب قضبان نافذته بقوة ويصيح بصوتٍ عالٍ:

- البلد كلُّه أصبح مختار، بل الدنيا كلُّها أصبحت مختار... الدنيا كلّها أصبحت مختار...

تراجع مختارٌ وهو ينظر في ذهولٍ إلى عمرو الذي لم ير في عيْنيْه مثل ذلك البريق الغريب من قبل، ثم انطلق خارجاً من السجن.

***

في مقرِّ المؤامرة المضادّة السرِّيّ، كان صالح الحدّاد رئيس الجماعة مع خمسةٍ منها ينتظرون سابع أقطاب المؤامرة الذي دخل مسرعاً وأخبرهم بكارثةِ ردم البحيرة، ثم قال: "لقد تركتُ الناس وهم يتدافعون إلى منازلهم ليجلبوا ما معهم من معاول وفؤوس ودلاء ليتوجَّهوا بها بعد ذلك إلى البحيرة لردمها ونزف مياهها." فقال أحد الموجودين: "البحيرة؟ لم يجرؤ أحدٌ على أن يفكِّر في ردمها قبل ذلك." فأجاب: "لقد أُجتُرِأ عليْها في عهد المَلك مختار! لو رأيت الناس وهم يتدافعون لتنفيذ أمره بعد أن أقنعهم بكلامه الموشّى كردائه لما قلت ذلك." فقال صالح:

- بئس الدهماء هم، كيف استطاع خداعهم بهذه السهولة؟
- هل نسيت أنَّهم بدأوا يرضوْن عنه منذ شهرين.
- لقد اتّضح الآن سبب كرمه المفاجيء، ألم أقل لكم إنَّ وراء ذلك شيء؟
- لقد أفسد خطّتنا بإصلاح علاقته بالشعب خلال الأشهر الأخيرة.
- لم يُفسد شيئاً.
- ولكنّه عرقلها.
- مدَّةً قصيرة، فسرعان ما يعلم الناس أنَّه لم يفعل ما فعل إلّا لتهيِئتهم لهذا اليوم. وبعد مدَّةٍ قصيرةٍ ستعود الضرائب وتنخفض الرواتب وتنقطع الجرايات، فيكرهه الناس ثانيةً... وسيكتمل استعدادنا في أثناء ذلك.
- كم أصبح عددنا الآن؟
- ما زال معنا أكثر الأفراد، فما زال الجنود المساجين كلّهم معنا هم ونزلاء السجن ممن حاولوا الإنقلاب قبلنا، وعددٌ من العاملين في السجون الذين ينتظرون أوامرنا بإطلاق أولئك السجناء، وربع الجيْش تقريباً وكلّهم ينتظرون تحديد موعدِ تنفيذ خطّة الإطاحة بالمَلك.

فتنفَّس الرجل بِعمقٍ وكأنّه يُعدُّ نفسه لموعد التنفيذ وقال: "إنّني متأكدٌ من نجاح خطّتنا خاصّةً بعد أن أمر بردم البحيرة، فعندما يتفكَّر الناس في الأمر بعد أن يعودوا فقراء ويزداد السائلون، سيجدون أنَّ ردم البحيرة أمرٌ عظيمٌ في حقِّ البلد لا يعادله شيء، فليكن ردم البحيرة القربانَ الذي ضُحِّيَ به في سبيل الخلاص من حكم هذا الطاغية."

صمت الجميع برهةً ثم ظهر الغضب على وجه أحدهم وقال: "ولكن، دعونا في هذا اليوم الذي تُردم فيه بحيرتنا، فيُغتال معها تراثنا نجدِّد عهدنا

بأنْ ننتزع الحُكم من مختار وإنْ استدعى ذلك انتزاع حياته أو حياتنا." فتعاهد الجميع على ذلك وأضاف أحدهم: "وإن غمرت الدماء طرقات السديمة كما تفعل الآن مياه البحيرة!" ثم التفت أحدهم إلى صالح وسأل: "ومتى الموعد الجديد المقترح لتنفيذ الخطة؟" فأخذ صالح يَعدُّ في سرِّه وهو ينظر إلى الأعلى وكأنّه يرى المستقبل ثم ابتسم وقال:

- يا لها من مصادفة! سيصادف الوقت الذي سنكون فيه على أُهبةِ الاستعداد أيّام الموكب.

- هل نُعيِّن يوماً محدداً منذ الآن؟

فقال صالح بصوتٍ صلْبٍ كالحديد المصمت: "فليكن يوم التنظيف!"

***

في تلك الأثناء كان الناس يتدافعون إلى البحيرة بعد أن جلبوا معاوِلهم وفؤوسهم واستعاروا من تلك الأدوات ما لم يكن متوافراً لديهم، وأخذوا يحفرون في أماكن متفرقة محيطةٍ بالبحيرة لتسري فيها المياه ثم يهيلون التراب والحصى في البحيرة، وكان بعضهم يجلبون التراب والحصى من مناطق بعيدةٍ ويتّجهون به إلى البحيرة، كما أخذ آخرون ينقلون مياهها في دلاءٍ ويسكبونها في الطرق بين المنازل فيما أخذ من عجز منهم عن القيام بعملٍ من تلك الأعمال يُحمِّس الآخرين بترديد أغنية المَلك مختار.

كانت البحيرة تتضاءل وتتضاءل بفعل ما كان يُلقى فيها من رمل وحصى وما يُستخرج منها من ماء. وقبل أن تردم كليّةً وتختفي إلى الأبد وسط العدد الكبير من الناس الذين أحاطوا بها امتلأ سطحُها بصور أعدادٍ هائلةٍ من حيوانٍ واحدٍ لم يلاحظه الناس ولم يروا أذنيْه الطويلتيْن على سطح البحيرة

التي تماوجت مياهها بين سيقان الناس المتراكضة وتعكّرت تحت أقدامهم ودلائهم ورمالهم.

النهاية

بقيّة الأسطورة:

عندما رُدمت البحيرة اختفت إلى الأبد. ولكنّها لم تختفِ من أذهان بعض الناس لأنَّ المَلك مختار لم يأمر بردم صورتها وذكراها في عقول الناس. لذلك فقد بقِيت في مخيِّلة كثيرٍ منهم توهِم من توهم وتغرُّ من تغرّ مصوِّرةً لهم أنفسهم بأشكالٍ غريبةٍ تجعلهم يفعلون أشياء أغرب، حتّى يُغضب ما يفعلونه أناساً آخرين فيقاومونهم بشراسة. ومنذ ذلك اليوم والوهم يتناوب مع الغضب نداء الناس فيجدانِ دائماً من يُلبِّي النداء...

إلى يومنا هذا!

صدر للمؤلفة:

١- إنسان في حيز الوجود.....(مجموعة مسرحية) ١٩٩٢
٢- أسطورة الإنسان والبحيرة.....(رواية) ١٩٩٣
٣- أشجار البراري البعيدة.....(رواية) ١٩٩٤
٤- من البحّار القديم إليك.....(رواية) ١٩٩٥
٥- دنيانا... مهرجان الأيام والليالي.....(رواية) ٢٠٠٠
٦- أنا الياسمينة البيضاء.....(قصص قصيرة) ٢٠٠٢
٧- التفاحة تصرخ... الخبز يتعرى.....(مجموعة مسرحية) ٢٠٠٤
٨- عوالم صغيرة.....(حكايات) ٢٠٠٧
٩- الخيل وفضاءات البنفسج.....(قصص قصيرة) ٢٠٠٩

كتب المؤلفة المترجمة إلى لغات أخرى:

١- دنيانا... مهرجان الأيام والليالي (إلى اللغة الإنجليزية)
٢- أسطورة الإنسان والبحيرة (يجري ترجمتها إلى اللغتين الفرنسية والإنجليزية)
٣- أنا الياسمينة البيضاء (يجري ترجمتها إلى اللغة الإيطالية)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٢٥٨ لسنة ١٩٩٣م